حبيب عبدالرب سروري

مكتبة النخبة

أروى

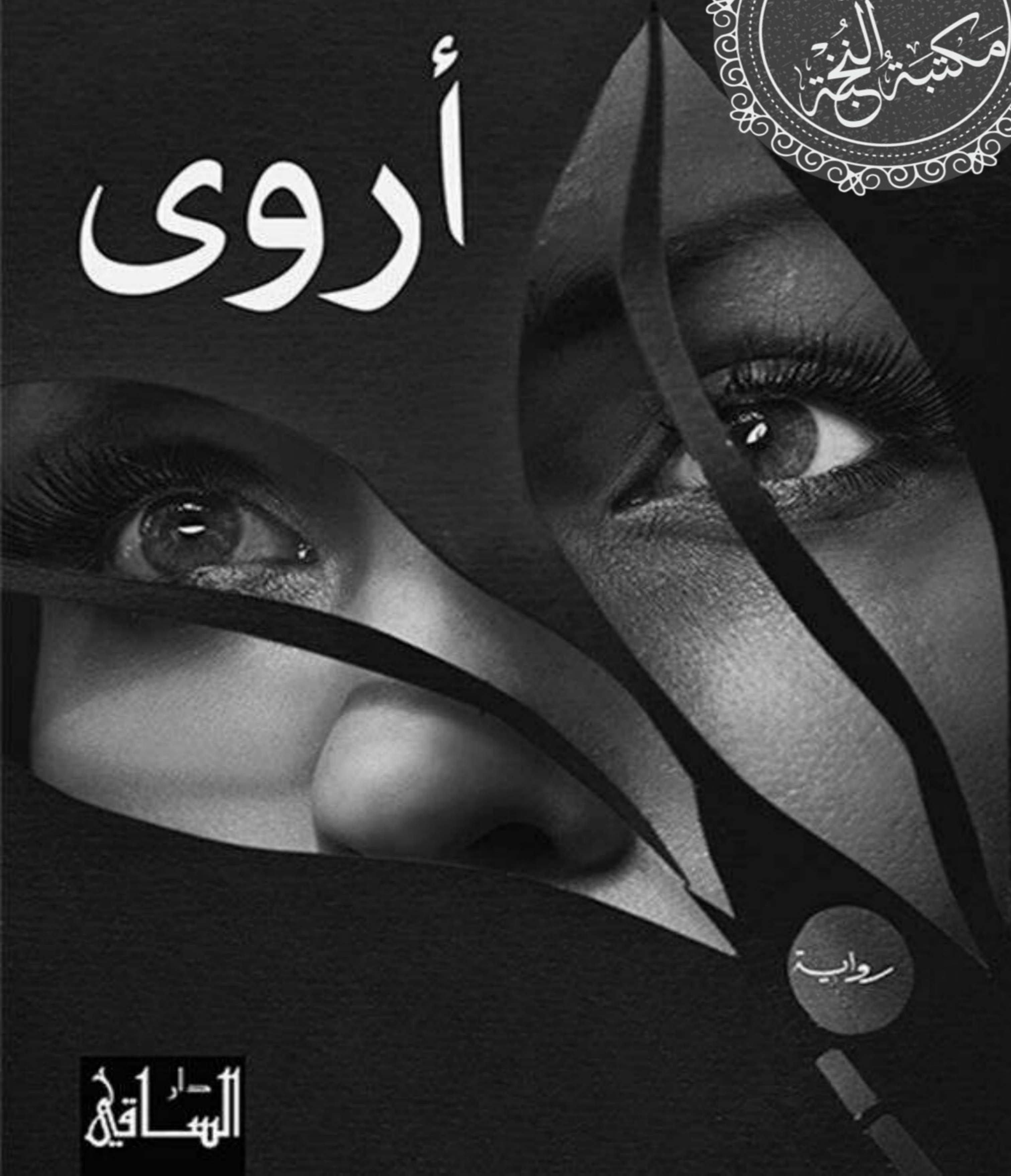

رواية

دار الساقي

أروى

صدر للمؤّلف

في الرواية: الملكة المغدورة، دار الأرماتان، فرنسا، 1998**. ترجمها للعربية علي محمد زيد، دار المهاجر، اليمن،** 2002.

عرق الآلهة، دار رياض الريس، لبنان، 2008.
دملان (ثلاثية روائية)، دار الآداب، لبنان، 2009.
طائر الخراب، دار رياض الريس، لبنان، 2011.
تقرير الهدهد، دار الآداب، لبنان، 2012.

في القصص: همساتٌ حرّى من مملكة الموتى، دار العفيف الثقافية، اليمن، 2000.

في الشعر: شيءٌ ما يُشبِهُ الحب، دار العفيف الثقافية، اليمن، 2002.

مقالات فكرية: عن اليمن، ما ظهر منها وما بطن، دار العفيف الثقافية، اليمن، 2005.

كتب ومقالات علميّة: نُشرتْ له كتب علمية عديدة وأكثر من 80 **بحثاً علميّاً بالفرنسية والإنكليزية في مؤتمرات ومجلات علميّة دوليّة محكّمة.**

حبيب عبد الرب سروري

أروى

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشتَرَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٣

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٥

ISBN-978-614-425-612-1

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢.
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

لِعبد اللطيف الإدريسي...

”العالَمُ مِلكٌ للنساء، أي مِلكٌ للموت“...

فيليب سوليرس

”هل أنت طاقةٌ جديدة وحقٌّ جديد؟ دولابٌ يدفعُ نفسهُ بنفسه؟ سيكون بإمكانك إذن أن تُرغم النجومَ بالدوران حولك!...“

نيتشه

اعترافٌ أوّليٌّ هامّ

هذه روايةٌ وصلتْني من السماء. لم أتعبْ بكتابتها قط!...

صاغَ كلَّ فصولها تقريباً ثالوثٌ من أبطالِ الرواية الأربعة: أوسان، باسل، وشوقي.

"فدائيو أروى"، كما أحبّ تسميتهم...

للرواية "شهيدٌ" رابع: منيف، اغتِيلَ غدراً برصاصاتٍ مَنَويّة!...

أعترفُ لكم من الآن: ثمّة غرقى كثيرون في هذه الرواية، وحوريّة بحرٍ واحدة!...

من هي أروى؟

هي التي سيقول عنها صديقي شوقي، الفدائي الأوّل:

"أروى امرأةٌ لا نظير لها في كلِّ شيء. كلوروفيلُ حياةِ من تهبُهُ قلبَها... يكفي أن تُلامسَ أطرافُ أصابِعِهِ ساعدَها لِيَصلَ الجنّة!...".

هي التي سيقول عنها صديقي أوسان، الفدائي الثاني:

"أروى إعصارٌ من الرقّة اكتسحَ كلَّ شيءٍ في حياتي. جميلةٌ كإله. كلَّ ثانيةٍ قربَها عشقٌ وموسيقى وإبداعٌ ولذّة... يكفي أن أراها لِيسقط فوق صدري جبلٌ من السعادة، لا ينزاحُ عنه إلا عند فراقها!...".

هي التي سيقول عنها صديقي باسل، ذو النهاية المجنونة الغامضة:

"أروى شمسٌ بِعينين سوداوين واسعتين (لعلّ ذلك أفضلُ ما يلخِّصُها بكلمتين). ذكاءٌ ثاقبٌ وطاقاتٌ لامتناهية، جسدٌ رهيفٌ من موسيقى، روحٌ رشيقةٌ أيضاً، صوتٌ من عسل يغسلُ كلّ أوجاع الحياة، خطواتٌ راقصة، جَمالٌ قاتل، ملِكةٌ حقيقية!...

كلُّ من يراها يعشقُها بالضرورة. كلُّ من أحبَّها تحوّلَ مجنوناً، وكلُّ من لم تحبّ فقدَ عقلَه!...

دونها كنتُ أحيا "خارج النص"... قبْلها عِشتُ حياتي، رغم غزارتِها، خطأً كاملاً من الطرف إلى الطرف!...".

من أنا؟

لِنقُلْ: رفيقٌ مخلصٌ لأبطال الرواية، علاقتهُ بهم أقلُّ جذريّةً من علاقتهم ببعضهم بكثير! جميعُهم يحترمونني ويثقون بي، لا أقل ولا أكثر...

كنتُ معهم ذات يوم في ركن الشارع، وهم في العاشرةِ من العمر. سمعتُهم يُقسمون ويعاهدون أنفسهم على أنهم عندما يكبرون ستكونُ لهم زوجةٌ واحدة! ثمّ انزاحَ أحدُهم (لعلَّهُ الشيطان باسل!) مفضِّلاً أن يتزوّجَ كلٌّ على حدة، وأن يترك زوجتهُ "تنام" مع الآخر، متى شاء!...

أكبرُهم بثلاث سنوات، و"أكبرُ منك بيوم، أعقلُ منك بسنة" كان صحيحاً جدّاً في تلك اللحظة بالذات التي أحسستُ فيها أنهم ليسوا أكثر من أطفالٍ أرادوا أن يؤكدوا بعهدِهم ذاك مدى تآلفِهم وحبِّهم لبعض، ورغبتِهم في تقاسم السرّاء والضرّاء!...

لعلّي تعلّمتُ قليلاً في تلك السنوات الثلاث ما يعني للإنسانِ مفهومُ: الحميميّ، المقدّس... هل، في الواقع، للمتر المربَّع في الكعبةِ أو كنيسةِ القيامة ثمن؟ من يستطيعُ مقايضة شبرٍ في قبّة الصخرة أو جدار المبكى مقابل مبلغٍ أو عقار؟...

كنتُ أشعر حينها (لأني بدأتُ أتهجّى أبجديةَ الحياة وأشمّ، مما يحدث لي وحولي، بعضَ روائح قوانين فيزياء النفس البشرية، وميكانيكا المرأة والغرام والحسد والغيرة) بأنّ ما قالوه كان أوهاماً طوباوية جميلة تنمُّ عن سذاجةٍ وبراءةٍ خالصتين!...

أعرفُ اليوم أن ثمة وراء السحاب من يقهقهُ ملء شدقهِ وهو يقارن بين ما قالوه وما حدث لهم بعد ذلك، عندما تقاطعت حيواتهم بعد أن افترقوا في كلّ أرجاء الأرض ٤٠ سنة تقريباً، قبل أن يجدوا أنفسهم قابعين في ما يُشبهُ طائرةً بمنطاد نجاةٍ واحد، توشكُ على الانفجار!...

سمعتُ ثلاثتَهم في يومٍ آخر تلا ذلك بسنين قليلة (قبل أن تتباين طرقهم ويفترقون عن بعض في أرجاء الدنيا) يقولون إنهم سيتراسلون دون توقّف، وسيكتب كلّ واحدٍ منهم للآخر سيرتَهُ وتفاصيل حياتِه إن غاب عنه!...

هنا فركتُ يديّ، ودخلتُ على الخط! طلبتُ منهم أن يبعثوا لي نسخةً مما سيكتبونه لأني "أخوهم الكبير"!...

وافقوا وعاهدوني على ذلك!...

نسيتُ العهدَ تماماً طوال نحو أربعة عقود!...

ثم كانت المفاجأة يوم ١ نوفمبر ٢٠٠٧، عندما وصل ظرفٌ كبيرٌ ثقيلٌ، مغلقٌ بعناية، باسمِ شوقي (الذي هرول في نفس اليوم بدراجته النارية بعد أن أودعَ ظرفَهُ لِقريبٍ لي في عدَن أرسلَهُ لي بالبريد السريع) مكتوبٌ عليه:

"عزيزي مُراد!...

لا تفتح هذا الظرف وأعطِهِ لأروى، زوجةِ صديقِنا المرحومِ منيف، وإذا وافقَتْ فخذْ صورةً منه وفاءً لوَعدٍ عتيد!...

وداعاً إلى الأبد، أو ربما إلى حين!...

شوقي وليد منصور".

صعقتُ!... راودتني رغبةٌ تلصصيّةٌ عنيفة بفتح ذلك الظرف أكثر من مرّة. لكني لم أفعل!...

بعد أسبوعين من ذلك، وصلني إيميل يزيد على مئة صفحة من باسل. نصٌّ بإيقاعٍ سيمفونيٍّ وأسلوبٍ أدبيٍّ أرستقراطيٍّ رصين! قلمٌ متمرِّسٌ باذخ، يزخرُ بالاستشهاداتِ البديعة والموسيقى الأنيقة!...

تجمّدتُ تماماَ، قرأتهُ ألف مرّة!...

صرتُ بعدهُ مهووساً مسكوناً بما حدث لثلاثتهم: شوقي، أوسان وباسل. ولرابعهم منيف أيضاً!...

بعثتُ إيميلاً بأسئلةٍ حرّى لباسل. لم يردّ!... انتظرتُ ردَّهُ على أحرّ من الجمر عاماً كاملاً، عبثاً!... (“اكتظم” عنوانُه الإلكتروني بعد أشهر من إيميله اليتيم، ولم أسمع عن صاحبِهِ خبراً!)...

ثمّ وصلني في نهاية نوفمبر طردٌ بالبريد المسجّل يحملُ النصّ الثالث، بعثهُ أوسان (الذي وجدوه في منتصف نوفمبر ساكت القلب، على فراشٍ مُضرَّجٍ بالكحول)!... تثلّجَ نخاعي الشوكي عندما قرأته، تعرَّتْ معظم الأسرار أمامي!...

لغتهُ أقلُّ وصفاً وبذَخاً من باسل، كريستاليّةٌ، مقتضبةٌ، رصاصيّة، ذات تركيزٍ بليغ. إيقاعهُ سريعٌ يختلف تماماً عن إيقاع باسل الإمبراطوري، لكنه يهزّني ويربكني بشكلٍ خاص! كلماتهُ أسهمٌ تصل هدفَها بإتقانٍ مذهل!...

أوسان قلمٌ تمرّس على كتابة التقارير الدولية الرسميّة الدقيقة، لكنه لا يخفي أطلال موهبةٍ أدبيةٍ أصيلةٍ لا تخونُها الكلمات!...

ماذا فعلتُ بنصوص ”شهداء أروى“؟

بادرتُ أوَّلاً بوضعِ نزيف نصِّ أوسان بعد نزيف نصِّ باسل، بانتظار أن أرى أروى وأطلب منها السماح لي بأخذ صورةٍ من نصِّ شوقي، وإضافتهِ في الأخير لإكمال الرواية!...

لم يناسبني ذلك الاختيار البنيوي البليد، الذي يُشبِهُ أنموذج عَلم جمهورية: أسود، أحمر، أبيض.

لستُ روائيّاً في الحقيقة. درستُ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في الجامعة الأميركية ببيروت، قبل السفر إلى فرنسا للدكتوراه. عدتُ إلى اليمن. رُفِضَ توظيفي في الجامعة من قبل أجهزة أمن نظام الطاغية صالح بسبب أفكاري اليساريّة!...

عدتُ إلى فرنسا (أمِّ من لا أمَّ له) التي وجدتُ فيها وظيفةً كباحث في المركز القومي للأبحاث العلمية.

أعيش فيها في منزلٍ هادئٍ في ضواحي باريس... أعبر الزمن باتجاه خاتمتي بصمت. جسدي بعيدٌ عن اليمن، لكن روحي لا تفارق خفقاته وشجونه وآلامه لحظةً واحدة! (لن أضيف شيئاً من سيرتي الشخصيّة إلى هذه الرواية غير ما قلتهُ هنا. أعاهد القارئ على ذلك!)...

ثمّ غيّرتُ البنيةَ تماماً بعد ألف تجريبٍ وتجريب: اجتثثتُ مقطوعاتٍ طويلة من نصوصهم سمّيتُها فصولاً. مشجتُها بِحُرِّية، فصلٌ من نصِّ هذا وفصلٌ من نصِّ ذاك، بإيقاعاتٍ متضاربة وترتيبٍ أرخبيليٍّ لا يتفقُ بالضرورة مع الترتيبِ الخطّي لِفقراتِ نصوصهم!...

النتيجة: حوضٌ مصطخبٌ تمتزجُ به محاليلُ من كلمات، يتلألأ فيها مليون لون. قوسُ قزحٍ راقصٍ بمليون طيفٍ ووميض!...

حذفتُ بعض المقاطع مما سردوه أو أجّلتُها لأدُسَّها في فصلٍ كتبتهُ أنا نفسي. لعله أشبه باستراحة محارب، بين فصولٍ تنتقلُ من نزيفٍ إلى نزيف.

دحرجتُ أيضاً عباراتٍ قليلة في صلب نصوصهم (هنا وهناك) ورتوشاً فنيّةً صغيرةً، لصالحِ النسقِ الروائي الكُليّ.

ثمّ أعدتُ تهذيبَ كلّ الرواية لأغرس في جيناتها نفسَ النسغ، نفسَ الموسيقى، نفسَ الصمت، نفسَ الخرائب واللذّات!...

هذا كلُّ ما قمتُ به تقريباً!...

عامٌ كاملٌ ونصف!...

النتيجة: تشظَّتْ نصوصهم إرباً إرباً، ثم تعانقتْ في أرخبيل فصول تُكمِلُ وتسحقُ بعضها البعض؛ تذهبُ وتجيء من راوٍ وزمانٍ ومكان، إلى راوٍ وزمانٍ ومكان مختلفين تماماً؛ تتلاطمُ وتتقاطعُ وتتمزّق كما تلاطمت وتقاطعت وتمزّقتْ حيواتُهم بعد أربعين عاماً من طفولتهم المشتركة!...

تتناثرُ في هذا الأرخبيل فصولٌ قليلة قرّرتُ كتابتَها أنا نفسي لأسباب كثيرة، أهمّها أن أكتب شيئاً ما في روايةٍ ستُطبَعُ باسمي، حتّى وإن "نهبتُها" من الطرف إلى الطرف من نصوص "الفدائيين" الثلاثة!...

دوخةٌ كثيفة كم تمنيّتُ أن لا تتوقّف!...

باسل يتحدّث:

في البدءِ كانت الإس إم إس!

يستغربُ البعضُ أني لم أكتب روايةً عن حياتي حتى الآن، رغم "حساسيتي الروائية العالية" كما يقولون. رغم غزارةِ حياتي أيضاً: تعدُّديةٌ مشوّقة، إبحارٌ دائم، رتْلٌ من المصادفات والأحداثِ والشخوص المتميزةِ المتنوعةِ الضافية!...

ليخلعوا استغرابهم الآن! ها هي روايتي الأولى (أمسكوا أنفسكم جيّداً: سأثقبُ فيها دماغي، سأكرعُ أسراراً مُذهلةً كبرى!)... الأخيرة أيضاً. لأنها رواية نهايتي الحقيقية المجنونة الغامضة التي اخترتُها أنا نفسي!...

من قرّرها حقّاً، أنا أم المرأة التي أردْتُها ملِكةً لِما بقي من حياتي؟... تلك التي اكتشفتُ في لحظةٍ حاسمة أنها خُلِقتْ لي وحدي وخُلقتُ لها وحدها!...

من قرّر موتي: أنا أم هي التي أردتُ أن تكون كلوروفيل حياتي بِـ"أثَرٍ رَجْعيّ"؟...

أنسيتُ أن "العالَمَ مِلكٌ للنساء، أي مِلكٌ للموت"؟... أليست هذه العبارةُ الجوهريّة (التي تهمسُ بها كلُّ الميثولوجيات والأساطير، وحشدٌ لانهائيٌّ من الروايات والأعمال الأدبية، من فجر الإنسان إلى اليوم) أدقَّ تلخيصٍ لسيادةِ المرأةِ على الحياة، أي على الموت، وذلك من جدَّتِنا حواء التي هرولَتْ بنا عموديّاً من علّيْينَ لأرض البوار، حتى اليوم، مروراً بخالتِنا هيلين ذات الكيد العظيم التي انفجرَتْ حربُ طروادة بِسببها، وعمَّتِنا شهرزاد التي أسكرتْ بمزمارِها ثعابين قابض الأرواح؟...

لأبدأ من البداية: أوسان، شوقي، منيف، وأنا باسل! رباعيٌّ تربطه علاقةٌ قديمة، عميقةٌ جدّاً، مُبهمةٌ أحياناً...

لن أتحدّثَ الآن عن صديقنا اللدود، الوزير منيف. سيكون بالضرورة موضوعي الأثير في ما بعد!...

سأبدأ بالثالوث: شوقي، أوسان، وأنا...

شوقي صديقٌ حميمٌ لِلجميع!... متفائلٌ بشوشٌ ممتعٌ جدّاً. شاعرٌ رهيفٌ ممحونٌ بالعشق، يهيمُ في ليلِ الكلمات، ينهلُ من الحياة بلا وَرَع!...

كنّا، منذ أوّل سنة دراسية ابتدائية، ثالوثاً حميميّاً، لا يتوقف عن الضحك والثرثرة. وإن لم يعد شوقي، بعد سنين من ذلك، يشاركنا نفس الهموم أحياناً: يُدمنُ الشِّعرَ والبنات لا غير (كان شوقي أوسَمنا الأربعة)، يُدمِنُهما بجنون!...

يحبُّ درّاجتَهُ الناريّة الحمراء – السوداء (من ماركة هوندا) أيضاً! يطوي عدَنَ بها كلّ يوم! يهيمُ بها بين الحين والحين، وكأنه يسابقُ الريح، حتّى وادي عقّان القريب من الحدود التي كانت تفصل شطري اليمن آنذاك!...

يتركُ برغبةٍ إغرائيّة شَعرَهُ "الهنديّ" الأسيل (المنفوشَ بعشوائية على الطريقة الهيبيّة) يُرفرفُ على دراجته الناريّة كلّما انسابتْ في أزقّةِ عدَن وقفارِها!...

ظلَّ شوقي متمرِّداً على عادات المجتمع وهو يُطيل شعرَه خارج حدود المألوف!... سيستمرُّ وفيّاً لبعضِ مِيولِهِ المشاكسة حتى صباح ١ نوفمبر ٢٠٠٧، يومِ أهمِّ مناسبتين سنويّتين في حياته، سأكشفُ النقاب عنهما لاحقاً!...

سيمتطي فيه درّاجةً ناريّة (بعد أن توقّف عن هذه العادة منذ أكثر من ٣٠ عاماً) رماديّة اللون، من ماركة كاوازاكي...

سيطوفُ بها شوارعَ عدَن لآخر مرة، قبل أن يجدهُ المارَّةُ مدهوسَ الفكِّ، مكسورَ الأنف، مُهشَّمَ الجمجمة، مرميّاً على إحدى صخور "جبل حديد" في "جَوْلَةِ خُور مَكْسَر" بِعدَن.

شعرُهُ الأسيلُ مُخضَّبٌ بشظايا هلاميّة من ماجما دماغه!...

أوسان صديقٌ قديمٌ حميمٌ لي. كنّا معاً في نفس الصف الدراسي في المدرسة الابتدائية بِعدَن، حتى الرابعة عشرة من العمر، في بداية سبعينيات القرن المنصرم!... لم نكن ننفصلُ بعد المدرسةِ إلا قليلاً!...

كنّا نتكاملُ بشكلٍ مدهش: كان أوسان أوّلَ الصف دائماً في الترتيب السنوي، وكنتُ الثاني. لكني "الأوّلُ أبداً، الأفضلُ دوماً!" حسب رأي أوسان نفسه!...

بالطبع، لا تُهمُّني في شيء هذه التقييمات المدرسيَّة السخيفة، لا سيّما أن أوسان كان يُكرِّر منذ أوَّلِ عامٍ دراسيٍّ مشترك لنا، وحتى اليوم، أني أذكى إنسانٍ عرفَهُ في حياته!...

فضلاً عن أن الأول في التقييمات الرسميّة التافهة لِمناهجنا الدراسيةِ الهشّة (المؤسسةِ على التلقين، لا على تعليمِ المقدرةِ على الرفض والنقد والتفكير والاختراع) ليس الأذكى بالضرورة... هو أفضل الخرفان ليس إلا!...

فرّقتنا الحياة جميعاً، رويداً رويداً الواحد بعد الآخر، منذ الرابعة عشرة، قبل نحو ٤٠ عاماً من الآن!... توجَّهَ منيف لصنعاء بعد الثانوية العامة. رحل أوسان للدراسة في روما. ظلّ شوقي تمثالاً خالداً في عدَن. وأنا ابنُ العالَم، أجوبُ الكرةَ الأرضية، لا أستقرُّ في مكان، بَلَدي الكوكبُ الأزرق، قبِيلتي الإنسان!...

خلال أربعةِ عقودٍ تقريباً نسي كلٌّ منّا الآخرَ في أغلبِ الأحيان. كلٌّ سبحَ في فَلَكِه، لولا بعض الأخبار التي كنّا نتلقّاها بين الحين والآخر من صديقنا شوقي، بؤرتِنا العدَنيّة!...

أتَّصِلُ هاتفيّاً بشوقي، من أيِّ مكانٍ في الدنيا، مساءَ كلِّ خميس!... أبعثُ له بطاقات البريد من كلِّ مدنِ العالَم: طقسٌ دِينيٌّ لا أفرِّطُ به!... يؤرشفُ بطاقاتي في ألبومات عديدةٍ متخصِّصة. يسافرُ عبرها في أرجاء الكون، هو الذي لم يغادر اليمن قط!...

وجّهتُ إلى شوقي في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي هذا السؤال أكثر من مرّة:

– ما أخبار "المعتصم بالله"؟ (هكذا كنا، شوقي وأنا، نُسمي صاحبَنا أوسان)...
– أكمل دراستَهُ في الهندسة المائية في روما في نهاية الثمانينيات. لم يعدْ إلى اليمن بعد ذلك!...
هو الآن موظّفٌ دوليٌّ مرموقٌ في الفاو (منظمة الأغذية والزراعة العالمية التابعة للأمم المتحدة)، أبٌ لابنٍ متوقِّدٍ بديع، لؤي، وزوجٌ لِحسناء لُبنانية–إيطالية، ليلى، معينِ ابتسامةٍ ومرحٍ وعطاءٍ لا يتوقّف، وطاغيةِ جمالٍ قبل هذا وذاك!...
تعملُ معه في مقرِّ نفس المنظمة في روما، طاف معها الكونَ، يعيش معها بعشقٍ وسعادة، كما يبدو، منذ أكثر من ٣٠ عاماً، وإن لا أفهم كيف يمكنُ ذلك!...
(لعلّنا نُسمّي عشقاً وسعادةً هذا الكسلَ الذي يصيبُ الزوجين حتماً بعد ٣٠ عاماً من الحياة المشتركة، ويحوِّلهما "موظفَينِ مدى الحياة" في جهازٍ بيروقراطيٍّ يُسمِّيانه الحب!)...
عندما أخبرني شوقي بالتليفون (في بداية أبريل ٢٠٠٧) أنه يمرّ بحالة اكتئابٍ حاد، وأنه يعتقد أن أوسان يمرُّ في نفس الوقت باكتئابٍ حادٍّ مفاجئ، استغربتُ بشدّة. اعترتني نوبةٌ عنيفةٌ من الفضول...
لم أكن أتصوَّر أن صديقيّ، أوسان وشوقي، المنقوعين بالسعادة، يمكنهما أن يعيشا أدنى حالة اكتئاب في الحقيقة، فكيف بهما يهرولان في هوّة الاكتئاب، وفي نفس الوقت أيضاً؟...
سألتُ شوقي من باب الضحك:
– أثمة وباءُ اكتئابٍ يجوبُ الكرةَ الأرضية هذه الأيام؟ ما سبب اكتئابك؟...
لم يحب تفسير أسباب اكتئابه! ثمّ سألته (هو الذي يفضي له أوسان هاتفيّاً بتفاصيل حياته، أكثر من أيِّ مخلوقٍ آخر) عن سبب اكتئاب أوسان.
أجاب:
– لا أدري!... أوسان، رغم اجتماعيته الشديدة، شحيحٌ في الحديث عن قضاياه الحميمية، كما تعرف. كتومٌ جدّاً!...
ما أفترضُهُ هو أنه يعيش منذ سنين قليلة قصةَ عشقٍ قدَرِيٍّ أقوى منه، هَتَكَتْ سياجَ علاقته بزوجته ليلى الذي لم يستطع هتكَهُ أيُّ جيشٍ عرمرم منذ ٣٠ عاماً. غيّرَتْ مجرى حياته. لمَّحَ إلي بها تلميحاً في آخر لقاءٍ لنا في عدَن، لكني استشعرتُ فداحتها عند رؤية تغيّرات سلوكه وتصرفاته اليومية!...
لعلّ لاكتئابه علاقةً ما بذلك، لكني لستُ كاشف الأسرار أو علّام الغيوب!...
شعرتُ فقط من آخر تليفونٍ له بأنه في حالةٍ غير مطمئنةٍ إطلاقاً!...
سألتُ شوقي عن رقم تليفون أوسان: سِرُّ اكتئابٍ كهذا يثير فضولي أكثر من كلِّ أسرار الكون الكبرى!...
قرّرتُ مغادرة باريس والسفر سريعاً لرؤية صديقي القديم في روما، واستيعابِ ما حصل!...

***

عناقٌ طويلٌ حار يجمع، بعد أكثر من ثلاثة عقودٍ ونصف، من كانا أعزّ صديقين حتى الرابعة عشرة!...

أوسان يقودنا بسيّارتهِ نحو وسطِ روما، في طرقٍ مُختنقة، مُثقلَةٍ بالكنائس والآثار العريقة. ذكرياتُ طفولتنا تنطُّ في كلِّ مكان، في كلِّ لحظة!...

وجبةُ غداءٍ طويلة في مطعم راقٍ على ضفاف مُدرَّج المسرح الروماني، الكوليسيوم، في قلب المدينة!... نبيذُ مونتي بولتشيانو الفاخر!... أنغامٌ عبقرية لا تخلو من المرح: ما تيسَّرَ من سيمفونية موزارت الـ٤١، "جوبيتر"، تليها أوبرا "الناي الساحر"!...

سماءُ روما اللازوردية!... أفواجٌ جذلى من السيّاح تتقاطعُ مع عابرين مبرطمين في الطريق المحاذي للمطعم!...

الظُّهْرُ يسطعُ بشراسة في ميدان الحفريّات القديم المحيط بالكوليسيوم!... فرَحٌ ميتافيزيقيٌّ يسيلُ على الأرصفة!...

أعشقُ "المدينةَ الأبديّة"!...

آلام اكتئاب أوسان وصراعاته الداخلية تبدو في تقاطيعه فاقعةً للعين المجرّدة. ها هو على نفس السليقة منذ طفولته: غيرُ قادرٍ على تدثير أحاسيسهِ وتغليفِ وجومه. اكتئابُهُ "جامدٌ" ولا شك!...

(أوسان طفلٌ لم يتعثّر ولم يعرف الفجيعة. مشكلتهُ الكبرى أنه لم يفشل قطّ! هو بأمَسِّ الحاجة للفشلِ والصفعات وتغييرِ نمطِ حياته، لِيودِّعَ طفولتَهُ إلى الأبد!)...

قلتُ له بِلُغتِنا المشتركة القديمة التي أعادت بعض الابتسامةِ لِشفتيه:

– أراك مرهقاً كأنك خارجٌ من حرْب! تنقبضُ على غير عادتك، تتأملُ بصمتٍ واختناقٍ، كأنَّكَ يونسُ في بطن الحوت!...

لم يُعلِّق. أضفتُ بِصوتٍ يتقطّرُ حناناً (لا يخلو من طبقاتٍ من الزيف!):

– لماذا أنت كتومٌ هكذا على الدوام عزيزي أوسان؟ جئتُ أنا لأفرغَ نفسي، لأحكي لك كلَّ حياتي منذ أن افترقنا، ولأسمعك تبوح وتفضي بطلاقة كلَّ ما يدور بخاطرك! أما كنّا نقول: "الصداقة في الدنيا فقط!" لأننا لا ندري إذا كانت هناك صداقةٌ في الآخِرة، أو إذا كانت هناك آخِرةٌ بكلِّ بساطة!...

ألستُ أعزَّ أقدمِ أصدقائك؟...

سردتُ له، بشفافيةٍ قصوى، سيلاً من أهمِّ مفاصل حياتي منذ أن افترقنا، وكأني أحكيها لنفسي: الحياة في مدينة ليون الفرنسية لدراسة الترجمة الفورية في جامعتها، بدء سفرات التنقلات للترجمة الفوريّة في مؤتمرات اليونسكو والمؤتمرات الدولية، استغلال بعض سفراتي لإعداد استطلاعاتٍ صحفية وتلفزيونية نادرة في أقاصي وأغوار المعمورة أدرَّ بعضُها عليَّ مالاً وفيراً... قبل العزوفِ عن الترجمة الفورية والعيشِ من الترجمة والكتابة...

أصبحتُ حينها حُرّاً كما تمنَّيتُ طوال عمري، أنا الذي أكرهُ دوماً أن أكون موظّفاً حكوميّاً مرتبطاً بأي عملٍ رسميٍّ أو التزام!...
فصّلتُ له بشكلٍ خاص خفايا علاقاتي الغرامية وزيجاتي المتعدِّدة وتنقلاتي الدائمة، كالتّيس الجبليّ، للحياة في بلدانٍ كثيرة بعد فرنسا: نيويورك، القاهرة، بيروت، فرنسا ثانيةً، الهند، موسكو، ثمّ فرنسا من جديد... (لدي ثلاثة جوازات: يمني، فرنسي وروسي!).
أسفار، رحيلٌ متواصل، اغتراب، حياةٌ صاخبة لم تعرف السكون والاستقرار والهدوء والرتابة...
لم أزر اليمن خلال ثلاثة عقود إلا مرتين فقط، أسبوعاً كلّ مرة: أحنُّ إليه وإلى عدَن بشكلٍ خاص في كلِّ لحظة، في كلِّ حركةٍ وسكنة، لكني لا أفكر إلا بالهروب منه سريعاً حالما تطأ قدماي أرض مطاراته!...
كان أوسان مبهوتاً رغم غياب نظراته في العدم بين الحين والحين، وهو يستعيد ذكرياته الخاصة عبر "المنشور الضوئي" لِذكرياتي.
شدّني تحديقهُ الآلي في التليفون، كلّ بضعة دقائق، بانتظار رسالة إس إم إس أو إيميل يرفض أن يصل!...
يعرف مع ذلك أن أروى (التي سيحدِّثُني عنها بعد قليل) فرضتْ عليهما أسبوعين من "الهدنة في التواصل"، للتفكيرِ الهادئ المستقلِّ في قرارات مصيرية حاسمة تنوي اتخاذها!...
أشفقتُ على أوسان وأنا ألاحظُ عينيه الزائغتين باتجاه التليفون كل بضع هنيهات رغم "الهدنة"! تحوَّلَ هاتِفُهُ، بعد سنين من التواصل غير المنقطع مع أروى، جزءاً من جهازهِ العصبيّ، مركزَهُ العصبيّ!...
(الإنسانُ فريسةٌ لميكانيكا قانون "القصور الذاتي"!)...
لاحظ بهجتي وأنا أتحدَّثُ وأغنّي و"أفرفش"، أفضي كلَّ ما يخطر ببالي بجرأةٍ وشفافيّةٍ وسلاسةٍ كاملة، أسرد له تفاصيل حياتي بلا رقابةٍ ذاتية، بكلِّ حريّة!... قال لي:
– ما أسعدك! لعلك حقّقتَ حلمكَ بأن تكون بحّاراً مغامراً!...
– بالعكس: اللحظات السعيدة جدّاً قليلةٌ مثل أرخبيلٍ صغير وسط محيطٍ من الضنى والوَحدة والأشواق والآلام! معظمُ وقتي ضجرٌ أسود. لعلّي قضّيْتُ حياتي أهرعُ وألهثُ من دون أن أدري عمّا أبحث عنه في الجوهر!...
أوسان يسترخي قليلاً، يرتشفُ النبيذ بتلذُّذ... استغللتُ لحظةَ انبساطهِ وصفاءِ سريرتِهِ لأقفزَ نحو بيت القصيد:
– قال لي شوقي إنه يعتقدُ أنك تعيش هذه الأيام تجربةَ حبٍّ عنيف (حطّتْ كجلمودِ صخرٍ عليكَ من علِ!) هي سرُّ تغيُّرِ شخصيَّتِك؟...
– ....
أنكرَ، سحبَ استنكاره، تلعثمَ مثل طفلٍ يناهزُ الخمسين من العُمر، حدَّقَ في تليفونه... الطّستُ المضغوطُ بين جوانحه منذ سنين يريد أن ينفجر! سينفجرُ

على حين غرّة!...
غنيّتُ له، على طريقةِ أيّام زمان التي تُثيرُ شجونه، فنّانَ طفولته المفضّل: أبو بكر سالم بلفقيه، لأهدّئ أعصابه، لأمتعَهُ وأنقلَهُ إلى عالَمٍ آخر، قبل اللكمة القاضية:

سِرُّ حُبي فيك غامض
سرُّ حبّي ما انكشفْ
إيش ذي خلّاني أعشق فيك
والعشقة تلفْ؟
حتّى:
أنت أحلى اسم في
قلبي رباعيّ الحروف!

لأوّلِ مرّة، كما يبدو، بدأ أوسان يسقط في فخّي...
غابت عيناه في عالَمٍ آخر قبل أن يُتمتم بلا وعي اسماً رباعيَّ الحروف تسرَّب من شفتيهِ بصعوبة: أروى...
يُفضي، بصوتٍ خافتٍ ينبضُ بالحب، ما يعتمل في أعماقه: عِشقٌ قدَريٌّ عنيفٌ باغتهُ قبل سنين، وَفتكَ بهِ فتكاً!... حُلّتْ عقدةُ لسانه!...
أخرجَ، هذا الطفل الخمسينيّ، أثقالَهُ وهو يسردُ أهمَّ أحداث حياته:
– أذهلَتْنِي في الحقيقة منذ أوّل يوم بإصرارها على التواصل الكثيف معي! كانت ثقيلةً عليّ في البدء، واثقةً بنفسها أكثر من اللازم!...
ثمّ اكتشفتُ أن لها ملَكاتٍ غير عاديّة سأحكيها لك، جَمالاً آسراً أيضاً. قبل أن أقتنع بأنها محرابٌ متنقِّلٌ في جسد إنسان، أيقونةٌ تخلبُ اللب!...
لكنّ علاقتنا كانت صداقةً لا غير. كانت أروى قائدة أوركسترا هذه العلاقة، تدفعُ بها بشدّة كلّ مرّةٍ إلى الأمام بإرادةٍ عنيفة، بتخطيطٍ مسبق، فيما كنتُ رافضاً في البداية، متلكئاً، متردِّداً، بارداً أحياناً، خائفاً أيضاً!... كنتُ أخشى كثيراً الغرامَ في هذه العلاقة بالذات، لأني أعرف أنه إذا بدأ فعلاً فسيطمُّ الأخضرَ واليابس!...
لم يُخفِ أوسان شيئاً، ثرثرَ بلا تردّد!... لحظةُ كشفٍ إلهيّةٍ لا تتكرّر!... انقادَ لِفخِّ أُوْلِيس، هرولَ فيه كما يبدو!... ربما لأني أغريتهُ وأنا أُفضِي له بسهولةٍ أسرارَ حياتي. أو لعلّهُ شعرَ بأنه سيصاب بجنونٍ أكيد إذا استمر بإخفاء أفراحه وآلامه وتناقضاته واضطراباته عن أصدقائه. أو ربما لأني (كما يظن!) ذلك الصديق الذي يحيا بعيداً خارج السرب والمساحات الجغرافية التي تدور بها تداخلات كلِّ قصصهِ وأسرارِها (التي لا تُهمني لذلك إطلاقاً كما يعتقد هذا الساذج الأبله!).
أو لعلي أجدتُ بشكلٍ خاص صبَّ النبيذِ بمهنيّةٍ وتواتر، بلا مبالغةٍ قد تُفقده نقاوةَ السرد، وبلا تقتيرٍ قد يعيدُهُ لِمعمعةِ آلامه!...
دهمتْني، وهو يتحدّثُ عن أروى حتّى منتصفِ الليل بِعشقٍ عنيفٍ ووصفٍ مجنون، أحاسيس غريبة شعرتُ بها لأول مرّة!...

كنتُ أنصتُ إلى كلِّ حرفٍ باهتمامٍ شديدٍ أحاول تدثيرهُ بصعوبة! أشعر كأني أعرف أروى من زمن، أو في حياةٍ سابقةٍ ربما، من يدري؟... انتابني إعجابٌ غامضٌ حادٌّ جدّاً، مشبوبٌ بالغيرة الفتّاكة العاتية، وندمٌ لأني كنتُ أودُّ أن أكون أنا من يقول كلَّ ذلك!...

أسَرَتْني أروى كُلّاً بعد سردِهِ الفاتن!...

شعرتُ بأني أفهمها أكثر منه، بأني أستشعر كُنهَها وما تحتاجهُ أكثر منه، بأني أرى مواصفاتها وعيوبها أيضاً أفضل منه!... شيءٌ غير أليف أن ينجذبَ المرءُ، كما انجذبتُ، لإنسانٍ لم يرهُ بعد!...

عزمتُ سرّاً على أن أنقضَّ عليها، أن تكون أرْوَتي الأبدية!... هي باختصار توأمي في كلِّ شيء (لا سيّما في عيوبي)! حلمُ حياتي الذي أبحث عنه منذ عقود ولم أجده!... شعرتُ حقاً بأنّ أوسان سرقها مني، في حين أني لا أعرفها بعد!...

طلبتُ حينها من أوسان رقم تليفون أروى لتحيّتِها إذا مررتُ بلندن!...

من دون أن يلاحظَ أوسان، بعثتُ إلى أروى (لكَونِي "الأوّلَ أبداً، الأفضلَ دوماً!" كما قال أوسان نفسه قبل عقود) هذه الإس إم إس الثرثارة لاقتراح لقائها في لندن:

> عزيزتي أروى! أودُّ دعوتكِ إلى مقهى بهوِ فندقِ ميريديان لندن، بجوار بيكادلي سركس، بعد غدٍ الخامسة عصراً!...
>
> اسمي باسل، صديقٌ قديم لِمُنيف وأَوْسان وشوقي!... لعلهم حدّثوك يوماً عني، وإن لم أرهم جميعاً منذ نحو ٤٠ سنة! رأيتُ أوسان فقط هذا اليوم في روما!...
>
> خالص الودِّ والتقدير!
>
> باسل عبد الصمد

أتصوَّرُ تماماً مفاجأتها وذهولها وهي تقرأ هذه الإس إم إس الثعبانية الذي زحلقتُ فيه (لأضمنَ مجيئها للفندق) ثلاثة أسماء تعرفُها تماماً، تُهمُّها تماماً (كان شوقي قد حدّثني مراراً في تليفونات الخميس عن أروى!)... أتصوّر ربشتها عندما تصلُ إلى بيت القصيد: "لعلهم حدّثوكِ يوماً عنّي" الذي يلوِّحُ، في الأساس، بمدى معرفتي بعلاقتهم بها!...

لا أدري لماذا أخذَتني قُبيل منتصفِ الليل، عندما ذهب أوسان لِحمَّامِ المطعم تاركاً تليفونَهُ على المنضدة، رغبةٌ تلصُّصيّةٌ عنيفةٌ لم تراودني قبل ذلك اليوم!... تفحّصتُ ملفّات الإس إم إسات والإيميلات في تليفونه! صُعِقتُ وأنا أعبرُ بنظري سريعاً ملفّات مراسلاته مع أروى!...

لم يخطر ببالي أن اثنين يعيشان على بُعدِ آلاف الكيلومترات يمكنهما أن يكونا أقرب لِبعضِهما من حبل الوريد، وأن يُقضِّيَا جلَّ وقتِهما بالتحدُّثِ الإلكتروني عن كلِّ حدثٍ في حياتهما هامٍّ أو تافه، بِتبادلِ الآراءِ والخواطرِ والذكريات! يكتبان يوميات حياةٍ واحدة، حياتِهما، بِشكلٍ مباشر، بنفسِ القَلم، في نفس اللحظة. ويؤرشفانِ كلَّ صغيرةٍ وكبيرة في ملفّاتٍ من مئات الصفحات!...

إس إم إسات صغيرةٌ طائرة، بين صنعاء وروما، في كلِّ لحظة. إيميلات طويلةٌ تتقاطع عدّة مرّاتٍ كلّ يوم!... عشقٌ محمومٌ بين كلِّ كلمتين!... لغةٌ جديدةٌ عجيبةٌ نشأت في معمعان آلاف الصفحات من المراسلات والدردشات الإلكترونية (التي تتابعُها بالتأكيد، بكلِّ إعجابٍ وشغفٍ وَوَله، أجهزةُ التنصُّتِ الإلكترونية لاستخباراتِ المريخ والكواكبِ الكونيّة المجاورة!)...

اجتاحتني غَيْرةٌ شيطانيةٌ ماردة! أدخلتُ تليفوني في توحُّدٍ مع تليفونه عبر بروتوكول "بلوتوث"! شفطتُ من تليفونهِ مَلَفَّات كبيرة لكلِّ مراسلاتهما في الأسابيع الأخيرة، ومختاراتٍ من صُوَرِهما المشتركة أيضاً! شفطتُ شذراتٍ كثيرة ذات أهميّة استراتيجية من ملفاتِ مراسلاتٍ قديمة جدّاً!...

توقّفتُ حالَ رؤية أوسان عائداً من الحمّام!... لحسنِ حظّي أنه كان سكراناً، مُنهَكاً، بطيئاً جدّاً، دائخاً تماماً! لم يكن معتاداً على الكحول قبل هذا اليوم كما يبدو! لا يشربُ، كما عرفتُ، إلا كأس نبيذٍ أو شمبانيا في بعض المناسبات الرسميّة، لا غير!...

هدأ قليلاً بعد أن قعد من جديد. غيّرتُ مواضيع حديثنا. غنّيتُ له أكثر من أغنية نقلتْهُ إلى عوالِم قديمة، أثارت فيه شجوناً عنيفة. ثم عدتُ إلى مربطِ الفرس لأسأله على حين غرة: متى شعرتَ تحديداً بأنك وقعتَ في حبِّ أروى فعلاً؟...

رشفةُ نبيذٍ تشرحُ صدر أوسان وشرايينه!... ردّ:

– لاحظتُ منذ أول لقاءاتنا أنها تتحدثُ بحبٍّ كبير عن أخيها رضوان الذي يكبرها بِثلاثِ سنوات! لا تمرّ لحظات إلا وتستعيد ذكريات حديثٍ معه، سفرٍ ما، عبارةٍ ما قالها أحدهما للآخر، قصَّةٍ مشتركةٍ حدثَتْ لهما!...

ما إن كانت تذكُر رضوان وتتحدَّثُ عنه إلا ويضيءُ في وجهها كرنفالُ سعادة!... يكفي أن يَتّصلَ بها، أو يبعث لها إس إم إس كي تُهلِّل من الفرح!...

تضايقتُ في البدء من شدَّة تواترِ الحديث عن رضوان والإعجاب اللانهائي به، من سماعِ نبراتها العاشقة الولهانة وهي تحدِّثُه، ورؤية سيلِ دموعهما معاً أثناء بعض الاتصالات!...

قلت لنفسي: "لِكلِّ الناس إخوان تقريباً. كثيرون يحبون إخوانهم، لا يحتاجون مع ذلك إلى الحديث عنهم بهذا الفيض، وإلى التفاعل معهم بهذه الحميميّة التي تنحرف ربما عن دروب الأخوة التقليدية، لِتتوغّلَ قليلاً في تخوم شيءٍ ما يُشبِهُ العشق، أو العشق الذي يتجاوز كلَّ قواميس العشق!"...

ثمّ قبلتُ ذلك على مضض: حسناً! أروى تحبُّ رضوان بشكلٍ استثنائيٍّ، لا حدّ له. تعشقه عشقاً لا عشقَ يقاربه!... لمَ لا؟... لو لم تكن العلاقة الغرامية والزواج بالأخ محرَّمَين منذ الأزل، في كلِّ الأعراف الوثنيّة والمدنيّة والدينيّة، لكان رضوانُ زوجَها وعشقَ حياتها الواحدَ الأحدَ!...

ثمّ، مع مرِّ السنين، نظرتُ إلى هذا الحبِّ المنتظمِ النقيِّ الخفّاقِ العنيفِ الفريدِ والخارجِ عن السرب والترسيمات التقليدية، من زاويةٍ أخرى: ثمّة معينُ

حُبٍّ وافرٍ صادق لا ينضب في أعماق هذه الفتاة! ما أعظم وأسخى حظّ من يغمره هذا الينبوع!...

نهدةٌ طويلة، ثم يضيف:

– لعلّي أحببتُها بشكلٍ لا رجعة فيه ذات يوم ونحن نتناول العشاءَ معاً في مطعمٍ بَحْريّ رومانسيٍّ في إسطنبول، وأنا أرى بريق عينيها الغارقتين في الحب والسعادة وهي تتحدَّثُ بالتليفون مع رضوان الذي تركتْهُ في اليمن قبل عشر ساعات فقط، بدتْ لها أكثر من عشر سنوات!...

أردتُ حينها أن أغطس في مياهها الجوفيّة الدافئة، أن أغرقَ فيها إلى الأبد!...

هذا هو "المعتصمُ بالله" كما أعرفُهُ تماماً: مفتونٌ أبداً بِتسونامي العشق الذي يغمرُ المعشوقَ الأوحد إلى الأبد!...

ما أتفههُ، أوسان، ما أسخفه!...

آوسان يتحدّث:

نوغدين، "البطلُ" الخامس

لعلّه يلزم أن أفضفض معكم أنا أيضاً، أوسان، قبل أن تقعوا في حبائل الزنديق الأكبر، باسل، ويجرّكم بدهائه الأصيل وبراعته الخارقة لتروا كل ما يحدُثُ من منظورِه فقط!...

ها أنا اليوم، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧، ليلة انتحار صديقي اللدود وغريمي الحبيب شوقي بدراجته النارية، بعد سبعة أشهر من لقاء روما اللعين بباسل، في شُقَّة هذا الزنديق نفسه، في الدائرة الخامسة عشرة من باريس!...

لماذا؟ ستعرفون قريباً!...

أين هو؟ في صنعاء!... لماذا؟ ستعرفون قريباً!...

أضطجعُ حالياً على سريره، قربي قنينةُ ويسكي لم أُفرِغ بعدُ غير ثلثها الأول!... أراقبُ هاويتي بهدوء! أتأمل في سيرورة حياتي التي كانت إلهيّةً فعلاً قبل أن يزورني باسل في روما، ويجندلَ بصيرورتِها في أسفل أدراك جهنم!...

في الغرفة المجاورة: نور الدين (أو نُوغْدِين، كما يلفظ اسمَهُ الفرنسيون) يقرأ القرآن!...

نوغدين هو "البطلُ" الخامس (في رواية عشقِنا وموتِنا تحت قدمي أروى)، الأهمُّ بالتأكيد، والذي لن يحدّثكم عنه باسل قطعاً، من قريبٍ أو بعيد!...

يختلفُ نوغدين عنّا قليلاً: هو ليس كوكباً يدور مباشرةً في فلَكِ أروى. هو كوكبٌ يدور حول كوكبٍ (باسل) يدورُ حول شمسِ أروى!...

لم أكتشف إلا اليوم فقط، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧، ليلةَ انتحار صديقنا الأثير شوقي بدراجته النارية، أن صديقنا القديم باسل هو وحده مهندسُ خرابنا الذي يقترب بخطوات أكيدة!...

باسل قنبلةٌ ذرّيّةٌ من الغيرةِ العمياء، وباءٌ استيلائيٌّ يطمُّ الأخضر واليابس، جنونٌ لا يعوقه عائق عن ارتكاب الجريمة!...

صرتُ هوَس حياته!... توقّفوا عند كل كلمةٍ يقولها أو يكتبها عني، تمعّنوا فيها مليّاً! ستدركون كيف يتحوّل الطمع بتقليد الآخر إلى حسد، والحسد إلى غيرة، والغيرة إلى حقد، إلى شرٍّ ورذيلة!...

قد يقنعكم في سردِه أني ضيّقُ الأفق (أو "أحاديٌّ"، كما يردِّدُ دوماً!)، عُصَابيٌّ، متردّدٌ، جبان!...

لا يرى حياتي، في الحقيقة، إلا بأعين الغَيرة العمياء وكثيرٍ من الضغينة! ليقلْ ما يشاء!... لم يصبح رائعُنا باسل كذلك إلا بعدما رأى أروى، أرْوَتي!...

هو مستعدٌّ لإحراق روما والكون ليصل إليها، بأي ثمنٍ كان!... سينتظرُ طويلاً!...

نوغدين لوحدِهِ روايةٌ كاملة! سأختزلَها سريعاً لكنها أمُّ الروايات!...

تعرّف باسل إلى نوغدين بالمصادفة قرب مقهى "الأطلسي" المجاور لمحطة قطارات سانت لازار في باريس. يرتاد باسل ذلك المقهى قبيل أيِّ سفرٍ له من تلك المحطة...

جلس يومها على مقعدٍ في أقصى يمين شرفة المقهى، المجاورة لمطعمٍ للكباب اسمه: "الإكسترا إغريقيّ، حلال"!...

كان باسل يشرب فنجان قهوة عندما سمع حواراً، أثارهُ تماماً، دار بين ثلاثةٍ من زبائن مطعم الكباب، على مقربةٍ منه!...

أحد الثلاثة شابٌّ في الثانية والعشرين تقريباً، وسيمٌ جداً، يلبسُ أحذيةَ تينيس: نايك، سروال جينز من ماركة فاخرة، جلابيةً أفغانية في نفس الوقت، ومعطف جينز أنيقاً جدّاً أيضاً... مزيجٌ من "بلي بوي" – عارض أزياء من ناحية، وأصوليٍّ طاليبانيٍّ من ناحية أخرى!...

له لحيةٌ سلفيّةٌ طويلة، قامةٌ مفتولةٌ باسقة، ووجهُ أميرٍ باكستانيٍّ – عربي، أبيض، وإن لم يكن يخلو كما يبدو من بصمات ضمورٍ غريب!...

كان بإمكانه أن يكون ممثلاً سينمائياً لوسامتهِ الاستثنائية، أو نجماً رياضيّاً شهيراً لأنه تألق كثيراً قبيل عدّة أشهر في مباريات شباب ضواحي باريس في كرة القدم وكرة السلّة أيضاً!...

ثمة مفارقات واستفزاز في هيئته العامة تجعله محطّ أنظار الجميع وتحديقهم الطويل فيه، بوعيٍ أو بلا وعي، في المترو، الطريق، الأسواق...

لم يعتَدْ نوغدين ذلك فحسب، لكنه لا يخفي ميلاً فطريّاً إلى إذكاءِ لفتِ الأنظار، بتنويعِ التباينات والمفاجآت والمفارقات في هيئته العامة!...

يُبدي في نظراته قساوةً وعدم اكتراثٍ بكلِّ ذلك، لكنهما زائفان في الحقيقة: نظراته وديّةٌ رقيقةٌ في العمق، وإن حاولَ في الأشهر الأخيرة تغليفَها بِنوعٍ من الحِدّة المصطنعة التي لا تتناغم مع سليقته!...

الرفيقان المحيطان به في المقهى مخيفان جدّاً، عكسه تماماً. سلفِيّان بالتأكيد، جهاديّان ربما!...

نصحاه بسماع خطبة الجمعة في مسجدٍ أطرَيا كثيراً على إمامه، وحثّاه على مزيد من قراءة القرآن، والسفر لعلاج مرضه في مستشفى جامعة الإيمان للشيخ الزنداني في اليمن!...

انتظر باسلٌ بفارغ الصبر مغادرتهما ليختليَ بنوغدين!...

نوغدين من أبٍ جزائري عاد إلى بلدِه. ترك قبلها ابنهُ في صباه مع أمٍّ فرنسية تعمل محاسبةً في سوبر ماركت!...

لا يحب نوغدين الحديث عن أبيه الذي قطع علاقته بزوجته وطفلهما الرضيع. لا يعرف نوغدين أخباره، ولا يمتلك معه أصغر الذكريات المشتركة!...

أمّه، التي أسْلمَتْ عندما كانت تعيش مع أبيه، تُغيِّرُ دياناتها أو عدم تديّنها حسب الهوية الدينية أو اللادينية لمن كان يتزوجها. هي حالياً بوذيّةٌ مثل رفيق

حياتها الجديد: فام دِن تاوُو، مهمّشٌ من أصولٍ فيتنامية، كان يشتغل في مطعم في ضواحي باريس قبل أن يغدو عاطلاً من العمل!...

أتاحت المدرسة لنوغدين الفرصةَ للتألّق، لإجلاءِ مواهبهِ الرياضية، وذكائه وفطنته الملحوظتين... كان يحبُّ المدْرسةَ كثيراً، لأنها أملَتْ فراغَ حياته، استثمرت ألمعيتَه وطاقاته، منحتهُ النجوميةَ والأملَ والسعادة!...

لم تنقصهُ العاشقات والمعشوقات، لا في المدرسة ولا خارج المدرسة، وسِنُّهُ آنذاك دون الخامسة عشرة، بفضل ما وهبتهُ الطبيعةُ من جمالٍ وجاذبيةٍ وذكاءٍ ولياقةٍ بدنية!...

كان أيضاً "كاييد"، كما يُقالُ بالفرنسيّة الدارجة، "قائداً" بالعربية، لأولاد شارعه، يهابه الجميع لملكاته الجسدية، لكنه لم يكن عنيفاً أو عدائياً إلا على من يؤذيه أو يُهدِّد أولاد شارعِه!...

سُجِنَ (وأُهينَ ولا شك) أكثر من مرّة بسببِ صراعاتِ أولاد أركان الشوارع التي وجد فيها نفسه يدافعُ عن ذويهِ ظالمين كانوا أو مظلومين!...

كبرَتْ أحلامُه في المدرسة وصار هوَسهُ التميّز وإدهاش الآخرين: أراد أوّلاً أن يَمرّ نظام المسابقات الوطنية للالتحاق بكبار المعاهد الوطنية العليا (معاهد نخبةِ النخبة في فرنسا) ليكون مهندساً مدنيّاً من الطراز الرفيع!...

مسابقات هذه المعاهد تصعب على معظم الفرنسيين المبرِّزين ذوي الملكات المتميّزة والرغد المعيشي، فما بالكم بابن الضواحي (حتى وإن كان بمواهب نوغدين)، ذي الحياة الزهيدة، والأم "الملخبَطة"، والآتي من مدارس مزدحمةٍ بالمشاكلِ والحالاتِ الاجتماعية الصعبة؟...

ثابر نوغدين للنجاح في هذه المسابقات، ترك نشاطاته الرياضية ومعشوقاته جانباً، سخّر كل طاقاته لمرور الامتحانات بِتميّز... اعتبر ذلك تحديَ حياته!...

شجّعهُ مدرِّسوه كثيراً، وكذلك زملاء مدرسته وأصدقاؤه، لا سيّما أنه لم يخترق هذه المسابقات يوماً طالبٌ آتٍ من شوارعِ المهمّشين!

لعلهم رأوا فيه "زيدانَ...هُم" بشكلٍ أو بآخر، عبثاً!...

فشل نوغدين في تخطيها. ليس لأن لديه "موادّ سنجابيّةً" في الدماغ أقلَّ ممن تخطوها، لكن لأنها صُمِّمَت، منذ عصر نابليون، لِيُعيد بفضلها النظام البورجوازي إنتاج نفسِهِ بالتوريث، تحت قناعٍ ديموقراطيٍّ يَدَّعي فتحَ نفس الفُرَص للجميع: من ينجح فيها، في الحقيقة، يلزمه أن ينغمس منذ طفولته في مراتع ثقافيةٍ واقتصاديةٍ رغِدةٍ مستقرّة تُفجِّرُ مواهبَه ومشاريعَه الخاصة وتساعده على تحقيقها بسهولة، تُعلِّمهُ منذ طفولته الموسيقى وتُنمّي فيه حب القراءة والبحث والفنون والمسرح، تجعله يتحدّث اللغات الأجنبية بطلاقة، تُسهِّلُ له السفرَ الدائم والرحلات والدورات الثقافية والتعليمية، تشتري له ما يشاء من كمبيوترات وكتب!...

ثمّ أراد بعد ذلك أن يكون طيّاراً، لكنه لم يحصل على مقعدٍ بسبب ملفاته القانونيّة وتواتر سجنه...

لم يهضم نوغدين ذلك الفشل. التصقَتْ بنظراته، منذ ظهور نتائج تلك الامتحانات ورفض قبوله كطيّار، مرارةٌ لا تتزحزح، جرحٌ غائر!...

يعرف مع ذلك أن تلك المعاهد تخلو تماماً من أبناء الضواحي مثله، ذوي الأصول المتواضعة أو الأجنبية!...

لعله كفر بكل شيء بعد ذلك، جُرح في الصميم... تحطّمتْ آمالُه، وفقد الرغبة في مواصلة الدراسة الجامعية التقليدية التي تفضي عادةً إلى أفقٍ متواضع أو مسدود!...

أيقنَ بحقدٍ وألم أن هناك نفاقاً كثيراً ولعبةً غير عادلة في حياة بني آدم!...

استقطبتْهُ جماعاتٌ سياسيةٌ إسلامية، وهو في أوج خيبته. أقنَعتهُ بأنه أمل المظلومين من أبناء حيِّه، والمضطهدين في الأرض من أبناء الأمة الإسلامية جمعاء!...

غسلَتْ دماغه بنجاحٍ لا بأس به، أعادت إليه ثقته واعتزازه بنفسه!... نزعتهُ رويداً رويداً من دوائرِ عاشقاته وأصدقائه ومعجباته، ومن كرة القدم والسلة أيضاً!...

غير أنها لم تستطع تحويله متزمِّتاً على طريقتها، كما أرادت تماماً.

(من عرفَ العشقَ وأحضان الجميلات منذ الصغر، يصعب عليه أن يسقط تماماً في أوكار التزمّت والإجرام)!...

لعلّه لذلك ظلَّ يرتدي أسفل جلابيته الأفغانية بنطلون الجينز، ويُصرُّ (شاء رفاقه الأصوليون أو أبوا!) على لبس أحدث موديلات بنطلونات ومعاطف الجينز وأحذية الباسكيت الأميركية الثمينة، التي تُذكّرُ نوغدين بماضٍ رياضيٍّ وغراميٍّ عامرٍ خصبٍ سعيد، يرفضُ إنكاره أو إقصاءه، وإن أغضبَ بذلك رفاقَه السلفيّين وأثارَ خيبتهم وسخطَهم!...

ربطتهُ جماعاته السلفيّة مع ذلك بمهامّ وَعْظٍ وعبادات كرّس لها كلّ نشاطه بِمحبّةٍ حقيقية!... انتهى عصر كرة القدم والسلة، والقبلات الاستعراضية المحمومة في أركان الشوارع، أيضاً!...

الغريب مع ذلك أنّ نوغدين لم يكن يوماً، مثل ما هو عليه اليوم، مثار نظرات الناس وهمساتهم المختلفة التي لا تخلو من استلطافٍ وإعجابٍ عميقين: يُحدِّقُ الجميع بولهٍ وافتتان في هذا الوجه المذهلِ الجمال والاكتمال، في هذه الرِّقة الفِطرية، في هذا الجسدِ الشامخ البديع الذي يُلوِّحُ بآخر صرخات أحذية الباسكيت وبنطلونات الجينز المتعايشةِ مع هذه اللحية الكثّة والجلابية الطاليبانية والمصحف الكريم في نفس الوقت!...

من ذاق طعم النجومية وتمرّغَ في أحضان الجميلات منذ صباه مثله، يصعب عليه أيضاً أن ينهي حياته في الكواليس!... لذلك مارس نشاطاته السلفيّة أكثر فأكثر، وحافظ على هيئته المستفِزّة للجميع، دون أدنى اكتراث بسخط رفاقه الأصوليّين!...

لعله وجد تناغماً ما في هذا التنافر العجيب الذي لا يجرؤ على التلويح به إلا قذافيٌّ مرعوش، أو "جورو" أفريقيّ، أو "شيخ طريقة" أو نبيٌّ مسطول!...

عندما يهبُ نوغدين نفسَه لنشاطٍ ما، يهبُها بشكلٍ كامل: ها هو يُقّضي وقته الجديد في دوائر نقاش مجموعاته الدينيّة السلفيّة، في الصلاة (بما فيها صلاة الوتر)، وفي البحث عن كل ما يضاعف عدد حسناته: أكلُ التمر، الصيام، الحجامة، قراءة القرآن...

تعلّمَ برغبةٍ جامحة اللغة العربية ("لغة الجنّة! لغة أسئلة منكر ونكير!" كما قال له أحد رفاقه) التي لم يكن ينطق منها في البدء إلا عبارات شتمٍ فقط التقطَها من شباب الضواحي ذوي الأصول العربية!...

عندما شكا نوغدين لأحد رفاقه السلفيين ارتفاع ضغط دمه، حسب آخر فحصٍ طبيٍّ له، نصحه رفيقُه بممارسة سُنَّة الحجامة!...

أطرى له على إعجاز "الطبِّ النبوي"، كما قال (وكأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام كان طبيباً أيضاً!)، وعلى الحجامة كدواءٍ للضغط المرتفع، ولطردِ الجنّ الذي "يلتبس" في دم الإنسان بسبب "العَين"!

شرح له أن "الجان يجري في ابن آدم مجرى الدم"، كما قال الحديث، والحجامة "تستفرغهم" من ذلك تماماً!...

نصحهُ رفيقُهُ بالتوجّهِ إلى "حَجّام" باكستانيٍّ مسلمٍ شهير، في شارع براندي المواجه لِـ ٤٧ فوبور سانت دوني!...

لا أعرف كم عدد الحسنات التي جناها نوغدين بفضل هذه الحجامة، لكنه أصيب بعدها بمرض الإيدز مباشرة!... إذ لم يلتزم الحجّام، لا سامحه الله، الحدّ الأدنى من مبادئ التطهير وشروط الوقاية!

يا للمفارقة المقرِفة: يكفي أن يلجأ هذا الشاب الآن إلى التقوى والعبادةِ وممارسةِ سُنّةِ الحجامة لِيُصابَ بالإيدز، هو الذي قضَّى في أحضان الحسناوات سنوات مراهقةٍ غراميةً ساخنة لم يعرف خلالها إلا مزيداً من التفتّق والتألّق والتبرعم والصحّة والعافية!...

بعض صفحات القدَرِ كتبها ثعبانٌ مخاتلٌ يلدغ على حين غرّة!...

"امتحانٌ إلهي!"، قال له رفيقاه السلفيّان اللذان نصحاه بالذهاب إلى الشيخ الزنداني (ابن سينا العصر، كما قالوا)، رئيس "جامعة الإيمان" السلفيّة بصنعاء، للعلاج بدوائه الناجع للإيدز المستند إلى "الطبِّ النبوي"!...

لاحظ باسل أن رفيقَي نوغدين غادرا المقهى، وأن هذا الشاب الفريد ينتظر آخرِين كما يبدو!...

عندما استدار باسل للحديث معه، كان نوغدين (الذي يقرأ العربية بصعوبة) يحاول تهجِّي المصحفَ الكريم، ويرمقُ بمتعةٍ وسعادةٍ ما، بين الآن والآن، نظرات العابرين قربه، لمراقبةِ نوعيّةِ ودرجةِ استثارتهم وإعجابهم به!...

قال له باسل، من دون مقدِّمات، إنه من اليمن!...

فرح نوغدين بسماع اسم بلاد الشيخ الزنداني! كان نوغدين كمن وجد نفسه بغتةً قرب وليٍّ من أولياء الله الصالحين، باسل!...

سأل نوغدين باسل:

– صحيح أن مكة قريبةٌ جدّاً منكم؟

– على بعد رمية حجر تقريباً! معظم سكانها أصولهم يمنية!...

حدّثهُ باسلٌ عن قبائل الأوس والخزرج اليمنية. أذكى فيه بدقائق، بِمهنيّةٍ فطرية، حنيناً إلى زمنٍ غابر لم يسمع به نوغدين إلا بشكلٍ ضبابيٍّ أو أسطوري: أمجاد اليمن السعيد، الملكة بلقيس، جيوش الإسلام التي انطلقت من اليمن!...

(يكفي الإصغاء إلى باسل وهو يتحدّث حتّى عن حرب داحس والغبراء، ليؤجج في مستمعه أشواقاً عنيفة لأيام تلك الحرب!...).

وعدَ باسلُ نوغدين بتدريسه قراءة وكتابة اللغة العربية شخصيّاً بطريقةٍ أفضل من أصدقائه الذين رآهم معه والذين لا يجيدونها كما شرح له.

"عربيتهم مكسّرة يا صديقي!... نحن نتكلمها باللغة الفصحى، بنفس لهجة سيّدنا آدم عليه السلام! هي نبَعتْ من الجزيرة العربيّة، من أراضينا!"، قال له...

ثمّ أدهش باسلُ نوغدين وجعلهُ يندمُ أنه لم يولد في اليمن عندما قال له: "لا يوجد بيتٌ واحدٌ في اليمن لا يوجد فيه طفلٌ واحدٌ على الأقل لا يحفظ القرآن عن ظهر قلب!"...

تصادقا سريعاً: لِباسل، عندما يريد، مقدرةٌ مذهلةٌ على جذب من يراه وإغرائه ومغنطستِهِ بضربةٍ قاضية!... أعطاه عنوان شُقّتِهِ الباريسية...

أحبّه في الحقيقة بإخلاص، كما يبدو، والله أعلم. لعله وجد فيه شخصيةً روائيةً مثيرة تجذبُهُ بقوة، أو لعله رأى فيه ذلك "الابن" الذي كان يتمنى إنجابه، والذي يتناغمُ وميولَه لِلمغامرة والتألقِ والتفرُّد...

هذا إذا لم يشعر في أعماقه، قبل هذا وذاك، بأنه سيحتاجه يوماً ما لِيكون مسدَّسَه القاتل!...

باسل يتحدّث:

عشقٌ جِينِيٌّ عتيق

قلتُ لِنفسي وأوسانَ يتفحّصُ تليفونهُ كلّ دقيقة، رغم "الهدنة"، ونحن في مطعمٍ رومانسيٍّ مواجهٍ لِنافورة دوتريفي، في ظهرِ اليوم الثاني من لقاء روما: لَو حصل لأوسان مكروهٌ ما في هذه الأيام فسأسمّيهِ "شهيدَ الهدنة"!...
تساءلتُ: كيف يمكن أروى أن تطلبَ منه "الهدنة" في التواصل إن كان حقّاً أوكسجينَ حياتها؟... ثمّ "الهدنةُ" استعارةٌ غيرُ أنيقةٍ في رأيي: هل كانا قبلها في قصفٍ وتبادلِ إطلاقِ النار؟ ما هذا الحب الذي يُشبِهُ المعركة؟ لماذا رمتْ به في رحى علاقةٍ معقَّدةٍ مدمِّرة أشبه بالحربِ منها إلى الحب؟...
سألتُ أوسانَ:
- لم أفهم لماذا أرادت أروى "الهُدنةَ" في التواصل معك هذه الأيام؟...
كان ردّه بليداً كعادته:
- أروى تسكنُ في لندن حالياً، في زيارة عملٍ في مختبر أبحاث جامعيّ وصلَتْهُ قبل نحو ثلاثة أشهر! ذهبتُ لزيارتها عدّةَ مرات!...
ابتعادُها عن محيطها الأسريّ خلال هذه الأشهر ساعدها على التأمّل الهادئ في دوّامة حياتها، وحثّها على الرغبة في اتخاذ قرارات مصيرية!...
لم تعدْ تَقبلُ التمزُّقَ بين زوجٍ وزيرٍ فاجرٍ يضطهدها ولا تستطيعُ التحرّرَ من سَلاسلِه، وبين عاشقٍ بعيدٍ تودُّ الحياةَ معه في وضح النهار، وبين...
- وبين... ماذا؟، سألتهُ باستغراب!
- ....
كان أصعب سؤالٍ بالتأكيد!...
رددتُ:
- وبين... ماذا؟
- ....
رشفةُ نبيذ! وجومٌ حاد، رجفة!... قبضتُ بالمصادفة على مربطِ فرسِ اكتئابِ أوسان!... لعلّي وضعتُ أناملي في جرحٍ أليم!
داعبتُ شعرَهُ بأناملي بعطفٍ ولُطف، شجَّعتُهُ على مواصلة البوح. غنّيتُ له أغنية أو أغنيتين. رجوتُهُ أن يثقَ بي لأني أخوه الحميم. وعدتُهُ بأني سأكتم السرّ، سأكون بجانبهِ ومعَه!...
(وعدٌ كاذبٌ لا شك. ساذجٌ مغفّلٌ في الواقعِ من يثقُ بي أو يُصدِّق أني أكتم السرّ. لأني لا أعترف بمبدأ كتمان سرّ. لا أعترف بِمفهوم الِسرِّ أساساً!...
جميعنا، في رأيي، مِلكٌ لمختبرِ التجربةِ والمعرفةِ الإنسانية، نحيا لِنعزفَ معاً سيمفونيةَ الوجود، ونُصغي إليها في نفس الوقت!...).

جرجرَ أنفاسه. رشفةٌ مباركةٌ أخرى من النبيذ، ثمّ ثالثة، قبل أن يقول بصوتٍ مبحوحٍ مُهشَّم الكلمات:

– وثالثُ اكتشفتُ علاقتها به أخيراً جدّاً!...

تكهربَتْ شراييني في الحقيقة عندما قطَّرَتْ أروى الحديثَ عنه تقطيراً في آخر مكالمةٍ لنا!...

رشفةٌ أخرى، قبل أن يُضيف بصوتٍ تتخلّلهُ ثقوبٌ وكسورٌ أليمة:

– علاقته بأروى، كما قالت، تختلف تماماً عن علاقتي بها! علاقةُ عشقٍ عتيد لا يتزحزح، عمرهُ تسعة وعشرون عاماً (أزليٌّ سرمَدِيٌّ تنقادُ إليه من النخاع، حسب تعبيرها!)...

عشقٌ غريبٌ نادر بدأ وهي في الرابعة عشرة من العُمر! استعمرَها عشقُ ذلك الحبيب بِشكلٍ جِينِيٍّ من أوّل يومٍ رأتْ صورتَهُ في بيت جارتِها بمدينة تَعز!...

لقاءاتها به وإن كانت نادرة (بضع مرّات في العام!) تشغلُ قلبها كلّ لحظة! أشعلَتْها وتشعِلُها على الدوام، تنتظرُها بجنون، تنساقُ لها بشكلٍ مغناطيسيّ لا تعرفُ تفسيره، كما لو كان ذلك جزءاً من تركيبها الفيزيولوجي!...

رشفةٌ أخرى سخيّةٌ جداً، بحركةٍ لا واعية، قبل أن يضيف وهو ينظر إلى وسط الطاولة بِعينين خجولتين باكيتين، لا تُخفيان حزناً ووجعاً جذريّين غائرين:

– لن أفهمَ يوماً لماذا يستمرُّ ذلك الحبُّ العارم حتى اليوم؟ ولماذا اقحمتني في حياتها وهي تعيشُ هذا الحب في نفس الوقت؟ ولماذا اختارتني بضراوة دون أن تُتوِّجَني حبيباً أوحد لها؟ ولماذا لم تُخبرني على الأقل بذلك العشق الموازي قبل توريطي في عشقِها حتّى النخاع؟... إلهي، لماذا كَرعَت بي في مياهٍ آسنة؟...

قبل أن يضيف هو يذرف دموعاً مفاجئة:

– أنا أهلكُ عندما أكون داخل أجواء غير نقيّة!...

أسخرُ من أوسان في أعماقي: أتخيَّلُ قِدِّيسَ الوحدانية، الذي يعشقُ أرواه بتطرّف، "تتفجَّرُ شرايينه" حسب تعبيره، وهو يعرفُ أنها تناجي إنساناً آخر بِنفسِ بلاغةِ العشقِ (حبيبي، عِشقي، روحي، حياتي، قلبي، عُمري...) التي تَغمرهُ بها!...

يلزمني في أقرب اتصالٍ هاتفيٍّ بِشوقي، بؤرتِنا العدنيّة، أن أُقدِّمَ "تقريراً" عن مأساة "المعتصم بالله": زوجة منيف، التي حدّثني عنها شوقي مراراً، تعشقُ صاحبَنا أوسان!... لكنّ ثمّة عاشقاً موازياً له، منقوشاً بأشعةِ الليزر في خلاياها العصبية، فيما أوسان دخيلٌ حديثٌ ليس إلا، قابلٌ للتبخُّرِ والخلْعِ في أيّة لحظة!... واااااو!...

سألتُ أوسان:

– هل قالت لك اسم ذلك الحبيب؟...

– لا!...

أوسان يفرِغُ أمامي كأساَ آخر من النبيذ!... سكرانٌ من جديد، تجاوزَ حدّ ثمالة البارحة، ونحن لم نغادر المطعم بعد!...

ماذا أعملُ به؟ (عليّ أن أسافر سريعاً إلى لندن لرؤية أروى التي أرسلتْ لي إس إم إس توافقُ على مقترحي بلقائها!)...

أأتركهُ يُغلقُ الباب على نفسهِ في حمَّام المطعم حتى صباح الغد؟

أأرميهِ في نافورة دوتريفي المواجهة لِمطعمِنا ليصحو؟... فكرةٌ جيّدة! لا سيّما أن ثمّة تقليداً شهيراً يلتزمه السائح عند وصوله إلى النافورة: يديرُ ظهرَهُ لها، يرمي قطعةَ نقودٍ فيها وهو يُفكِّرُ في أمنيةٍ عزيزةٍ ينوي أن تتحقّق، ثمّ قطعةً أخرى ليُحقِّقَ أمنيةَ العودةِ مرّةً ثانيةً إلى روما وإلى النافورة!...

أمنيتي الوحيدة التي سأقاتلُ من أجلِها: أروى!... قطعتي النقديّة الأولى: أوسان! الثانية: عِشقُها النخاعيّ الذي لا أدري من هو!... أما معالي الوزير منيف، فأتمنى أن أرميه في أوّلِ مستنقعٍ أراهُ في صنعاء!...

أرثيهِ من القلب حبيبي أوسان مع ذلك: كان يظنُّ أنه يملأُ حياةَ أرواه اليوميّة!... هو جزءٌ ضئيلٌ منها لا غير، قطعةٌ في مباراة شطرنج حياتها ليس إلا!...

يلزمُها، لاكتناف فضائها المتعدِّدِ الأبعاد، ألفُ أوسان في الحقيقة!...

لكن،

يلزمها

باسلٌ

واحدٌ

فقط!...

آوسان يتحدّث:

انتحاريٌّ يرفلُ بالنعيم في أحضانِ عشيقة

زار نوغدين باسلَ في شُقّتهِ بعد يوم من لقائهما في مقهى الأطلسي. استضافهُ باسل بترحيبٍ واهتمام لم يتوقعهما نوغدين. قدّم له كثيراً من التمر والحليب وعصير الطماطم، ووجبةً يمنيّةً باذخةً لذيذة أعدّها له بشكلٍ خاص، هو نفسه!...

كان نوغدين يحتاج بشدّة إلى هذا الاهتمام المخلص. يحتاجه أكثر من أي شيءٍ آخر. لعلّه يحتاج إلى أبٍ بمفعولٍ رجعي، لا سيّما أنه صار مسكوناً بالخوف والرعب والتحطّم والاكتئاب بعد إصابته بالإيدز. تبدو الحياة في عينيه، أكثر من أي وقت مضى، عبثيّةً، مُدانةً بالظلمِ والألم والمرارة!...

ضمورُ وجه نوغدين يجلي أكثر فأكثر مرارتَهُ وكراهيّته لكل شيء!... تسكنُهُ علامة استفهامٍ صمّاء دائمة!... لا يستوعب مسار حياته إطلاقاً! لا يعطي اهتماماً في قرارة نفسه لأي حَدَثٍ أو خبرٍ أو مبلغٍ ماليّ!...

ينظر إلى الناس بعدم اكتراثٍ أصمّ. لكنّه سقط رغم ذلك في مجالِ جاذبية باسل، هذا "الأب" الذي يوليه جلّ الاهتمام، والذي وصل لسوء الحظّ متأخراً، متأخراً جدّاً، قبيل رحيل "ابنِه" إلى الدار الآخرة بقليل!...

يحتاج نوغدين، أكثر من أي وقتٍ مضى، إلى مَن يوجّهُ حياتَه ويهتمُّ بها دون غَرَض! يحتاج هكذا إلى قبطانٍ مثل باسلٍ الذي خُلِق ليكون راعياً (أو خروفاً خارج السرب، في أضعف الإيمان)، متمرّداً، رحّالاً، "لامنتمياً" في كل الأحوال! قبطاناً بالسليقة!...

قبطانٌ يقود إلى الجحيم!...

رافق باسل نوغدين إلى المستشفى. شرح له بهدوء، وبمختلف الدلائل، أن علاجَ الشيخ الزنداني للإيدز مهزلةٌ تفوق أية مهزلة، شعوذةٌ لا غير!...

اعتنى به كابْنِه! أقنعَهُ بأنّ حالته من النوع البطيء جدّاً، وأنه ليس مهدّداً مثل غيره بالموت خلال أشهر أو سنوات قليلة!...

أكّد له أن العِلم والطب الحديث سيجدان علاجاً حاسماً لمرضه خلال سنوات قلائل. ظلّ يضحكُ معه ويواسيه كلما رآه... يُغنّي ويُنكّت له بلطفٍ وحنانٍ دائمين...

عوّدهُ أيضاً أن يكون على سجيّتِهِ عند الحديث معه، يُخاطبهُ بلغته الساخرة اليومية. جعل نوغدين يحترمُ عدمَ ممارسته لشعائر الدين، مثلما احترمَ، هو نفسه، ممارسة نوغدين له!...

شعر باسل بأن من السهولة جدّاً التأثيرَ على نوغدين، أو تغييرَ أفكاره باتجاهٍ معاكس إذا ما أراد، لا سيّما أنه صار أباه الروحي وقطبَ حياته!...

خصّص باسل لنوغدين غرفةً في شقَّتِهِ يجيء إليها متى ما يريد. كان نوغدين يمكث فيها بين الحين والحين، ينام فيها عندما لا يعود إلى منزل أمِّهِ في أطراف الضواحي، يُحسِّنُ فيها قراءتهُ لِلقرآن والكتب العربية بمساعدة باسل...

يُقضّيان ساعات وديّة يحتاجها باسل في أيّام العزلة والوحدة، تمنح نوغدين سعادةً ما في حياةٍ أرضيّةٍ أيقن أنها محكومةٌ بالنفاق والظلم والعذاب...

حاول باسل إبعاد نوغدين عن أي مشروع متطرف... عندما قال نوغدين ذات يوم إنه يحلم بأن ينهي حياته بالاستشهاد مفجّراً جسدَهُ وسط حشدٍ من الكفرة، ردّ عليه باسل، بأسلوب فريد لا يمتلكه إلا هو وحده، ردّاً غريباً وصل إلى عمق أعماق نوغدين:

– حبيبي، أنت لا تحتاج إلى تفجير جسدك لقتلهم! يكفي أن "تنيكهم" لِتمرِّر لهم مرض الإيدز، وستواصل الحياة لقتل آخرين بعد ذلك!...

ضحك نوغدين بحرارة، هو الذي فقد الرغبة في الضحك منذ أن أصابه الإيدز!...

أردف باسل:

– من الصعوبة بمكان أن تصلَ إلى جورج بوش وسط حراستهِ المشدّدة ثمّ تُفجِّرَ نفسك بعد ذلك. ثمة ما هو أسهل وألذّ بكثير: من الأفضل أن "تنيك" عشيقة بوش، ليصاب عبرها بالإيدز بعد ذلك!...

ثمّ أضاف:

– لو استخدم أصحابك الإسلاميون عقولهم، فبإمكانهم اختراع طرق انتحارية جديدة لا تقتل الانتحاريّ، بالعكس! تجعله يواصل اغتيال جيشٍ من الضحايا وهو يرفل بالنعيم في أحضان عشيقاتهم!...

نوغدين عقلانيٌّ وحداثيٌّ بفضلِ المدرسة العلمانية الفرنسية. هو، مثل أُمِّهِ أيضاً، سهلُ التوجيه والانقياد! لا سيّما مع أبيهِ وإمامهِ وليِ الله الصالح: باسل (الذي يجيد تحويل الإثم إلى فضيلة)!... لعلّ نوغدين أيضاً قد خُلِقَ، أفضل من أيِّ إسلاميٍّ آخر، لهذا الدين الجديد الذي يمتزجُ فيه الحلو بالنافع، وتكون اللذّة فيه منبعاً للخير والحسنات!...

فبعد سماع فتوى "ثواب الزنا" التي أطلقها مولانا الإمام باسل، شعر نوغدين بأنه يستطيع أخيراً أن يتصالح مع ماضيهِ وحاضره: بإمكانه أن يعود إلى مغامرات عشقِ سنواتِ مراهقتِهِ التي يشتاقُ إليها بجنون في قرارة نفسه، و"يكافح" الكفرة ويبيدهم نَيْكاً في نفس الوقت!...

خُلِقَ نوغدين بامتياز لهذا الدّين الازدواجي الفريد، الذي تُعبِّرُ عنه، أيما تعبير، شيزوفرينيا هيئتِهِ في اللباس، وفصامُ ملامحِهِ الرقيقة والعبوسة الصارمة في نفس الوقت!...

باسل يتحدّث:

أسود وأحمر: ليلُ أوسان وفجرُ باسل!

فندق الميريديان قريبٌ من تقاطع شارعين من أهمِّ شرايين لندن: بيكاديلي وريجنت ستريت...

"لُوبي" الفندق، ذو اللونِ البرتقاليِّ الفاتح، منمَلةٌ متوقِّدة، تخلبُ النظر... تعبرُها أروى في الخامسةِ عصراً وحُفْنةٍ من الدقائق، بِمعطفِها الكُحليّ، بخطواتٍ تتهادى بإيقاعٍ رهيفٍ لا أستطيع وصفه.

خطواتٌ لا شبيه لها! لأروى ساقا راقصة، رفيعتان متينتان، كأنهما على أهبة الإقلاع إلى الفضاء. يكفي أن يمشيَ المرء قربها على إيقاع خطواتها الخفيفة لِيُسافرَ معها في رحلة بعيدة!...

تنظرُ أروى إلى لوحات الإشارات في أنحاء البهو. تجدُ في إحداها اتجاهَ موعدِنا: مقهى ومطعم "لا تيراس" (الشرفة)...

فارعةٌ، رشيقةٌ جدّاً، خفيفةُ القوام، تلفتُ أروى بهدوء في كلِّ الاتجاهات بحثاً عني!...

ألوِّحُ لها بإشارةِ تحيّة، تلتقطُها عن بُعد، تقترب... اختارتْ الأسودَ الفاحم لوناً لِبنطلونها الفاخر، والأحمرَ لوناً لِقميصها الحريريِّ الأنيق، الطويلِ حتى الركبة، ذي الحزام البنفسجي الذي يُجلي بقوَّةٍ بذاخةَ رشاقةِ خصرِها النحيلِ الساحر.

على عنقها ثلاثة عقودٍ دائريّة، حبّاتها مربعاتٌ بنفسجيّة (أو زرقاء داكنة، لا أدري)، تستقطبُ النظر على الدوام!...

أسودُ وأحمر! لونان شديدا التناغم، فسّرْتُهُما كما أحبُّ: أسودُ كَلَوْنِ الليل الذي سيطوي عشقَ أوسان، وأحمرُ كَلَونِ الفجر، فجرِ عشقنا الذي سيبدأ الآن!...

ما يخرجُ عن النوتة ويلفتُ النظرَ سريعاً جدّاً: منديلٌ حريريٌّ بنفسجي (أو أزرق داكن، لا أدري) موشَّحٌ بِموتيفات ورديّة، يُدثِّرُ كلَّ شَعرِها بالطريقة الإسلامية!...

لعلّه واجهةٌ محافظةٌ جدّاً، أنيقةٌ مع ذلك، ستارٌ مسرحيٌّ يخلقُ منذ البدء خريطةَ طريقٍ لمن يتحدّثُ مع أروى: يُقولِبُ ويُحدِّدُ اتجاهات حديثهِ وسلوكِهِ معها!...

أعرفُ مع ذلك أنها مَدَنيَّةٌ في سلوكها حتى مخِّ العظم! مُحافظةٌ أيضاً!... ثمّة معادلةٌ عبقريّةٌ دقيقة، منفتحةٌ-منغلقة، باسمةٌ-متجهِّمة... تُجيدُ أروى إدارةَ التفاوضِ الثقافيِّ والتصالحِ الكيماويِّ والتنقّل الزجزاجي المنافق بين طرفيهاَ!...

تقتربُ للمصافحة. ألاحظَ سريعاَ: كُحلٌ رهيفٌ في عينين واسعتين، ناصعتي السوادِ والتعبيريةِ والابتسامة. وجهٌ مشرقٌ قمريّ اللون، جميلٌ جدّاً، مهذّبُ الملامح. أحمرُ شفاهٍ معتدلٌ أيضاً على ثغرٍ جذّابٍ شحيح الابتسامة. مسحةُ ماكياجٍ خفيفٍ، وإن لم تحتج أروى إلى كلِّ ذلك في الأصل: هي فاتنةٌ بالفطرة، بشكلٍ ظالمٍ لا يَرحم!...

– أهلاً، سعيدٌ برؤيتكِ! كيفك؟

– بخير، الحمد لله! وأنتَ؟...

أكثر ما يشدُّ سريعاً: جمالُ صوتِها!... ثمَّةَ أصواتٌ ساحرةٌ تستعمرُ الدماغ، لكن صوتاً يسيلُ بتلك العذوبةِ والنقاءِ والأنثويّةِ صنعٌ بيولوجيٌّ فريد، لم يأسر أذني صوتٌ مثلهُ قطّ... أثار انتباهي أيضاً تشابهُ قسماتِ شوقي مع بعض قسماتها، لا سيّما أنفه وخدّاه وجبينه! قامتهُ الفارعة أيضاً! لعلّه لذلك وسيمٌ جدّاً، أوسمُنا نحن الأربعة!...

المفرداتُ الدينيّة، مِثلُ "الحمد لله!"، "إن شاء الله"، "باسم الله"...، تتخلّلُ عباراتها كثيراً! هي مِثلُ منديلِ رأسِها: هالةٌ رمزيَّةٌ وظيفيّةٌ جدّاً! سياجٌ وقائيّ! متراسٌ يجعلها تمتلكُ زمامَ المبادرة في الحديث، تفرضُ قواعدَ اللعبة!...

ستختفي هذه المفردات التطرِيزية التلحيمية تدريجاً بعد أقلَّ من ثلثِ ساعةٍ من لقائنا، ثمّ ستتبخّرُ وتتلاشى تماماً بشكلٍ آسرٍ (من دون أن تلاحظَ أروى هذه الظاهرة العجيبة، كما أظن)، قبل أن تصير أروى كما هي على سليقتِها وسجّيتِها ودِيْدَنِها: جذوةٌ تتفجّرُ حبّاً للحياة، تبتسمُ بسخاء، تتحدّثُ بِلغةٍ شفّافةٍ رقراقة، بلا ألفاظ ترتيقيّةٍ دينيّةٍ بلاستيكية، بلا غلاف أو أقنعة!...

صِيَغٌ تقليديةٌ ترحيبية حارّة!... أخبارٌ عامة عن موعد وصولي، عن تفاصيل الرحلة، عن أخبارِها (هي في آخر عشرة أيّام من زيارةٍ لأبحاث جامعيّةٍ في الكيمياء، في جامعة لندن، بدأتْ قبل ثلاثة أشهر!)... أطلّتُ استفساراتي لها عن مواضيع أبحاثِها، ظروف عملِها وانطباعاتها حول لندن، مُركِّزاً نظري على ملامحِها وطُرقِ تعبيرها أثناء الإجابة... قبل أن تسأل:

– كيف حال أوسان؟...

– "نُصْ بِنُصْ!" لا أدري ما به هذه الأيام! لكنّ لقاءنا في روما بعد أكثر من ثلاثة عقودٍ ونصف كان ممتعاً بِشَكْلْ، سعيداً جدّاً!...

– ماذا حدَّثَكَ عنّي؟ ماذا قال؟...

– وصفٌ جليلٌ رائع، كلامٌ يفتح النفس!...

جوابٌ غامض: أخفيتُ عنها معرفتي بمعاناةِ أوسان، وعشقِهما. لعلَّها أدركَتْ ذلك، لأنها قالت مبتسمة:

– يلزمك أن تقول معي كلَّ شيءٍ بِدِقّة! أحبُّ دوماً أن أعرف كل ما يقال عنّي من أيِّ كان، كلمةً كلمة، حرفاً حرفاً!...

كلماتٌ واضحة تُلخِّصُ جيّداً بعضَ ملامحِ شخصيَّتِها! لم أعَلِّق على ما قالت، سُعِدتُ بردِّها الذي لا يخلو من مسحةٍ من الحميميَّةِ والدلال!... استغربتُ أيضاً

من سؤالها لأنها تعرفُ أوسان عن ظَهر قلب (يتبادلان عشرة ألف إس إم إس كلّ يوم، نهبتُ وقرأتُ منها ما استطعتُ إليهِ سبيلا)، ولا تحتاج إلى معرفةِ احتمالات ما سيقوله لي عنها!...

أدركتُ أنها تريدُ بذلك، قبل كلِّ شيء، أن تُحلِّلني شخصيّاً من خلال تفكيكها وتحليلها لدلالات ونكهة خطاب أوسان الموجّهِ لي!...

أضافت وهي تحملقُ في بؤبؤي عينيّ بتركيزٍ مرعب:

– ما أدراك بمعرفتي بشوقي؟... لم أذكرهُ أمام أوسان يوماً، ولا يعرف أحدٌ بالدّنيا معرفتي به!...

استغربتُ كثيراً جدّاً من نظراتها الليزريّة التي غاصت للتفتيش في ما أستبطنهُ في عمق أعماقي وهي تسألني عن شوقي. لم تكن نظرات أليفة!...

أجبتُ:

– زار شوقي بيتكما في بداية التسعينيات، كما قال لي!...

– آه!...

تساءلتُ ببراءة: ماذا لو كان شوقي هو نفسه ذلك المعشوق النخاعيّ الأزليّ الأبديّ الذي حدَّثَتْ أوسان عنه؟...

يستحيلُ ذلك بالتأكيد؛ لأنها تسكنُ صنعاء ويسكنُ عدَن اللتين فصلَهما "برزخٌ لا يبغيان، فبأيّ آلاء ربِّكما تُكذِّبان" حتّى موعدِ الوحدة اليمنية في بداية تسعينيات القرن المنصرم!...

أعجبني بشكلٍ خاص أنها تتحدَّثُ معي كما لو كنتُ رابعهما! كما لو كانت تعرفني منذ سنين!...

تُراقبني بِدقَّةٍ واستغراب. ابتسامةٌ غامضة!... لا تبحثُ عن مزيدٍ من توريطي في متاهاتِ ومطبّاتِ وارتجاجاتِ و"شعبكاتِ" حيوات أصدقاء دراستي القدامى... لَمْعةٌ مُبهَمةٌ في عينيها! علّقتْ مبتسمة: "ردّك غامضٌ كثيراً، يبدو أنك لست شفافيّاً جدّاً!"...

نتنفّسُ بعمق كلاعبَي شطرنج ماهرَين أكملا برصانة افتتاحية مباراة شائكةٍ حاسمة، عرفَ خلالها كُلٌّ استراتيجيةَ الآخر وفنونَه الحربيّة!...

الخامسة عصراً، ساعة الشاي الإنكليزي وملحقاته: طلبنا شاياً وبعض فطائر "الكريب" و"البان كيك"، وكعكات "الموفين" و"السكونس" الشهيّة التقليدية... أغنية ستينغ: "إنكليزيٌ في نيويورك" تُدغدِغُ أعصابَ الكرة الأرضية!... حولَنا شيوخٌ إنكليز، جنتلمانيونَ كثيراً، منهمكون بالحديث بنشاطٍ وتأنٍّ وحميمية... زبائنُ الفندق يتجوّلون، يأخذون صوراً تذكارية، كأنهم في قصرٍ ملَكيٍّ أو في متحف... نُعلِّقُ على ما نرى كما لو كانت تعرفني وأعرفها منذ الأزل!...

للدقائقِ نكهةٌ أرستقراطيّة عسليّة!...

لاحظتُ صحّةَ ما قاله أوسان عن ثراءِ علاقاتها الاجتماعية: لم تمرّ أربعون دقيقة منذ لقائنا إلا وقد تسلّم تليفونها ما يقارب عشرة إس إم إسات!... (رنَّةٌ

خفيفةٌ رقيقة، لها نغمةُ الصدأ، تنسابُ من تليفونها عند وصول أيّة رسالة إس إم إس!)...

استحضرتُ ما قاله أوسان:

"تصلُها بانتظام رسائلُ من قائمةٍ لا نهايةَ لها من الأصدقاء، تبدأ بالأهلِ وأصدقاءِ الطفولة، وتنتهي بآخر إنسان تعرَّفتْ إليه قبل قليل!... أغلبهم يتواصلُ معها بانتظام، يوميّاً أحياناً!... يتبادلون التحيات والابتسامات والأخبار والمعلومات والأسئلة والتهاني والقُبَل. كثيرٌ من البوح والإفضاء والتعاضد أيضاً. يتفاعلون حول كلِّ شيء ولا شيء!...

لو كانت وحدَها هنا لما تردَّدَتْ بالاتصال التليفوني بعد هذه الإس إم إس أو تلك، بِبَعْثِ كلماتٍ مقتضبة تغسلُ القلب، تشفي غليل هذا أو ذاك!...

(لم يضف أوسان: "تُغري هذا، أو تُغوي ذاك"!)...

تليفونُها أشبهُ بجهازِ طَباخةٍ بالغاز (شُولَة) ذي ثقوبٍ عديدة تخرج منها ألسنةُ نارٍ صغيرة! كلّ ثقبِ إس إم إس تهمسُ شيئاً ما لأروى، قَلْبٌ ينفتحُ لها، يخاطبُها بودّ، يشتاقها!...

(لم يضف أوسان: "أو تشتاقُه"!)...

أشعر كأني لن أستطيعَ حملَ تليفونها (رغم أناقتِهِ ورشاقتِهِ وخفّتِه) من ثُقلِ الهموم وكهربةِ العواطف المكتظّةِ في إس إم إساته المخزونة!... لعلّه يحوي نصف أسرار البشرية!...".

نسيَ أوسان أن يقول لي آنذاك إن تليفونه هو أيضاً يحوي ملحمةً من ملاحم هذه الإس إم إسات التي شفطتُها منه. هي اليوم ترافقني في تليفوني. أنكبُّ على دراستِها وتحليلها حرفاً حرفاً، وكأني سأكتب عنها أطروحة دكتوراه!...

ما لم يقلهُ أوسان حينها، أو ما لا يعرفُهُ ربما: عشّاقٌ كثيرون لا ينفكّون عن بعث إس إم إسات مرتجفة، تحاولُ لفتَ نظرِها، التقرّبَ منها!... لا يفلحون في الغالب، أو يظلون أحياناً، تحت إدارتها الفنية، احتياطيّين خارج ملعب كرة قدم، ينتظرون إشارتها لدخول الملعب!...

أعجبني كثيراً وصفُ أوسان الشاعري لأروى وهو يتحدّث عن ثراء علاقاتها الاجتماعية:

"أروى أشبه بسفينةٍ فضائيةٍ كرويّةٍ ضخمة تُحلِّق في الفضاء، ترتصُّ على إطارِها الخارجيّ، كمسامات، مئاتُ النوافذ الزجاجيّة السداسيّةِ الشكل! يخرجُ من كلِّ نافذةٍ مخروطٌ من الألومنيوم، طويلٌ جدّاً، يتَّسِعُ أكثر فأكثر، لِيحتضنَ في نهايتهِ كوكباً من كواكب الكون! أقصدُ، ليحتضنَ إنساناً يُفضي لها بهمومه، تفضي له بمعاناتها! يتفاعلان في السرّاء والضرّاء!...

لا تمرُّ خمس دقائق إلا ويتوهّجُ زجاجُ إحدى النوافذ السداسية ببرقِ إس إم إس آتٍ من كوكبٍ بعيد: ثمّة إنسانٌ يُناجيها في نهاية الخط لمدَّة أسطرٍ قليلة، أو همساتٍ صوتيّة خفيفة!...

عندما أرنو إلى السماء في الليل، أرى حوريّةً مضيئةً كالقمر، فاتنةَ الوجهِ ساحرةَ الجسد، تُحلِّقُ في الفضاء بانسيابٍ موسيقيٍّ راقص، تتماوجُ كسمكةٍ سحريّة، تنبعثُ من جسدِها حزمةٌ من ألياف الأشعةِ الضوئيةِ الرفيعة باتجاهِ أناسٍ ما في شتّى بقاعِ الأرض، تصلُهُم كمَدَدٍ إلهي، كَقُبَلٍ ملائكية!"...

أصبتَ عزيزي أوسان في وصفك البديع، الأعمى والساذج جدّاً أيضاً، لِأرواك الإلهية!...

أرثيكَ أيضاً: النافذةُ الزجاجيةُ السداسيةُ الخاصةُ بك في سفينة أروى الفضائية لا تتوهج هذه الأيام، مظلمةٌ كالحةُ السواد، موصدةً بسبب "الهُدنة"!...

ها أنت الآن في روما ترمقُ تليفونك بشوقٍ محمومٍ مجنون، تشعرُ بالاختناق، تنتظرُ حرفاً صغيراً منها! عبثاً!... تريد أن تُحرق الكرة الأرضية من فرط غيظك لأنّ أروى "تركتْكَ في العراء"، حسب تعبيرك، تحتضرُ في صقيعِ الهدنة (أدامها الله إلى أبدِ الآبدين!)...

يا لك من طفلٍ مدلَّل!... هي الآن، عزيزي "شهيد الهدنة"، في عالمٍ آخر! تعيشُ لحظةَ لقائها معي، تنغمسُ بها حتى النخاع!...

أروى تحيا في الفعل المضارع!...

هذه هي أروى، عزيزي أوسان: ذهنٌ متعدِّدُ الأبعاد، تناجي وتحب وتعشق العديدَ في نفس الوقت!

أروى عشْقٌ مُرَكَّب!... اقبلْ أن لا تكونَ معشوقتُك أحاديَّةَ الذِّهن مثلك!... لماذا تريدُ أن تكون دفئها الأوحد؟

يا لك من مغرورٍ مُتغطرسٍ ساذج!...

يا لك من عاشقٍ من الحرس القديم!...

أخرجَتْ أروى من حقيبتِها استطلاعاً صحفيّاً (سحبَتْهُ من إنترنت) كتبتُهُ قبل ١٥ سنة عن منطقةٍ نيبالية، وسلسلةَ استطلاعاتٍ حديثة عن "مرافئ البحر الأسود" قدَّمتُ فيها تحليلات ومقارنات لبعض أوجه الحياة والعادات والتقاليد الشعبية في أهم مرافئ الدول السبع المحيطةِ بالبحر الأسود...

أخرجتْ أيضاً كتاباً قديماً لي، تُرجِمَ إلى الإنكليزية قبل ستّ سنوات، عن رحلاتي وتسكّعاتي لِمدة سنتين في شمال الهند!... (تصفَّحتْ كلّ هذه الأعمال بسرعةٍ وتركيز بعد أن أرسلتُ لها الإس إم إس، قبل أقل من يومين!)...

ناقشتْني في ما كتبتُ بتفاعلٍ وحماسة مخلِصَين أثَّرَا عليَّ كثيراً... جعلتْنِي، بأدبٍ ومهنيّةٍ وحفاوة، أكشفُ عورَتي بطيبة خاطر!...

قادتني بأسئلتها عموديّاً لأتحدثَ عن نفسي عندما وصلتُ إلى مدينة لِيون لِدراسة الترجمة الفورية... وجدتُني في لحظةٍ ما أقصُّ لها علاقتي بأوَّلِ إنسانةٍ عشتُ معها حينذاك!...

– اسمُها بريجيت، ألمانية، كانت تدرس في نفس الجامعة... جميلةٌ، جذّابةٌ، شهيَّة! أوّل حبٍّ حقيقي لي!...

قاطعتني بابتسامةٍ رقيقةٍ ماكرة:

– كم من حبٍّ كاذبٍ عِشتَ قبل ذلك إذن؟

لم أعلِّق أو أبتسم!... رمقَتْ تليفونها إثر وصولِ رسالةِ إس إم إس بدت لها عاجلة. ردّتْ عليها بسطرٍ سريع من دون أن تنظر إلى أحرفِ لوحةِ مفاتيح التليفون!...

(ألاحظ: هي معي ومع آخرين في نفس الوقت!)...

أخرجتْ من حقيبتها، لِتُسجِّلَ شيئاً ما، قلماً أنيقاً ثميناً جداً، على شكلِ هرَمٍ طويلٍ رفيع. نصفُهُ الأعلى أحمر خلّابُ اللون ونصفهُ الأسفلُ أسود نقيٌّ ناصع!...

أحمر وأسود: غسَقُ أوسانَ وفَجْرِي!

تلألأ في عينيّ من جديد بريقُ الأمل وحسن الطالع!...

تناغمٌ شجيٌّ مع ملابسها!... تذيبني هذه التفاصيل: أروى، كما سألاحظُ ابتداءً من الآن، ملِكةُ التفاصيلِ الصغيرة!...

استطردتُ:

– عِشنا معاً نحو تسعة أشهر في شقَّةٍ صغيرة في وسط ليون!... في يومٍ ما وجدتُ أن الحياة معها لم تَعدْ كما بدأتْ: بريجيت منغلقةٌ على نفسها كثيراً، لها نظرياتٌ عن الآخرين غيرُ قابلةٍ للنقاش، قاسيةٌ أحياناً...

شعرتُ بأنها تُغلقُ حياتَنا (بلا وعيٍ ربما، أكثرَ فأكثرَ بالتأكيد) في طقوس ومراسيم مبرمجة، في لقاءات مُمِلَّة مع أصدقاءِ محدّدين فقط...

سئمتُها فجأة، رغم أنها ذكيّة مثابرة، شهيّة أبداً!...

تركتُ لها ذات يومٍ شُقَّتَنا، كلَّ كتبِي وملابسي وأدواتي، ورسالةً طويلةً تشرحُ لها لماذا رحلتُ عنها إلى الأبد!...

لم تُعلِّق أروى على سلوكي! نظرتْ إليّ نظرةً مبهمة... ثمّ سألتني:

– عشتَ مؤخراً في موسكو كما عرفتُ! منها انطلقتَ لكتابة استطلاعاتك عن مرافئ البحر الأسود!... كيف مرّتْ سنوات موسكو؟...

(تموضعني في مركز اهتمامها! أستغلُّ ذلك باندفاع لجرِّها إلى عوالمي وتحبيبها لها)!... رددتُ:

– روسيا شغفٌ صوفيٌّ لي لا أمتلكُ تفسيراً علميّاً لضراوتِه! أشعرُ دوماً بسعادةٍ كثيفةٍ مبهمةٍ عندما أكون هناك!... ربما في حياةٍ سابقةٍ لي كنتُ رُوسِيّاً، من يدري؟ ربما كنتُ أتقمَّصُ حاليّاً روحَ بوشكين الذي أحبُّهُ بلا حدّ (اعذري شطحاتي، عزيزتي أروى)!...

أحبُّ دوماً ان أثرثر مع الروس لسببٍ أجهلهُ تماماً! الحديثُ معهم مشوّق، ممتعٌ، ذو شجونٍ دوماً! ربما لأن لنا، نحنُ جيل سبعينيات عدَن، مع الروس أحلاماً مشتركةً ضائعة، وقصصاً متشابهة ترتبط بآلام الزمن السوفياتي وطوباوية اشتراكيته!

ربما لأن الروس شرقيّون مثلنا، تجمعنا معهم طبيعةٌ وميولٌ لاواعيةٌ متقاربة!...

تعرّفتُ إلى تاتيانا في باريس، في مكتب مجلّةِ استطلاعاتٍ جغرافيةٍ دوليّةٍ كنا ننشرُ فيها دراساتنا!... تعلّقتُ بها منذ البدء: لها عينان زرقاوان ساحرتان، جسدُ عارضةِ أزياء! انسجمنا في أحاديثنا وميولنا كثيراً من أوَّلِ لحظة!...

أثارتها في بدايةِ علاقتِنا ملاحظةٌ غريبةٌ قلتُها لها: "عندما كنتُ طالباً في مدينة ليون، كان هناك موظّفٌ روسيُّ الأصل، مسؤولٌ عن مكتبةِ القسمِ في الجامعة، له بعضُ ملامحك، له لونُ عينيك! أشعرُ بأن له علاقةً جينيّةً وثيقةً بك!"...

لم تُعلِّق، لكنها كانت في أوجِ استغرابها من مفاجأة هذه الملاحظة!...

بعد تطوّر علاقتنا، قالت لي ذات يوم إنها تعرفه. كان مُترجماً فوريّاً أيضاً! جاء إلى فرنسا في السبعينيات مع وفدٍ سوفياتيّ رسميّ، ثم غادر، على حين غرّة، الفندقَ الذي سكن فيه مع الوفد، وطلب اللجوء السياسيّ!...

صمتٌ طويل. دحرجتْ تاتيانا بصوتٍ متحشرجٍ مبحوح، في لحظة كافكاويّة:

"هو أبي!... قطعَ علاقته كليّة بي وبأمّي، تنكَّرَ لنا! تزوَّجَ سيّدة فرنسية... لم أرهُ مرَّةً واحدة في فرنسا، رغم معرفتِهِ بزياراتي المتواترة لِباريس منذ بدء التسعينيات!"...

أروى تنغمسُ في الإصغاء. أستطردُ بحماسة:

– سأختصرُ، عزيزتي أروى. تطوّرَتْ علاقتي بتاتيانا سريعاً. كنّا نعبرُ باريس أو موسكو من الصبح الباكر حتى آخر الليل مشياً على الأقدام، نعشق ذلك! لا أمَلُّ سماعها وهي تتحدّث. أشتهي فيها كلّ شيء: هي جميلةٌ جدّاً ومثقّفةٌ جدّاً في نفس الآن!... كلُّ لقاءٍ معها أمتعُ وأروعُ مما قبله!... تحوَّلتْ علاقتنا حبّاً عارماً، انتهى بزواجنا في باريس، تلَتْهُ حياةٌ مشتركة في "داتشا" روسية جميلة في ضيعة الكسندركويا (على بُعد ١٧ كيلومتراً من موسكو)، محاذية لنهر الموسكوفا، اشتريناها معاً في منتصف التسعينيات بسعرٍ زهيد!...

شعرتُ حينها بأني وجدتُ السعادةَ النهائية التي أبحثُ عنها! نسافرُ معاً. نكتبُ معاً. نجولُ العالمَ معاً!...

ثم شرحتُ لأروى كل مفاجآت قصة حياتي الطويلة مع تاتيانا بعد عودةِ أبيها إلى روسيا وإلى حياتها في نهاية التسعينيات، وتداعيات أزماتٍ نفسيّةٍ قديمة تحتاج لِسردها روايةً خاصّة، حتى انفصالي عنها وترك "داتشانا" لها...

هكذا لم يمرّ نحو ساعتين في المقهى إلا وقد عرَفتْ أروى أشياء كثيرة عن شخصيّتي: أوّل حيواتي المشتركة مع بريجيت في ليون، وآخرها مع تاتيانا في موسكو. بينهما أربع زيجات مع مصريّة ولبنانية وفرنسية وهنديّة لم أشأ الاستغراق أو التلميح بهنّ لأروى هذه المرة!...

سأكتشفُ قريباً أن كلَّ الرائعات اللواتي عرفتهنّ واللواتي تحوَّل عشقهنّ في نظري، بعد سنين من بدئه، إلى موتٍ مُسطَّح. كلُّ البديعات اللواتي ارتبطتُ بهنَّ بِكلِّ عشقِ الدنيا (ومللتهنَّ بعد ذلك بكلِّ ضجرِ الدنيا) لا يَصِلنَ إلى مقام أروى أبداً!... هي كُلّهنَّ معاً، أفضلُ ما فيهنّ معاً، وأكثر من ذِلك!...

هي لا مثيل لها كما يبدو، من معدنٍ آخر! "الاستسلام لِرقّتِها لا يجرُّ البتةَ لأي سأم"، كما يقول بودلير!...

سأضحكُ من نفسي أيضاً: قضّيتُ حياتي أجوبُ الكون من منفى إلى منفى، أبحثُ عن امرأتي القدَرِيّة في كلِّ أرجاء الدنيا، فيما هي تحيا في أتعسِ عاصمةٍ في العالم: صنعاء، لأتعسِ بلدٍ في الكون: اليمن، على بُعْدِ خطوتين فقط من مسقط رأسي: عدَن!...

"في ذلك الثقب تحيا الحياة، تحلمُ الحياة، تُكابدُ الحياة!"، كما يقول بودلير أيضاً!...

سألَتْني:

– ما فلسفتك في هذه العلاقات؟ أليس من الجُبن بمكان هذا الهروب ممن تعاشر، أم هو الصدق والشجاعة عينها، وعدم النفاق أيضاً؟...

(بيادقها تتقدّم في كلِّ محاور حلبة الشطرنج!... الممثل الثرثار يواصل خلع آخر ثيابه وسط حلبة المسرح!)...

– لا أعرف!... ليست لي فلسفةٌ خاصة ربما، لكني رميتُ يوماً ما بآخر أواصر عبوديّتي: لا يوجدُ إنسانٌ أو إلهٌ في هذا الكون يمكنهُ أن يقنعني بأنه يلزم الوفاء أو البقاء مع شريك (زوج، زوجة...) لا نُحِبُّهُ، يُنكِّدُ على حياتنا، ولا نستطيع قطع العلاقة به!... البحث الموازي عن حبٍّ مُتمرِّدٍ (قد يتحوَّلُ شريكاً بديلاً إذا سنحتِ الظروف) هو "أضعف الإيمان" إن لم نرد الموتَ الروحيَّ قبل الموتِ الجسدي!...

أفهمُ خضوعَ الجسدِ أحياناً (يمكنُ أن يحصلَ ذلك لأكثرِ الأحرار شجاعة)، لكن خضوعَ الروحِ من صفة العبيدِ والجبناءِ فقط!...

ثمّ أنا من عِرْقِ الرحَّالة! بحّارٌ دائم، أتبعُ النجم، أحيا في السفر! أعشقُ اكتشافَ الآخر، استلذُّ النومَ في أرصفةِ المُدنِ المجهولة... لعلّي لم أجد بَعْدُ معشوقتي التي أبحث عنها!...

(توقّفتُ برهة لتستوعب أروى أهمية عباراتي، ولتفهم أنها نجمُ البحّارِ الذي أقصدُه! وجّهتُ نظري عموديّاً لِعينيها!...

لم تهزّها نظراتي كثيراً كما يبدو، لم ترتبك!...

ابتسمَتْ باقتضاب. لمعةٌ مواربةٌ في العينين أغرتني وأغوتني أكثر من اللازم!).

أستطردُ:

– أصبو إلى أن تكون تعدُّديةَ الفضاءات مثلي، منفتحةً على الكون!... فيما كلّ من عرفتهنّ حتى اليوم أحاديّات الاهتماماتِ والآفاقِ والتفكيرِ بشكلٍ أصمّ!... مع مرِّ الزمن يزددنَ ضيقاً وانغلاقاً، ينمنَ في مداراتي، يسبحنَ في فَلَكي، يندفِنَّ فيّ إلى الأبد، ويَدْفِنَّني في نفس الوقت!... عبارة رامبو هذه تلخِّصُ كلَّ شيء تقريباً: "الحبُّ ينبغي إعادةُ ابتكارِه! ذلك شيءٌ معلوم! هنَّ (النساء) لم

يَعُدنَ قادرات إلا على اشتهاء عيشٍ مؤمَّن! وما إن ينلنهُ حتى يضعنَ جانباً القلبَ والجَمال: فلا يبقى سوى ازدراءٍ باهت، قُوتُ الزواج أيّامنا!"...

لَكأني، وأنا أحتفلُ أمامها بالتعدُّدية (هي تعدُّديةٌ في عشقِها بشكلٍ جذريٍّ، غريزيّ)، أطعنُ، بقصدٍ أو بلا قصدٍ، أوسان من الخلف (ليس ثمّة أكثر تعبّداً في محرابِ الأحاديةِ من أوسان!)، وأحاولُ في نفس الوقتِ غوايتَها بوعيٍ أو بِلا وعي: أخوضُ معها حرباً على الطريقة الصينية، أطبِّقُ فيها نصائح مُعلِّمي العبقريّ الملهم: "سان تسو"، الذي ألّف كتاب "فنّ الحرب"، ستة قرون قبل الميلاد!...

نموذجي في خوضِ الحربِ هو نفسُ نموذجه: الطبيعة!

أحاول لذلك أن أسيلَ كالماء في تضاريس عدوِّي لأتكيّفَ معه، لأتخلَّلَه، لأتسربَ فيه... قبل أن أنقضَّ عليه، مثل طوفان، في لحظةٍ إلهية (أكونُ قد أعددتُ العُدَّةَ طويلاً لها، بِصمتٍ وذكاء) لأكسبَ المعركةَ حينها، حسب توجيهات مولاي الصيني سان تسو: من دون مواجهة، دون صراع، دون خسارة، دون بارود، دون عبوات ناسفة وخطابات حماسيّة، دون حرب!...

آه، عَدوِّي الذي أعشقه!... عَدوِّي العبقري الذي ينتصرُ عليّ حتّى الآن بشكلٍ ساحق، من دون أن أدري، وهو يجرُّني لإفضاءِ روحي في حضرتهِ ببساطة (فيما لا يُفضي إليّ بغير ضواحي روحهِ فقط) ولتشريحِ سيرتي الذاتية أمام ناظريه أوّلاً بأوّل، بعد ساعتينِ من لقائنا فقط!...

متى سأستطيعُ استفسارَ أروى: ما هي فلسفتكِ في الحياةِ أنتِ؟ من هو عشقكِ النخاعيّ هذا الذي سدَّ بلعومَ أوسان وألهبَ طحالَه؟...

كيف سألج إلى قمقمِ أسرارها المختومِ بالفولاذ، والمحصّنِ في ثقبٍ مردومٍ في عمق أعماقِها الغائرة؟

ربما كان يلزمني للوصولِ إلى ذلك أن أبدأ أوّلاً ببعثِ "تقريري" إلى مرجعِنا وبؤرتِنا العدنيّة، شوقي، عمّا اكتشفتهُ في لقاء روما:

عليَّ إذن أن أستغلَّ أقرب انشغالٍ لأروى لأبعث إس إم إس شيطانيّة تنبئهُ عن علاقةِ عشقٍ حامي الوطيس بين أوسان وزوجة منيف (الذي حدّثني عنها شوقي مراراً)، ويُشخِّص له سبب اكتئابِ أوسان: معشوق أروى النخاعيّ المجهول، ويسألهُ أيضاً عمّن يعتقد أن يكون هذا العصفور النادر، هذا الفارس الخفي الذي لخبط حياة "المعتصم بالله" ودحرج به إلى الدرك الأسفل من الاكتئاب والقلق!...

ستفتحُ لي هذه الإس إم إس الأريبة، من يدري؟، محوراً خلفيّاً تتقدّمُ فيه قطعي الشطرنجيّة نحو قلبِ الملكة!...

أوسان يتحدّث: روحٌ مشحونةٌ بالشياطين!

قبل سرد تداعيات وآفاق فتوى "ثواب الزِّنا" التي أطلقها الإمام باسل أمام مسمع صديقي الحميم نوغدين، يلزمني أن أكشف سرّاً جوهريّاً مرعباً دمّرَ حياتي!...

لم أكتشف شرَّ باسل المطلق وقذارةَ روحِه إلا اليوم فقط، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧، وأنا في شقّتِه بباريس، بعد أكثر من ستة أشهر من لقاء روما!...

ومع ذلك، حال توقّفنا في مقهى تياترو ماسيمو، المقابل لعمارة الفاو في قلب روما، يوم وصوله، كنتُ قد لاحظتُ أن باسل يستغلُّ عراقةَ علاقتنا، وأشواقنا لاسترجاع الذكريات، كي يجرَّني للحديث عن مواضيع ملغومة لم أكن أحبُّ التطرّقَ إليها!

شعرتُ حينها بأنّ نياته لم تكن مخلصةً نقيّة، وهو يحملق بي بميكروسكوب عينيهِ الغادرتين!...

كان يجرّني لشرب الكحول بمنهجيّة، رغم أني لا أطيق ذلك كثيراً!... استغلَّ، كما يبدو، براءتي وسذاجتي الشهيرتين، وكوني "على نِيَّاتِي" كما يقول الجميع!...

اتصل بي باسل من باريس لروما، في منتصف أكتوبر قبل أسبوعين من اليوم، قائلاً إنه سيزور اليمن!...

لم يشرح لي باسل ما حصل له منذ افترقنا في روما! اكتشفتُ كلَّ ذلك لوحدي: منذ زيارتِهِ للندن لِرؤيةِ أروى، وتخطيطِه لإنهاء حياة الوزير منيف عبر نوغدين (الذي أقضّي معه، حاليّاً في شقّة باسل، ساعات طويلة في الحديث يوميّاً، تزيل بعض كروبي إذا جاز لي قول ذلك)، حتّى اتصاله التليفوني الأخير في منتصف أكتوبر وسفرِه إلى اليمن بعد ذلك سعياً إلى الوصول لأروى!...

لعله لا يعرفها على حقيقتها: هي تقبل خدمات الآخرين (تُقدِّمُ لهم أضعافها إذا أرادتْ)، تقودهم لأدائها بذكاء، أو تغويهم أحياناً بمهارة فائقة لينفِّذوها بأملٍ ما وصبوةٍ جادّةٍ واستيهامٍ نشيط، أو رغماً عنهم إذا تردّدوا أو تأخروا قليلاً!... دون أن تعِدهم مقابل كلِّ ذلك بشيءٍ ملموسٍ ما!...

عندما اتّصل بي باسل في منتصف أكتوبر سألني عن حالي. أجبتُ: – أنا "في طيز الحمار"!... منذ عدّة أيام تصل بالإيميل لليلى، من عنوانٍ مجهول، مَقاطع من مراسلاتٍ حميمية قديمة بيني وبين أروى!...

وصلتْها أولاً نماذج كثيرةٌ هامّةٌ جدّاً، مختارةً بعناية، من بعض تفاعلاتنا اليومية الغرامية جدّاً، وتبادُلِنا للأخبار والذكريات والمناجاة!...

جنّ جنونها، طلبَتْ منّي أن أفسِّرَ ذلك!...

بذلتُ المستحيل لإنكار ما قرأته، واختراع تفسيراتٍ بهلوانيةٍ تُخفي علاقتي بأروى!... حاولتُ بصعوبةٍ فوق بشرية تمويه ما حدث!... غير أن الدلائل والإشارات كانت جليةً لا تقبلُ النقاش!...

ثم وصلَت اليوم التالي مقاطع جديدة أخرى، لمراسلات لحقت المقاطع السابقة أو سبقتها، نسفَتْ كلّ تمويهاتي وأضافت تفاصيل دامغة كثيرة، بلوَرتْ بما لا يدع مجالاً للشك أحداثاً وذكريات حميمية بيني وبين أروى، صعُبَ إنكارُها أو تلفيقُها أكثر من البارحة!...

واصلتُ الإنكار والتمويه البهلوانيّ بصعوبةٍ لا تخطرُ ببال...

استمرّ إرسال هذه الإيميلات على هذا المنوال، يوماً بعد يوم، دون توقّف!... تدعوني ليلى كلّ مرّة لقراءتها وتفسيرها!

تُخفي وراء هدوئها عاصفة، لأن أجفانها ترتعشُ وشفتاها ترتجفان من هولِ الصدمةِ والألم!...

أواصل إنكاري وتلفيقي ومغالطتي بصعوبة أكبر فأكبر، لا سيّما أني ممثلٌ فاشلٌ من الطراز الرفيع!...

لعل ليلى كانت ترثيني في قرارة نفسِها، تسخرُ مني، أو ربما تحتقرُني أيضاً!...

تحوّلَتْ حياتي، مثل حياتها، إلى جحيمٍ مطلق: أعيش على أعصابي طوال اليوم، بانتظار أن تقول لي ليلى إنها تسلمت إيميلاً جديداً!...

أحدِّق في عينيها كل صباح. حلقةٌ داكنةٌ تحيط بهما وألمٌ لن تستطيع كلُّ قواميس الكون وصفَه. ما ذنب هذا الملاك النقيّ الطاهر الذي لا يعرف المراوغة أو المغالطة أو الكذب (مثلي تماماً قبل أن تسقط أروى على حياتي كجلمودِ صخرٍ حطّهُ العشقُ من علِ)؟...

نُقضّي كلّ يومنا وليلتنا حتى الفجر، في مكاتبنا في الفاو وفي البيت، نلتُّ ونعجنُ في صراعٍ محتدمٍ دائم، في حربٍ أهليّةٍ حقيقية!...

صارت ليلى تعرف تاريخ يومياتي مع أروى أكثر منها ومنّي، كما أظن! تتابعُ وتدركُ عبر هذه الإيميلات، بنزفِ كلِّ جراحِ الكون، ما نسيتُ وما لم أنسَ من تفاصيل حياتي الموازية السريّة (التي لم تخطر ببالها) والتي أضحتْ قطبَ وجودي الحقيقي!...

أصبحت ليلى تعرف كل خبايا هذه العلاقة، تستذكرُها دقيقةً دقيقة في كلِّ لحظة: تحفظ عن ظهر قلب كلّ تواريخها ومفاصلها الكبرى التي نستعيدها في مراسلاتنا، أروى وأنا، بلا ملل، ونلوكها بكلِّ سعادة الدنيا!...

تعرف مثلاً طقوس تحيّاتنا الحميمية جدّاً، الخاصّة جدّاً، وتيرة تفاعلاتنا، كيف نستهلُّ حالما نصحو مراسلات كلّ يوم، كيف نختتمه، كيف نسرد لبعضنا كل حدث بسيطٍ من حياتنا اليومية، ماذا قلنا لبعضنا وأحَدُّنا هنا أو هناك، ماذا حملنا لبعضنا من هدايا في هذا اللقاء أو ذاك، أين سكنَّا وكيف مرّت أيّام لقاءاتنا في لندن، بيروت، برلين، دبي، بودابست، مونتريال، مدريد، سان فرانسيسكو، دار السلام، طوكيو، تونس، نيودلهي... وتفاصيل كلّ اللحظات الحميمية جدّاً التي خلّدناها بأجمل الكلمات وأسخنها، ودوّنّاها بأصغرِ التفاصيل وأدقِّها، وكأنّنا مكلَّفَان من مالك المُلك وإبليس معاً بكتابة محاضر يوميّاتنا لحظةً لحظة

لقراءتها لهما يوم البعث والنشور! (أروى وأنا، مثل الآلهة والشياطين، مهووسان بالتفاصيل)!...

عندما تكون الزوجةُ أفضلَ من يمكنُهُ كتابةَ سيرةِ عشقِ زوجِها بمعشوقته، فعلى الزوج السلام!...

يمنعها ذلك من النوم... تحوّل كابوساً يُدمّر حياتها!... نحفَتْ، فقدت تُسْعَ وزنِها تقريباً، في أسبوع!. تلاطمت كلُّ أوجاعِ الدُّنيا في جسدِها اللّين الناعم. افترستها وعاثتْ فيها كل الأمراض في نفس الوقت!...

اقتربَتْ من الجنون وهي تقرأ رسائلي الحميمية لأروى، لأنها تدرك أكثر من أي إنسان في الوجود أني إذا قلتُ شيئاً فلا أقوله من طرف اللسان!...

أيقنَتْ، هي التي تعرفني أكثر من أي إنسانٍ آخر، أني أعشق أروى بضراوة! لذلك انتقلتْ حياتُها (وحياتي أيضاً) من أعلى علّيّين الفردوس إلى الدّرك الأسفل من جهنم!...

صرتُ ألجأُ إلى الكحول بشكل مَرَضي لأنسى هاويتي، أو بالأحرى لأهرولَ فيها معصوب العينين!...

تتهاوى حياتي اليوم، أعيشُ صراعاً يوميّاً أصمّ، بلا توقّف!...

نَصحَني باسل، بعد أن شرحتُ له كلَّ ذلك عند اتصاله الهاتفيّ قبل أسبوعين، بالسفر إلى باريس ل"تغيير الجو"، كما قال، والسكن في شقّته، وستعود المياه إلى مجاريها، لأن بيني وبين ليلى عُمْراً وذكريات نموذجية مُثْلى بحجم الكون، وهذه أوّل "هفوَة" لي، حسب تعبيره!...

وعدَني بأنه حال عودتهِ من اليمن سيساعدني في "التوسط" بيني وبين ليلى لِحلِّ هذه الأزمة!...

لم أسمع هذه الكلمة من قبل! لم أتوقّع يوماً أن نجد نفسينا، ليلى وأنا، نَدَّيْنِ غريمَين بحاجةٍ إلى وسيط!... ما أدهى تقلبات الزمان!...

تمنّتْ ليلى أكثر من مرّة أن لا تصدّق ما حدث. أرادتْ بضراوة أن تقتنع بأنها تعيش كابوساً ليليّاً مرعباً سينقشع عند الصحو، لا ريب. أرادت ذلك بشدّة لولا استمرار تواصل الإيميلات يوماً بعد يوم، بتخطيطٍ شيطانيٍّ مُتقنٍ لا حدّ لِسوءِ نياته، قبل أن ترافقها كارثة الكوارث: صورُنا المشتركة، أروى وأنا، التي تشرحُ كلَّ شيء بلا ترجمان!...

ثمّ الطامّة الكبرى: آخر عبارةٍ سمعتُها من ليلى: "اسمحْ لي بطلب واحد فقط إذا احترمتَ ثلاثين عاماً من الحياة المشتركة السعيدة: ابتعدْ عنّي إلى الأبد، لا أريدُ رؤيتَك بعد اليوم إطلاقاً!"...

ماذا يتبقّى للمرء بعد عبارةٍ كهذه أفضل من أن يرمي بنفسهِ من الدور المائة؟

"هربتُ" قبل أسبوع من روما إلى شقّة باسل بباريس، لأكتشف اليوم بالمصادفة من طعنَني في الظهر عندما كنتُ في إفْرِستْ هملايا السعادة، وجندلَ بي في مغبّات هِاويةٍ بلا قاع!...

عرفتُ في الحقيقة أنه، هو نفسه، من دبّر فنائي، بسبب تليفونٍ وصل إلى بيتهِ من شركة خطوط التليفون: فرانس تيليكوم! أدركتُ بعدَه أن دعوَتهُ لي للسكن في بيته، بحجة إخراجي من ورطة حياتي العائلية، لم تكن عن طيبة خالصة! كانت من باب "اقتلْ الميّت وامش في جنازته!"...

هاتفُهُ الأخير من روما لم يكن أيضاً بريئاً جدّاً! كان موقوتاً بدهاء: اتّصلَ بي بعد أسبوعٍ من وصول الإيميلات المجهولة ليتأكد، بشكلٍ غير مباشر، من أنها وصلتْ إلى ليلى شخصيّاً وأدّت مفعولها التدميري، كما أراد!...

يا للبشاعة، باسلُ روحٌ مشحونةٌ بالشياطين!...

عندما اتصلَتْ موظفةُ فرانس تيليكوم اليوم كنتُ في طرف الهاتف (أتكلم الفرنسية، ابنة عمٍّ الإيطالية، بطلاقة كاملة. أستخدمُها كثيراً في رحلات عملي، لا سيّما الأفريقية والأوروبية)!...

قالت إنها بعثَتْ لي (ظنَّتْ أني باسل) إيميلات إشعار منذ بضعة أيّام، لكني لم أردّ، لذلك اضطرّت للتلفنة!...

سألتُها: "ماذا تريدين بالضبط؟ ماذا قلتِ في إيميلاتكِ التي لم تصلني؟".

ردَّتْ: – الإيميلات التي برمجْتَها على موقِعِنا لبعثِها بالأقساط، يوماً بعد يوم، ولِمدّة شهر، للعنوان التالي (ذكَرَتْ عنوان إيميل ليلى! يا لبشاعة السافل المجرم الحقير باسل!...) لم يُبعَثْ إلا نصفُها فقط تقريباً: حصل إشكال في "السرفر" قبل أيام! ضاعت منه كل الإيميلات المبرمَجَة!...

يلزمُكم إعادةُ برمجةِ بعثِ الجزءِ الباقي من جديد!...

نعتذرُ جدّاً عن هذا الخلل الذي يحصل لأول مرّة في هذه الخدمة الجديدة!...

أصِبتُ بالشلّل! "ابن القحبة" هو من بعث هذه الإيميلات لليلى بتقسيطٍ ساديٍّ أراد به قتلي ببطء!

سرقَها من تليفوني خلال لقائنا في روما أو في لحظةٍ ما من زيارتِهِ التلصصيّة اللعينة لي!...

لماذا يدمِّر هذا السافل حياة ليلى التي ليس لها ناقةٌ أو جمل في هذه القصة؟ لماذا يحكم عليها بأبشع تعذيبٍ يلاحقها حتّى نهاية الحياة؟...

ولؤي الذي يُراقب ترنُّح سفينة حياتنا منذ أيام؟ (ليس ثمّة شقاء أسوأ من شقاء أبٍ يسترقُ أصداء طفلٍ يبكي طوال الليل، بلا توقّف، ليلةً بعد ليلة!)...

ثمّ كيف لهذا الوغدِ أن يهتكَ عرض أروى وعرضي، ويستبيحَ حميميّتنا بهذه الدناءة! كيف سأبرّرُ ذلك لأروى؟ بأي حقٍّ يقرأ كلماتها وكلماتي لصٌّ سافل؟...

لن تستطيعوا أن تتخيّلوا، مهما شرحتُ لكم، كيف تدمّرتْ حياتُنا العائلية منذ أسبوعين، ليلى وأنا، بسبب صديقٍ قديم استضفناهُ بودّ، لم نفكّر لحظةً واحدة أنه قرصانٌ بلا ضمير، مجرمٌ قاتل!...

لكن، إلهي، لماذا اخترتَ في لوحكَ المحفوظ هذا القدر اللعين لِليلى؟ ما ذنبُ ملاكٍ نقيٍّ طاهر تفانى في عشقهِ وعطائه ثلاثين عاماً كما لم يتفان

إنسان؟ لماذا أردتَ لها أن تصطليَ بِأبشعِ تعذيبٍ يوميّ هي التي لم تقترفْ غير الحبِّ والإسعادِ والوفاء؟...

باسل يتحدّث: عربون العشق

بعد ثرثرتي الطويلة في مقهى فندق الميريديان، بادرَتْ أروى بالحديث عن نفسها. استهلّتْ ذلك بأهم معاناتها: منيف!...

قالت: "لعلّك تعرفُ شيئاً عن مأساة حياتي الزوجيّة!"... سردَتْ بكلماتٍ جرانيتيةٍ أليمة لعنةَ حياتها الزوجيّة التي عرفتُ بعض ملامحها من شوقي قبل ذلك... فصّلتْ بدقّةٍ وتركيز وألمٍ غائر كلّ ما تعانيه يوميّاً من تنكيدِ وخنقِ "بعْلِها الشيطاني"، معالي الوزير منيف!...

طرحتُ سؤالاً يتلوّى في طرف لساني: – لماذا لا تتركينهُ، أنتِ، بكلِّ قوّة شخصيتكِ ورغبتكِ في التحرّر من القيود؟...

– الموضوع أصعب مما تتصوّر! حاولتُ ذلك مراراً. يمتلك منيف أوراقاً ضاغطةً كثيرة لن يتراجع عن استخدامها، أهمها أخي رضوان (يعرف كم هو نقطة ضعفي). يشتغل رضوان في وزارته، ويسكن في بيتنا الزوجي!...

قال لي منيف أكثر من مرّة، وبالحرف الواحد، إن مجرّد محاولة انفصالي عنه يعني الضرر بحياة رضوان!...

في آخر مرّة حاولتُ الانفصال حدثَ اعتداءٌ إجراميٌّ على سيارة رضوان، كان لحسنِ الحظِّ خارجها! أراد منيف حينها، وإن أنكَرَ ذلك، أن يبعث إليّ إشارةً ودرساً لن أنساه!...

تبلّلتْ مآقيها! لم تستطعْ حبسَ دمعتين صغيرتين، قبل أن تستأنف بصوتٍ متحشرجٍ سقط على رأسي كشلّال دوشٍ مثلّجٍ يخز العظام: – وصلتُ إلى هذه النتيجة: منيف قدَرِي البغيض! ثمّة من يولدُ بِعاهةٍ جسديّة لا يتحرّر منها إلا بِالموت! لن أتحرّرَ من منيف إلا إذا مات أحَدُنا!... هذا هو قضائي وقدَري!...

ثمّ تأوّهتْ بِحُرقة: – آه، إلهي من سيحرّرني منه؟!...

عباراتٌ تراجيديةٌ، صريحةٌ، عمودية! انكسارٌ يدمي القلب!... رأيتُ فيها رسالةً مشفّرةً أكيدة أيضاً، نداءً واضحاً لي: ألا يلزمني، كمَهْرٍ لأروى، كعربون عشق، أن أكون قابضَ روحِ بعلِها الشيطاني، أن "أحرِّرها منه"؟...

تقترحُ أروى أن نغادرَ المقهى لنتجوّلَ قليلاً في أنحاء بيكاديلي، قبل أن نتناولَ العشاء في حيّ سوهو...

عزمَتني للعشاء!... يا للروعة، أتقدّمُ في علاقتي بها بخطواتٍ عملاقة!...

عند خروجنا رمقتُ رجُلاً حادّ القسمات يتّجِهُ نحو أروى حال رؤيتها، مثل كلبِ صيدٍ يطاردُ طائراً جريحاً!... يحزرُني بِقلقٍ وريبةٍ وتربُّص!...

كانت قد أشعرَتْني قبل قليل ونحن نُغادرُ "مقهى الشرفة" بأن سورِيّاً وصلَ من دمشق يحمل لها هديّةً صغيرة، ينتظرها الآن عند باب الفندق!... سألتُها: "كيف عرفتِ ذلك؟". ردَّت: "تلقيتُ تليفوناً منه هذا الصباح، وإس إم إس ونحن في المقهى... رددتُ عليه حينها أمامك!"...

تُعرِّفُنا أروى ببعض: "باسل!"، "عُمَر!"... يوجِّهُ عُمَر إليّ أسئلةً كثيرةً غيرَ أنيقة: "أين تسكن؟ ماذا تنوي عملهُ بعد قليل؟ متى وصلتَ ومتى ستغادرُ

لندن؟...“، كما لو كان ضابط استخبارات!...
كان مُتشنِّجاً، منزعجاً لِرؤيتي، يبدو عليه الامتعاض والخيبة!... منظرُهُ وهو يُجبرُ نفسَهُ على الابتسامةِ لي غيرُ طبيعيٍّ، مريعٌ قليلاً!... أقلقَ أروى أيضاً!... دعتْهُ إلى مرافقتنا إذا أحبّ!... اعتذرَ (لأني موجودٌ بالتأكيد!)، قائلاً إنه يُفضِّلُ الاتصالَ لاحقاً!...
لم يكن صعباً إدراكُ أنه مُعذَّبٌ ممحونٌ حتى النخاع، غارقٌ بِغرامِ أروى! (أعانهُ الله!)...
المُرْعِبُ أنه انتحاريٌّ مستعدٌّ للقتال من أجلِ الاختلاء بها (أعانني الله!)... فتحَتْ أروى الحقيبةَ الأنيقة التي قدَّمها لها: هدايا ثمينة، ورسائل غرامية لم ينقصْهُ إلا كتابتَها بدمِ القلب!...
سألتُها حالما ترَكَنا: ”من هذا؟“ أو ”ما هذا؟“ (لا أدري ما قلتُ!)... أجابتْ: – لم أره إلا نصف ساعةٍ، قبل شهرين، في محطةِ قطار اليوروستار الذي يربط باريس بلندن. تحدَّثنا قليلاً حينها. كنتُ في انتظار صديقةٍ قادمةٍ من باريس، وهو في انتظار زميلِ عمل... فقدَ توازنَهُ بعد لقائنا كما يبدو!... أيقنَ، كما لو أتاه الوحي، أن صُدفةَ لقائنا في المحطّة لم تكن عبثيّة، بل إشارةً إلهية، موعداً اختارتْهُ الأقدارُ السماوية لِتعريفِهِ إلى امرأة حياتهِ التي قضّى عمرَهُ يبحثُ عنها!...
توقّفتْ قليلاً، ثمّ أردفتْ بنظراتٍ حائرةٍ ماكرةٍ عابثة: – لا أدري لماذا يقولون جميعاً نفس العبارة: إني امرأتهم القدَريّة التي قضّوا أعمارهم بحثاً عنها!... أرجو أن لا أسمعها منك أنتَ أيضاً!...
(ابتسمتُ باقتضاب!... كان بُودِّي أن أنفجرَ ضحكاً بدل ذلك وأقول لها ما أرغمتُ نفسي على بلعِهِ بصعوبة: لن تسمعي غيرها! لأن كلَّ الآلهةِ قرَّرَتْها معاً، من آلهةِ الإغريق إلى ربِّ السماوات والأرض!)...
واصلَتْ: ”أقسمَ عمُر إنه سيحقِّقُ الوعدَ الإلهيَ مهما كان الثمن!... لم يتوقَّفْ من يومها بإغراقي بالإس إم إسات والمكالمات الهاتفية التي لا أردُّ عليها!... هو كارثةٌ بمعنى الكلمة: يتَّصلُ أحياناً من لندن أو دمشق بغُرفتي، آخر الليل! يرنُّ التليفونُ عشرات الدقائق بلا توقُّف! ثمّة أنّاتُ مجنونٍ هائج في نهاية الخط لا يُهمُّهُ إلا التذكيرُ بوجوده!... هو إسْفِلتٌ حقيقي!“...
إسْفِلتٌ بالفعل!... كنتُ أراهُ حيثما توجَّهْنا، طوال الأيام التي بقيتُ فيها مع أروى، مختفياً في الأركانِ، يُراقبني كذئب بأعين عدائية!...
ما كان يزعجني شخصيّاً هو أنه أحمر العينين، مُستعدٌّ في كلِّ لحظة لإثارة النقع، للقتال!...
لا تمرُّ ساعةٌ من دون أن يبعثَ إشارةً مُزعجةً تُذكِّرُ بحضوره، أو إس إم إس عنيدةً تُثيرُ استغراب أروى: تلاحظُ عند قراءتها أن عاشقَها الفدائي واثقٌ تماماً من أن ثمَّة موعداً ربّانيّاً ستتقاطع فيهِ حياتاهما، وأن كلَّ شيءٍ يسيرُ لا محالة في اتجاهِ الموعدِ المُقدّس!...

قالت: "يقلبُ بعناد قراءةَ كل ردودي الرافضة، أو عدم ردودي، أو طلبي الماسّ بتوقُّفِ رسائلهِ فوراً!... يعتبرُ ردودي السلبيّة هذه خطوةً طبيعيةً، في طريقنا المشترك، نحو لحظة الميعاد الإلهي!"...

تساءلتُ بصمت: "أيمكنُ هذا الوحش المسعور أن يكون كذلك إن لم تُشعلْ أروى، هي نفسها، فتيلَ عشقِهِ في لحظاتٍ ما بِشراراتٍ صغيرة؟"...

واصلنا السير في الشوارع الكبرى المحيطة بپيكاديلي باتجاه أزقّةِ سوهو!... أروى تردُّ بالتليفون على شخصٍ ما: – قلتُ لكَ أكثر من مرّة: أرجوك، لا داعي للمجيء من مصر لتوديعي!...

استغلَلْتُ انهماكها في المكالمة لأبعثَ أخيراً إلى صديقي شوقي الإس إم إس الشيطانية التي خطرت ببالي قبل قليل، والتي لم أقدِّر حينها أهميّتها وخطورتها وتداعياتها: "رأيتُ أوسان في روما! ممحونٌ جدّاً! بينه وبين وزوجة منيف التي حدّثتني عنها عشقٌ حامي الوطيس!... عرفتُ منه أن لها عشقاً آخر موازياً عمرُهُ ثلاثة عقود! أتعرفُ من هو؟"...

انتهتِ المكالمةُ بسرعةٍ مفاجئة!... سألتُها: "ما هذا، لو سمحتِ؟"...

– كاتبٌ مِصريٌّ يتجاوزني بأكثر من ثلاثين عاماً، تعرّفتُ إليه في مطعم ترانزيت بِدُبيّ، قبل أشهر!... تناولنا الغداء ثمّ شربنا الشاي معاً... قال لي إن حياتَهُ تغيَّرتْ رأساً على عقب بعد ذلك اللقاء! يُدينُ لي بأني أعدتُهُ من الموتِ إلى الحياة، كما يقول!...

حدَّثني، مثلك، كثيراً عن نفسه! بعضُ ما قالَهُ كان مشوّقاً، والبعضُ الآخر ادعاءٌ جسيم!... حدَّثني مثلاً عن كُتُبِهِ "التي تُرجِمتْ للفرنسية والإنكليزية وتُدرَّس في السوربون وأكسفورد!"...

لا يتابع تطوّرات التكنولوجيا كما يبدو: يجهل أنه يكفي البحثُ على الإنترنت في مواقع الكتب لإدراك أن ما قاله هراءٌ يثير السخريّة!...

لم يتوقّف بعدها من بعث الإيميلات الغرامية المفعمة بالاستيهامات والرغبة!... لا أردُّ عليها إن لم أرمِ بها للزبالة مباشرة قبل قراءتها!... شيخٌ يناهز الخامسة والسبعين، يُحاولُ في غَزَلِه أن يبدو في سنِّ المراهقة!... غزلٌ يُثِيرُ الطّرش!...

أصرَّ على المجيء من مصر لِتوديعي قبل مغادرةِ لندن، رغم رَفضي لذلك!... وصلَ مطارَ لندن يُجرجِرُ رُكبتَيه بِصعوبةٍ قبل لحظات، استيهاماتُهُ أثقل من كَعبَيْه. اتصل الآن من هناك!...

هو مجذوبٌ انتحاريٌّ أيضاً، في الهزيعِ الأخير من العُمر هذه المرّة!...

تساءلتُ من جديد بصمت: "أيمكنُ هذا المجذوب الانتحاريّ أن يكون كذلك إن لم تُشعلْ، هي نفسَها، فتيل عشقِهِ في لحظاتٍ ما بِشراراتٍ صغيرة؟"...

مسكينٌ جدّاً أوسان الذي تطحنهُ الآن "حرب الهدنة"!... لا يدري أين أرواه الآن وماذا تعمل!... لو عرف أن ثمة من يعتبرونها مصنعاً للاستيهامات لَزمجرَ غضباً وصَرخَ صرخةً طرزانيّةً ترتعدُ لها جبال الألب!... يعتقدُ أن أرواه لا تُفكِّر إلا

فيه، تبوحُ لهُ كلّ حدثٍ في حياتها كما يبوحُ لها دوماَ، تتفاعلُ معه في السراء والضراء كما يفعل... فيما هي تترنَّحُ الآن في أزقّةٍ مليصة لا يعرفُ عنها "المعتصم بالله" شيئاً!...

لعلّها، من يدري؟، تسخرُ منه في أعماقِها قليلاً وهي تعيشُ هذه القصص. لعلها تغوي هؤلاء لتدميره لا غير، وإلا فكيف لهم أن يلتصقوا بها إلى هذا الحدّ إذا كانت قد قالت لهم يوماً بجلاء: لا؟... لاءً نقيّةً مُربَّعة!...

لو يدري طلّاعُ الثنايا وفارسُها المغوار ما يحدثُ لأرواه الآن، لامتطى حصانَهُ واستلَّ سيفَهُ للقتالِ من أجلِها!...

بدأتُ أخافُ، أنا أيضاً، على أروى من كلِّ الانتحاريين! لا سيّما أنها لا تجرؤ أو بالأحرى لا تريدُ أن تقول لأحد: "لا يوجد مليمترٌ مربعٌ فارغٌ في قلبي"!... تجعلُهم، بوعيٍ أو بلا وعي، برغبة إغواءٍ كبيرةٍ أو صغيرة، يعيشون على الوهم، يحترقون ببطءٍ حتى الموت!...

أتخشى دعكَهم إذا قالت لهم ذلك؟ أم هي ساديّةٌ إلى حدٍّ ما، تتلذّذُ بأشواقهم ومعاناتهم وإثارتهم؟ أتريد قتلهم بكلِّ بساطة؟ أم لعلّها تتسلّى فقط بمعرفة أساليبهم وبلاغتهم وتجاربهم الفريدة؟...

أيُهِمُّها بشكلٍ عضويٍّ شاذ الشعورُ بأنَّ الجميعَ غارقٌ في الإعجابِ والهيامِ والاهتمامِ بها؟...

أتحتاجُ، كلَّ ليلةٍ قبل النوم، إلى أن تفردَ مسبحةً ضخمةً أمام عينيها، تعدُّ وتعدُّ وتعدُّ، كلَّ حبَّةٍ فيها شهيدٌ مات بِعشقها؟...

أو أن ذلك جزءٌ من موسيقى الكونِ وطبيعة الأشياء لأن "العالَمَ مِلكٌ للمرأة، أي مِلكٌ للموت"؟...

أفهمُهم أيضاً: أيُّ إنسانٍ قضّى الساعتين اللتين عشتُهما مع أروى لا يمكنهُ إلا أن يقعَ بغرامِها حتماً، لا سيّما أنها لن تقول له في أيّة لحظة إنها عاشقةٌ حتى الثمالة! عشقاً مركّباً فريداً جدّاً!...

(حالتي خاصةٌ جدّاً: أعرفُ أنّها عاشقةٌ معشوقةٌ حدّ التخمة، وسقطتُ عشقاً بها مع ذلك، قبل رؤيتها أيضاً! وسأقاتلُ فعلاً أكثر من كلِّ انتحاريّ حسن الصباح، "شيخ الجَبَل"، وأسامة بن لادن، "شيخ القاعدة"، للوصولِ إليها!)...

أعترفُ بأني لو عشتُ مع أروى، أنا المُلقَّحُ ضد فيروسات الشكِّ والغيرة، لاحتجتُ مع ذلك إلى "حرسٍ رئاسيٍّ خاص" يحميها من المجذوبين بعشقِها بمختلف أنواعهم وأعمارِهم!... لأن الجميعَ يعشقُها من أوّل نظرة؛ لأن "كلَّ من أحبّها تحوَّل مجنوناً، وكلَّ من لم تُحب فَقَد عقلَه!"، كما أحبُّ أن أكرِّر...

ثمّة نساءٌ أيُّ رجلٍ يلتقي بهنّ لا يمكنه إلا عشقهن. جبروتُ الرغبةِ بهن يمنحهنّ سلطةً طاغية! انظروا: المجذوبُ عمر، الكهلُ الذي وصل من مصر يحمل استيهامات أثقل من كاهلِه، أوسان المحتقن المضطرم الهالك في زنزانة "الهدنة"، عاشقها ومعشوقها النخاعيّ وسرّ أسرارها المجهول حتّى الآن، أنا، شوقي ربما، منيف بلا شك، الاحتياطيّون خارج ملعب أروى، وقطيعٌ

آخر من العُشّاق لا أعرفه، نتقاتلُ جميعنا بصمت، في نفس اللحظة، من أجل نفس هذه الأروى التي تمتلكُنا جميعاً، تُدمِّرُنا جميعاً، تُهلكُنا جميعاً، تُحِبُّنا وتحتقرنا جميعاً (من يدري؟)!...

أراقبُ تليفوني بين الحين والحين بانتظار ردٍّ شوقي على إس إم إسي الشيطانية! لا رد!...

أشعرُ بسعادةٍ خاصة وأنا أعبر مع أروى ساحة لايْسِسْتر (في شرق بيكاديلي وشمال ساحة ترافلجر)! أُحبّ هذه الساحة المترعة بالسينمات والمطاعم والحانات والمراقص، لا سيّما في المساء! صَخَبُها متميّزٌ، رعشاتها لذيذةٌ جدّاً...

حَيَّيْنا على الطريق تِمْثَالَي شكسبير وشارلي شابلن! ثمّ توقّفنا أمام سينما أمباير، الإمبراطورية، ذات الـ ١٣٣٠ مقعداً!... حكيتُ لأروى بحميمية ذكريات كثيرة حدثتْ لي أمام هذه السينما، في هذا الشارع الذي أحبّه بشكلٍ خاص!...

أراقب أروى وهي تصغي إليّ بإعجابٍ وابتسامةٍ فاتنة وعينين لامعتين (تحبُّ الحميميّة في الحديث، الذكريات القويّة...). خامرتني رغبةٌ عنيفةٌ بتقبيلها على إيقاع أنغام ابتسامتِها القاتلة، في هذا الموقع الرومانسي بالذات! في هذه اللحظة!... يستحيلُ ذلك الآن!...

كبتُّ رغبتي! دعوتُها غداً، ١١ أبريل، إلى هذه السينما الميثولوجية، لِمشاهدةِ فيلم الويستيرن: "مصرع جيس جيمس على يد روبرت فورد". الممثل الشهير براد بِيت يؤدي فيه دور الأسطوري الخارج عن القانون: جيس جيمس!...

وافقَتْ!... أقتربُ من النّصر: أشعرُ بأني أتقدّمُ فعلاً في علاقتي بها بسرعة النّسر!...

ها أنذا أحطّ للتو في كوكب أروى! سأكتشفُ يوماً بعد يوم أنها فتاةٌ لا تُعَدّ! هيَ (بِكلِّ شخصيَّتِها المُتعدِّدةِ الأبعاد، بِجمالها وذكائها المرموقين، بطاقاتها الشاسعة المتوقّدةِ اللانهائية، بتنوُّعِ تجاربها العشقيّة وجذورِها التعدُّدية، بِحيَلِها العبقرية الخفيّة ومكرِها الأريب الذي لم يلحظهما أوسان، بأنانيّتها وإعجابها النرجسيّ بنفسها الذي يغضُّ أوسان الطرف عنهما، برغباتها المتوازيةِ المتنوِّعةِ الملتهبة، بِثراءِ شبكةِ علاقاتها الاجتماعية المذهلة، بقراراتها المفاجئة الحاسمة، بموسيقاها الداخلية التي أجزمُ بأني ألتقطُ إيقاعاتها أكثرَ من أوسان نفسه!...) هيلين الإلياذة التي قامت حرب طروادة من أجلها!...

أروى هي: بينولوبُ وهيلينُ معاً!... أين سأجدُ أكثر من ذلك؟... أيقنتُ أيضاً أنها أرفع من مقام أوسان. من نوعٍ أرقى. تتجاوزُ مداه من دون أن يعرفَ ذلك!...

خِفتُها أيضاً: ثمّة قوّةٌ فريدةٌ في جوانحِها لا يمكنُ أن يحتويها أحد، بمن فيهم أنا، "المسْتر" باسل، أو "باسلوف" كما يُسمّيني أصدقائي الروس!...

اقترحَتْ أن ندخل الآن مطعماً تحبُّهُ كثيراً في سوهو!: "تقليدٌ أمارسُهُ بِشكلٍ دينيّ: لم يزرني أحدٌ للندن من دون أن أدعوه إليه!"...

قعدَتْ تواجهُني، ثم التفتتْ إلى شاشة تليفونها الذي حطّت عليه إس إم إس جديدة.

تسمَّرَتْ فوق مقعدها!...

وضعتْ رأسها بين راحتَي يديها لتبكي بصمت وغزارة!... ثمّ قالت بعد نهدةٍ عميقة، وهي تحاول كبح تشنُّجٍ مفاجئ، عابرةً محيّاي بنظرات لومٍ قلقةٍ هاربةٍ قاسيةٍ يائسة: – يا للمصيبة!... الله يَستُر!... الإس إم إس التي بعثْتَها إلى شوقي مشكلةٌ عويصةٌ جدّاً لم أحسُبْ لها حساباً. كأنَّ المشاكل تنقُصني!...

أم الجن!... ثمّة مشكلةٌ كبيرة، كما يبدو!... تسمَّرتُ مثلها: – كيف عرفتِ أني بعثتُهُ له؟، سألتُها باستغرابٍ شديد وحيرةٍ مفاجئة!...

نظراتها تشردُ بعيداً من جديد، لِتستقرَّ في الأعماق المظلمة من روحي!...

السارد يتحدث: حوريّة البحر

لِيسمح لي القارئ، أنا سارد هذه الرواية، بأن أكتب هذا الفصلَ الأشبهَ باستراحة محارب.

لن أُرهقَه بالحديث عن نفسي بالطبع، كما عاهدتُهُ بذلك. لا يوجدُ في حياتي ما يستحق السَّرد، في كلِّ الأحوال، بالمقارنة بحيوات فدائيي أروى الأفذاذ الأجلاء!...

أوَدّ فقط أن أتفاعل قليلاً هنا مع فقرة باسل عن "مجاذيب" أروى و"مرعوشيها" التي أدهشتْني، وأرهبَتْني حقاً: "ثمّة نساءٌ أيُّ رجلٍ يلتقي بهنّ لا يمكنه إلا عشقهن. جبروتُ الرغبةِ بهنّ يمنحهنّ سلطةً طاغية! انظروا: المجذوبُ عمر، الكهلُ الذي وصل من مصر يحمل استيهامات أثقل من كاهلِه، أوسان المضطرم المحتقن الهالك في زنزانة "الهدنة"، عاشقُها ومعشوقها النخاعيّ وسرّ أسرارها المجهولُ حتّى الآن، أنا، شوقي ربما، منيف بلا شك، الاحتياطيّون خارج ملعب أروى، وقطيعٌ آخر من العُشّاق لا أعرفه، نتقاتلُ جميعنا بصمت، في نفس اللحظة، من أجل نفس هذه الأروى التي تمتلكُنا جميعاً، تُدمِّرُنا جميعاً، تُهلكُنا جميعاً، تُحبُّنا وتحتقرنا جميعاً (من يدري؟)!...".

تذكّرتُ هذه الفقرة بشدّة، ذات يوم كنتُ فيه في ندوةٍ في علوم الأنثروبولوجيا في كوبنهاغن، في منتصف ديسمبر ٢٠٠٧.

كنتُ آنذاك في أوّل أيام معتركِ غربلةِ ودمجِ وتلحيمِ فصولِ نزفِ هذه الرواية ودوخاتِها. كانت قد وصلتني للتوّ حينها نصوصُ الفدائيين، لكني لم أكن قد سافرتُ بعدُ إلى اليمن لِتسليمِ طرد شوقي لأروى...

توجّهتُ خلال الندوة، ذات مساء، لِتناول العشاء مع زملاء في مطعمٍ يقع على كورنيش يواجهُ مرفأ سفنٍ وقوارب، في المركز العصبيّ لعاصمة مملكة الدنمارك.

يلتصقُ بِواجهةِ المطعم، فوق الباب، تمثالٌ ذهبيٌّ مُهيب بطول مترين، لامرأةٍ عاريةٍ مذهلة الجمال والرشاقة: حوريّة البحر، تضطجع أفقيّاً باتجاه الكورنيش، كأنها ستنطُّ إلى النهر!...

اسم المطعم بالدنماركية Havfruen. اسمٌ على مسمّى: حوريّة البحر...

جدران دَوْرَي المطعم وسلالمِه مشحونةٌ بِصور لوحاتٍ من كل أرجاء الدنيا، تتمحور جميعها حول هذه الأسطورة الضاربة القدم في ثقافة الإنسان!...

بهتَني تنوّعُ هذه الصور وروعتها، أنا الذي تثيرني منذ أمد هذه الأسطورة بكل صيَغها السوميرية والهوميروسية والإسكندنافية، وعددٍ آخر لا محدود من الصِّيَغ التي تصبّ جميعها في نفس الحوض: مقدرةُ المرأة على الإغواء والاستدراج والفتك، أي "إن كيدهنّ عظيم": هي من تجذب البحارة بغنائها وموسيقاها، تعزف الناي في هذه الأسطورة، وتغني في تلك... تغويهم دوماً، قبل أن تُغيِّر مجرى حياتهم أو تفتك بهم!...

لعل رمز حورية البحر ذكوريٌّ فاحش، متطرِّفٌ في تشنيعهِ بالمرأة. لا أعرف...

لعله يُكثِّفُ فعلاً حقيقةً تجريبيةً صمّاء، أردنا أو لم نرد. لا أدري... لا أريد إدلاء رأيٍ شخصيٍّ بذلك...

أتذكّر: انهمكَ زملائي في المطعم بالتهام مأدبة الأطباق البحريّة الاسكندنافية العامرة، فيما انهمكتُ بمأدبةٍ رُوحيّةٍ أخرى: كنت أغادرُ الطاولة بين كل لقمتين تقريباً لأهيم وأتمعّن بهذه اللوحات المتنوعة التي ترسم حورية البحر بصيغٍ عديدةٍ مختلفة، وأستحضرُ في نفس الوقت فقرة باسل!...

كلّ اللوحات تقريباً تنويعاتٌ تُبرهِنُ نفس الأسطورة: جسدُ الحورية الكاميريائي (الذي تنتهي رجلاه أحياناً بذيل سمك) خالصُ الجمالِ والرشاقةِ والجاذبيّة، يخلبُ اللب. على بشرتهِ اللميسة النقية البيضاء تتوزّعُ نقوشٌ فنيّةٌ ملوّنة، تسحرُ العين...

تتنوّعُ أشكال كل لوحة ومواضيعها: الحورية تُقرفصُ عاريةً فوق صخرةٍ بَحْرِيّة في هذه اللوحة، على الشاطئ في ثانية، أو في أعماق المياه في لوحات تنتمي إلى ميثولوجيات أخرى... لكنها دوماً لانهائيةُ الحسنِ والرشاقة، على بشرتِها اللميسة البيضاء تشكيلاتٌ فسيفسائيةٌ من النقوش الساحرة الملوّنةِ التي تأسرُ النظر، وكأن ذلك قانونٌ بيولوجي: لا حورية بحر بلا نقوشٍ ساحرةٍ على جسدٍ ساحر!...

دُختُ وأنا أحدّقُ طويلاً في لوحةِ جون ويليام واترهاوس: "حورية البحر". خطر ببالي أن أروى تُشبِه هذه الحورية ذات الجمال الفتّاكِ والجسدِ القاتل...

أعترف: لو كان لي أن أختار صورةً لِغلاف هذه الرواية فلن أختار في أغلب الظنِّ إلا لوحة واترهاوس!...

تساءلتُ كثيراً وأنا أستعيدُ عبارة باسل حول "مجاذيب" أروى و"مرعوشيها": هل أروى تجسيدٌ لِحوريّة البحر، غاويةٌ مثلها؟... نعم؟ لا؟ لِمَ لا؟ لمَ نعم؟...

حدّقتُ طويلاً في لوحة جرابر هيربرت جيمس: "أولِيس وحوريات البحر"... تذكّرتُ باسل من جديد وهوسَهُ بِشخصية أُوْليس، بطل الأوديسة...

تنقّلتُ بين عشرات اللوحات الإسكندنافية المختلفة، المنتمية إلى ثقافات تُمثِّلُ فيها حورية البحر تيمةً فنيّةً شديدةَ الحضور والخصوبة...

بدا لي: إذا كان لكل تلك الحوريات اسمٌ إنسانيٌّ يُناسبهنَّ تماماً، فهو في رأيي هذا الاسم المائي الخالد: أروى!...

زاد شوقي لِمعرفة أروى ورؤيتها، والرغبةِ في التوجّهِ إلى اليمن (الذي سأسافر إليه في إجازة رأس السنة كعادتي، بعد أسبوع) لِتسليمها طرد شوقي بلا تأخير.

رغم ولعي بالميثولوجيا والأساطير، ومعرفتي، كأنثروبولوجي، بِدورها في تكوين جذور ثقافة الإنسان (الذكوريّة غالباً) ومداميكها، لا أميلُ إلى مفهوم

حوريّة البحر وعبارة "إن كيدهنّ عظيم"، ذوَي المدلولَين الذكوريّين المتطرفين جداً في تنكيلهما بالمرأة...

أميلُ إلى العبارة التي كرّرها باسل أكثر من مرّة: "الحياة ملكٌ للمرأة، أي ملكٌ للموت".

يبدو موقعُ المرأة فيها (بدءاً بالأمِّ منذ الحمل والطفولة، وانتهاءً بالمعشوقة إذا كانت بمقام أروى) مُعمَّداً في جينات الطبيعة الإنسانية، مطبوعاً كميسم في سيرورة الحياة البشرية: الحياة ملكُها، أي ملكٌ للموت، لا أكثر أو أقل!... أما من عاش بلا معشوقةٍ كأروى، فهو لم يعرفِ الحياة أساساً!...

استحضرتُ فقرة باسل من دون توقُّف. بدتْ لي الأكثر جذريّةٍ في كلِّ فصول نصوص الفدائيين الثلاثة. الأكثر حيوانيّة. الأنقى شهادةً وكشفاً لجذور طبيعتنا الإنسانية!...

ألا يشبهُ كلُّ مجاذيب فقرة باسل حيواناتٍ ذكوريّةً ضارية تقف فوق أكمات، في وسطها أنثى، على وشك القتال حتّى الموت لأجل الظفر بها!...

لا تتقاتل حيوانات أي نوعٍ بيولوجي، عندما تتقاتل، إلا من أجل الإناث، كما يبدو. لذلك هي أقلّ وحشيّةً وهمجيّة من الإنسان، أرقى وأكثر إنسانية منه هو الذي يميل إلى قضاء حياته يُدمِّرُ نوعَهُ البيولوجي، ليس من أجل الأنثى فقط، وإن كان ذلك دَيدَنهُ الرئيس وشُغلَهُ الشاغل منذ الأزل!...

ثمّة بعدٌ حيوانيٌّ نقيٌّ جدّاً في فقرة باسل: لا أعرف من يستطيعُ أن يُضرِمَ العداء بين شقيقَين أو صديقَين، يُحبُّ كلٌّ منهما الآخر في السراء والضراء حدّ الفداء بالروح، غير فتاةٍ تسرقُ قلبيهما في نفس الوقت؟

يعودان فجأة إلى طبيعتهما الأولى، حيوانَين (كقابيل وهابيل، أو كأبطال رواياتٍ وقصصٍ وأساطير لا تُعد) يراقبُ كلٌّ منهما الآخر من علياء أكمته، يتناحران بشراسة، قبل أن تتفجّر بينهما حربٌ أهليّة!...

تساءلتُ كثيراً أيضاً وأنا أقلِّب فقرة باسل في كلِّ الاتجاهات: أيمكنُ أن لا تتكرّرَ بألفِ صيغةٍ وصيغةٍ أخرى، وإلى أبد الآبدين، هذه الرواية (حتى وإن كُتِبتْ "برؤوس الإبر، على مآقي النظر، لتكون عبرةً لمن اعتبر") لسببٍ بسيط: "الحياة ملكٌ للمرأة، أي ملكٌ للموت" قانونُ جاذبيةِ "الطبيعة الإنسانية"؟...

أوسان يتحدّث: المصالح العليا لليمَن!

عرفتُ من نوغدين (يوم اكتشافي جريمةَ سرقةِ باسل لمراسلاتي التي بعثَها إلى ليلى) أن باسلَ لم يطعنّي في الظهر فقط، لكنه طعنَ منيفَ بين الخصيتين أيضاً!...

أحضرَ باسلُ لِنوغدين كثيراً من الحليب وعصير الطماطمِ والتّمر، بعدما عاد من لندن، وعسلاً دوعنيّاً [1] تركتْهُ أروى له قبل سفرهِا المفاجئ من لندن إلى صنعاء! لم تكن بالطبع هدايا إنكليزيةَ الهويّة، لكنها أسعدَتْ نوغدين أيّما إسعاد...

[1] العسل الدوعَني: نوعٌ ثمينٌ وراقٍ جدّاً من العسل، يُنتَجُ في وادي دَوْعَن بحضرموت.

استغربَ نوغدين عندما رأى باسل حزيناً بعد عودتهِ، منفعلاً، مقهوراً، تغيبُ نظراته سريعاً في العدم!...

شرح لي ذلك نوغدين، رفيق سهراتي الذي أصبح يُكِنُّ لي حبّاً حقيقياً عميقاً، مثلما أكنُّ له، والذي أتحدّثُ معه الآن بِشفافيّةٍ وإسهاب، في شقّةِ باسل...

لن تتصوّروا أبداً مدى إخلاص وحميميّة بوحِ حديثِ اثنين مثلنا يعرفان أنهما يقتربان من الموت بخطوات حثيثة! يتحدّثان كما لو كانا في شرفة مقهىً في الآخرة!...

في نبراتهما حنينٌ إلى الحياة الدنيوية وحسراتٌ عليها، بالتأكيد! لكنّها قبل هذا وذاك نبراتٌ تتوهّجُ نقاءً وصدقاً، لا تكترثُ بأي اعتبارٍ أو قيدٍ أو حاجز: الثرثرةُ على حافةِ الموت حُريّةٌ مُطلَقة!...

أفضى باسلُ إلى نوغدين، بعد عودتِه من لندن، بأنه يحبُّ بِشكلٍ لا حدّ له امرأةً تُكثِّفُ كلَّ ما كان يبحث عنه منذ عقود ولم يجده، وأنه يريد أن يتزوّجها ويقضي كل عمرهِ القادمِ لها ومعها لا غير!...

أضاف: حدّثتُها عنك، وأنك مثل ابني البيولوجي!... قلتُ لها: ستسكنُ معنا متى أردت، حتى شِفاك، وبعد ذلك بالطبع! ستكونُ ثالثَنا، ابننا غير البيولوجي!... سُعِدتْ بذلك، من فرطِ حميميةِ حديثي عنك!...

(لم يتحدّث في الحقيقة باسلُ لأروى عن نوغدين. لم يذكر لها حتى اسمه!... سأعرفُ ذلك غداً، ١ نوفمبر ٢٠٠٧، يوم أغرب مفاجأةٍ كنتُ أتوقّع حدوثها في الوجود، بعد مفاجأة عودةِ المسيح عليه السلام بالطبع، قبل يوم القيامة، لقتل المسيح الدجّال!...).

سأل نوغدينُ باسل: – يلزمك أن تكونَ سعيداً بمشروعِ زواجك إذن. لكن لا يبدو عليك ذلك! ما المشكلة؟...

– أروى متزوِّجة!...

– آآآه!...

– لكنها تريدُ الطلاقَ من زوجِها!

– ما المشكلة إذن؟

– هو لا يريد! هو وزيرٌ أمنيٌّ في صنعاء، يمتلكُ سلطةً قامعةً هائلة!... الأسوأ: يحاصرُ كرهينة أخاها رضوان الذي تحبُّه أروى كثيراً جدّاً!...

شرحَ باسلُ لِنوغدين أيضاً دناءةَ الوزير منيف، جرائمَهُ السياسية ضدّ المعارضين للنظام، زجَّهم بالسجن وتعذيبهم... سردَ له أشهرَ قصص فسادهِ الماليّ والسياسيّ والجنسي!...

كان نوغدين، في الحقيقة، قد سمع مرة أو مرتين صديقاً لِباسل، مسؤولاً في شركة طيران، جاء للعشاء والسهرة في بيت باسل، يتحدّثُ عن علاقةٍ إباحيّةٍ بين ذلك الوزير ومضيفةٍ من المغرب العربي تعملُ في تلك الشركة!... يتذكّرُ نوغدينُ أنه كان قربهما ذات يوم عندما سأل باسلٌ صديقَه: – لماذا أنت متكدِّرٌ عبوسٌ قمطريرٌ الآن؟...

– ها أنذا أخرج للتوّ من حوار ساخن مع مضيفةٍ مَغربيّة من الطاقم الجديد! لم تأتِ لِعمَلِها أمس! سألتُها لماذا لم تصل في موعد إقلاع الطائرة... قالت: "تأخّرتُ في صنعاء!"...

حاولتُ تهديدَها بالمحاسبة والحسم. أرَتْني معصمَها المحشوَّ بأساور من الذهب! قالت: "هل تعرف من أهداني ذلك؟"... قلتُ: "لا"! قالت: "وزيرك منيف!"...

ثمّ أضافتْ: "كنتُ قبل البارحة في المساء أمتطيهِ وهو يطوف الغرفة عارياً كحمار، قابعاً على رجليه ويديه... أركلهُ وأصرخُ فوقه لِيُسرِع!... هذا هو وضعهُ المفضّل الذي يصلُ به إلى أقصى اللذة! يتوقّفُ بين الحين والحين لأركلَهُ بقوّةٍ من جديد، يعشقُ ركلي عشقاً!...

لو كرّرتَ تهديدك لي فسأتصل به حالاً كما طلبَ مني!"...

أدرك نوغدين أن باسل يحبُّ أروى كما لم يحب أبداً امرأةً ما، وأن كلَّ ما يقوله يترجمُ أدقَّ أحاسيسِه العميقة!... تأثّر نوغدين جدّاً! حُبُّهُ غير محدود لأبيهِ الروحيّ. يشعرُ بأنه يحيا حالياً، بشكلٍ أو بآخر، من نعمةِ معاشرة هذا الأب، ودفءِ اهتمامِه وحُبِّه!...

حزّ في نفسه عمقُ ألمِ باسل، تغيّرُ صوتِه، أشواقُه العارمة لأروى التي ارتبط اسمُها في دماغ نوغدين بالعسل الدوعني! يعتقدُ نوغدين، بشكلٍ أو بآخر، أنه يقاوم مرَضهُ بنجاحٍ ملحوظ بفضل "عمَّتِهِ" أروى، بفضلِ عسلِها الدوعني!...

لم يُطِقْ نوغدين أيضاً هذا الظلمَ والقمعَ لأروى، هو الذي لم يجد من المرأةِ (والمرأةِ وحدها) منذ طفولته إلا الوفاءَ والعطاءَ والعشق!... تفاعلَ هكذا نوغدين مع باسل بشدّة، شاركَهُ أسَاه، من دون أن يدري ما يستطيعُ عملَه لمساعدتِه!...

سأل نوغدينُ باسل: – ماذا قالت أروى عن إمكانية زواجكما؟

– قالت بالحرف الواحد: عملتُ المستحيل للانفصال عن منيف، لم أستطع! يستخدمُ لِمنعِ ذلك أفظعَ الضغوطات وأجبنَها: حياة أخي رضوان!... أخي رهينتُه!... أعرف لِذلك أنه لا أمل لي بالانفصالِ عن منيف إلا عندِ وفاتِه!...

فكّر نوغدين مليّاً قبل أن يسأل: – وأنتَ؟... أتتمنى وفاتَه أنتَ أيضاً؟
– أتمنى وفاته حالاً!... يستحقُّ الموت بالتأكيد، وأكثر! ألم يقل الله عزّ وجل: "النفس بالنفس، والإيمان قصاصٌ يا أولي الألباب"؟ (يخترعُ باسل آياته القرآنية متى وكيف يريد)...
سينقِذُ موتُه جيشاً من المظلومين والمعذّبين في اليمن! سينقذُ أمَلِي في الحياة، أروى، وأخاها رضوان!... سينقذني من العذاب أيضاً!..
لا أعرف شيئاً في علومِ الحسابِ والعقابِ الإلهية، لكن كلُّ ما أثقُ به هو أن قاتلَ منيف سيدخلُ الجنّة (إذا كانت ثمّة جنّة بالطبع)!...
ثمّ اتصل باسل، بعد يومين من عودته من لندن، بصديقهِ الذي يعمل في شركة الطيران، تاركاً صوتَ التليفون مسموعاً بالميكروفون لنوغدين! سألَهُ:
– كيف تطوَّرَتْ مشاكلك مع المضيفةِ، "قحبةِ" الوزير منيف؟
– اتصلَتْ بي هذا الصباح من فندق بولمان الذي يَنزلُ به طاقم المضيفين لرحلة الطيران. طلبَتْ إجازةً مفاجئةً عاجلةً لمدة أسبوعين، فيما يلزم أن تكون ضمن طاقم مضيفيّ رحلة الغد، وليست سائحةً في تلك الرحلة!
سألتُها: "لماذا؟" ردّت: "سأسافرُ بدعوةٍ خاصةٍ عاجلةٍ جدّاً من الوزير!".
دعوةٌ عاجلة جدّاً من الوزير منيف؟...
لعلّك تعرفُ ماذا تعني المهمات العاجلة جدّاً لِمعالي الوزير منيف!...
آه، المصالح العليا جدّاً لليمن!...
يستأنفُ صديق باسل، مسؤول شركة الطيران: – شخصياً، لم أعد أكترث بذلك، ولا أريد حشر نفسي بمشاكل مع الوزير، ولا أرغب حتّى بالسخرية من دعواته العاجلة لها كي تمتطيه كحمار وتضربه بالسوط!... لكن المشكلة التي تواجهني هي أنها عند ركوبها الطائرة كسائحة (في الدرجة الأولى، تخرج منها بسيارةٍ خاصة تنقلها من باب الطائرة إلى إحدى فيلّات الوزير مباشرة) ترتدي ثياب عاهرة تحت معطفِها!...
مشكلتي: المضيّفة لا تحترمُ أدنى حساسيةٍ لِلركاب المحافظين جدّاً غالباً: حال خلعِها لِمعطفها في الطائرة تثيرُ امتعاضَ كثيرٍ من الركاب وتقزُّزَهم، لا سيّما بعض النساء والرجال المُتديّنين الذين يصدمهم منظرُها كثيراً: نصفُ ردفِها عارٍ يتخلله "سترِنْغ" مفضوحٌ بطريقةٍ إباحيةٍ كاشفة، جليّةٍ جداً، أمام عيون راكبي الطائرة الذين لم يرَ بعضُهم أمام عينيهِ ساعداً نسائيّاً عارياً طوال حياته، أو ممن يُمكنهُ أن يسقط مغمىً عليه إذا رأى أمامه إبطاً أبيض!... من دون الحديث هنا عن بقية منظرِها العام، وروائحِها المُسرِفة، وتصرّفاتها العاهرة أثناء الرحلة!...
عندما قلتُ لها آخر مرة إن هذه الهيئة والملابس تصدم مزاج وحساسيات بعض ركاب الطائرة، الذين اشتكوا من ذلك رسميّاً، ردَّتْ بأنّ سعادةَ الوزير منيف ("الوزير الدنجوان"، كما صار يُسمّى في الأوساط النتنة القريبة منه في اليمن، وفي نطاقٍ يمنيٍّ واسع أيضاً) هو من يطلب منها ذلك!...

"يُهَيِّجُهُ" أن تبدأَ إجازتها معه ابتداءً من لحظة ركوب الطائرة، وليس بعد وصولِها إلى اليمن!... يُصرُّ على أن تَبعث له صورها الخليعة بالإم إم إس، وهي جالسةٌ في الطائرة، قبل الإقلاع!...

ردّ باسل لصديقه: – لعلّهُ يبدأُ "حَبْيَهُ" على يديه ورجليه كالكلب، من تلك اللحظة تحديداً، بانتظار أنِ تأتي مومسته لامتطائهِ وضربهِ بالسوط!...

آه، المهمات العاجلة جدّاً لخدمة مصالح اليمن العليا!...

التفتَ باسلُ لِنوغدين (الذي كان يُصغِي إلى كل ذلك باهتمام وتركيز، بِغَيظٍ وسَخَطٍ جليّين) قائلاً: – لو كنتُ في موقعك، عزيزي نوغدين، فلن أتأخر دقيقةً واحدةً عن "نيك" المضيفة العاهرة من أجلِ إنهاء حياة هذا الوزير المجرم أولاً، ومن أجلِ إنهاء حياة هذه العاهرة التي تمتهنُ العادات والتقاليد الدينية للركاب الطيبين ثانياً، ومن أجل زواجِنا أروى وأنا ثالثاً!...

ثلاثة عصافير بحَجَر واحد!

كافرَان، منيف والمضيفة، سترسلهما، عزيزي نوغدين، حطباً لِجهنم بِنيْكةٍ واحدة!... سيكون لك ضعفُ حسنات شهيدٍ انتحاريٍّ في نفس الوقت!...

لم يضحك نوغدين كعادتهِ عند سماع هذه الانزياحات المجنونة التي لا يجيد اختراعها إلا باسل. ليس لأن نوغدين لم يعد يمتلك مزاجاً حقيقيّاً للضحك منذ إصابتهِ بالإيدز، أو لأنه لم يعدْ يميلُ إلى هذا النوع من الفكاهة السوداء، لكن لأنه كان يفكِّرُ بصمت، باستغراقٍ وتركيزٍ لم يعتد باسل رؤيتَهما!...

(يا لهُ من زنديقٍ مُدّعٍ، باسل!... قال: "من أجل زواجنا، أروى وأنا"!... لم تنعتْهُ أروى مع ذلك بأكثر من "صديقٍ عزيز"، كما سأعرف ذلك غداً الأول من نوفمبر!)...

كان نوغدين في ركن الغرفة يُفكِّر بِصمت، قبل أن يتَّجِهَ إلى الحمّام ويخرجَ منه، بعد أكثر من نصف ساعة، محلوقَ اللحية، مغتسلاً بعنايةٍ خاصة، ممشّطَ الشَّعرِ بأناقةٍ متميّزة، معطّراً بشكلٍ ملحوظ، يلبسُ طاقماً أنيقاً رسميّاً نقلَهُ مباشرةً من هيئة بن لادن إلى هيئة ريتشارد جير!...

بدا أكثر شباباً من عمره الحقيقي، جميلاً مُغرياً كما لم يكنهُ يوماً!...

شعر باسل بأن ترسيماتٍ ما تتشكّلُ، كما يهوى، في دماغ نوغدين!...

من يدري، سيُنفِّذُ نوغدين، من دون أوامر، ما تُراودُ باسل من خططٍ وأحلام!...

القائد الحقيقي هو ذلك الذي يجعلكَ، مثل باسل (ومثل أروى أيضاً)، تُنفّذُ ما يريده من دون أوامر: تعتقدُ أنك تبادر لتنفيذ شيءٍ ما بمحض إرادتك، فيما أنت غيرُ قادرٍ على الرفض، ممغنطٌ تماماً...

ثمّ تأكّد باسلٌ أن نوغدينَ "جوكرُ الجواكر وأسُّ الأسّات" عندما وجّهَ هذا السؤال الذي لا يوجِّهه إلا من لهُ عقليّة مهندس: – ألا تخشى أن ينتقلَ مرضي إلى أروى بعد منيف؟ ولك أيضاً بعد زواجكما؟، سأل نوغدين أباه!...

– لا تخف! هذه مسؤوليتي الشخصية. صدّقني: لا ولن توجد بعد اليوم علاقة جسديّة بين منيف وزوجته!...

– أو أن يصلَ مرضي إلى آخرين بعد منيف؟

– ....

ثمّة خللٌ جذريٌّ في الدماغ البشري!

لا أعرف كيمياء الدماغ في اللحظة التي تنفجرُ فيها ومضة جنونٍ وحشيٍّ تقود إلى الرغبة في القتل والإبادة، لكنني أعتقد أنها ومضةٌ يتحوّل فيها الدِّماغ إلى عجينٍ من وحلٍ ودم!

يخرجُ حينها من أحد أقبية الدِّماغ ثعبانٌ نائم. لحظةٌ تُكثِّفُ كلَّ خرائب تاريخ الإنسان البيولوجي والاجتماعي، منذ سبعةِ ملايين سنة!...

باسل يتحدّث:

الوزير منيف، أم من يسجنُ الرّيح؟

قبل أن أواصل الحديث عن وجبة العشاء مع أروى في مطعم حيّ سوهو، التي بدأتْ بأزمةٍ مفاجئةٍ وبكاءٍ كثيف، يلزمني أن أقدّمَ صديقنا الغالي منيف وأجلي جذور شخصيّته منذ طفولته!...

جمعَتْنا بمنيف (الذي حطّ ذات يوم في نفس صفِّنا، أوسان، شوقي، وأنا، في المدرسة الابتدائية بِعدَن، بعد الإغلاق المؤقت لِمدرستهِ بسبب الترميم) ذكرياتٌ وصراعات حادّة كثيرة، غير سعيدة جدّاً في الغالب، دامت عاماً كاملاً، تناسيتُها بعد ذلك، لِتعود بقوّة إلى السطح هذه الأيام!...

خاض منيف طوال العام حرباً نفسيّةً ضد أوسان. حاولَ التصادمَ معه ليرهِبَهُ ويُزعزعه!... خسر باستمرار، لأنه كان في أعين صفِّنا: الغريبَ، المعتديَ أيضاً!... كنّا جميعاً في الصفّ (باستثناء شوقي الذي كان محايداً) حلفاءَ أوسان ذلك العام، أكثر من أي وقتٍ مضى!...

كان منيف وسيماً بما فيه الكفاية! كان أيضاً أبيضَ بشكلٍ غير اعتيادي، أشقرَ الشعر أيضاً، فاقعَ الاحمرار أثناء الخجل أو الغضب، ما جعل بعض طلاب الصف يطلقون عليه طوال العام ألقاباً أغاظتهُ كثيراً ونبذتهُ أكثر فأكثر خارج السرب. بعضهم سمّاهُ بشكلٍ بذيء "مؤخرة القرد"، أو بعباراتٍ دارجةٍ غير أنيقة: "طِيز الرَّبْح"، والبعض الآخر بشكلٍ أكثر تطرّفاً في قذارته: "زنوة نصراني"...

تعود إلى ذاكرتي فجأةً الآن قصةٌ، رمزيّة جدّاً، حدثت بين أوسان ومنيف أثناء توزيع الشهادات في نهاية العام الذي وصل فيه منيف إلى صفِّنا في المدرسة الابتدائية:

بعد أن وزَّع مُربّي الصف شهادة أوسان كأوّل الطلاب، ومنيف كأَوّلٍ مُكرَّرٍ أيضاً (قبل مجيء منيف إلى صفِّنا، كان ترتيبي الثاني بعد أوسان على الدوام!)

رفع أوسان أصبعهُ يستأذن الحديث، لِيقول بهدوء إنه مستغربٌ جداً من ذلك:

– ثمّة خطأٌ في الترتيب يا أستاذ: أزيد عليه بـ ٥ درجات من ١٠٠ في الرياضيات، و٤ في اللغة العربية، و٢ في التاريخ!... درجاتنا متساوية في بقيّةِ المواد!...

ارتبكَ مُربِّي الصف!... فحص العلامات في الكشوفات الأصلية التي وصلتْهُ ليجدَ أن ما قالهُ أوسان كان صحيحاً!... أوقف توزيع النتائج! رمق منيفَ بِنظرةِ لومٍ وتأنيبٍ سريعة لم ندرك مُبرِّرها، قبل أن يعيد صياغة بعض الشهادات المدرسية وترتيب سلسلة الأولوية في الصف، ليكون أوسان الأول، منيف الثاني، وأنا الثالث...

اضطرمَ وجهُ منيف احمراراً! ثقبَ أوسانَ بنظراتٍ جريحةٍ داميةٍ حاقدة أتذكَّرُها كما لو كان ذلك قبل دقائق!... وجومٌ عمَّ الصف، همسٌ ولمز، همهماتُ ضحكاتٍ تسخرُ هنا وهناك من "طيز الرَّبح" وهو يتجهّمُ ويقمطرُ ويكفهرُّ، في أوجِ احمرارِهِ واشتعالِ غضبه!...

لم أدرك سرّ ما حصل إلا بعد أن شرح لي شوقي ذلك في التليفون ذات يوم! كان حينها الوحيدَ الذي يتعاطف مع منيف، يدافعُ عنه ولا يخذله، وسط صفٍّ أضمر له العداء... قال لي شوقي في أحد اتصالاتي الهاتفية الخميسية المثابرة:

– قبيل إعداد مربّي الصف للشهادات بأيام، اقترح منيف مساعدَتَهُ في جمعِ العلامات وتجهيزِ الشهادات! وافق أستاذُنا الذي كان معجباً بتفاعلات منيف ومبادراته وحُسنِ خَطِّه! أراد أيضاً إعطاءَهُ قيمةً أكبر وإنصافَهُ قليلاً في صفِّنا الذي أكنَّ وأجهرَ لهُ كثيراً من المماحكات والعداء طوال العام...

أراد أستاذنا الكسول بالتأكيد أيضاً أن يتخلّصَ، بفضل مبادرة منيف، من عذاب "جمع العلامات" الذي يعتبره نوعاً من الأشغال الشاقة!...

سألتُ شوقي:

– لماذا زوّر منيفُ جمع العلامات إذن؟...

– أنت لا تعرف والدَه!... السبب: خوفُهُ من والده الذي هدّدهُ (صدِّق أو لا تُصدِّق!) بالقتل إذا جاء الثاني بالترتيب المدرسي هذا العام، لا سيّما أنه أدرك مسبقاً أنه سيكون كذلك! (كان دوماً أوّل الصفّ قبل مجيئه إلى مدرستنا!)... لذلك لجأ منيفٌ المسكينُ إلى تزويرِ جمعِ العلامات ليكون الأولَ مكرّراً، خوفاً من غضبِ والدِهِ وعقابِهِ لا غير! لذلك أيضاً خاض طوال العام حرباً نفسيّةً ضد أوسان!...

منيف رائعٌ طيّبٌ موهوبٌ في الأساس، لكنهُ غير محظوظ في ذلك الجوِّ الأسريّ الإرهابي!...

لا أدري لماذا أستحضرُ من أقاصي الذاكرة هذه الحكايةَ القديمةَ التي لم أُعِرْها اهتماماً حقيقياً يومذاك، مستعيداً تفسير شوقي لها! كنتُ حينها كمن ينظرُ من رأس الجبل إلى ذئبين (أوسان ومنيف) يتصارعان أسفل الوادي!...

أعادت إليّ هذه الحكاية ذكريات توزيع النتائج المدرسية: كنتُ حينها مثل شوقي الذي لا تُهِمُّه هذه الخزعبلات: جاء ترتيبه الثاني والعشرين في الصف! كان سعيداً بذلك، مثلما لو كان أوّلَ الصف، أو آخرَه أيضاً!...

شوقي صديقٌ مخلصٌ لمنيف، لم يخذلْهُ يوماً حتى في سنة صراعاته التعيسة مع أوسان في المدرسة الابتدائية، ومعي بالضرورة كصديقٍ لأوسان!... يزوره منيفٌ كلما "نزل" في إجازةٍ من صنعاء لِعدَن، يتّصلُ به، يبوحُ لهُ (ولهُ وحده) بكلِّ ما في خاطره!...

سألتُ شوقي بالتليفون بضع مرات خلال ٤٠ سنة:

– ما أخبار منيف؟...

اختلفتْ ردود شوقي في الثمانينيات عنها في التسعينيات، عنها في هذا العقد الأول من القرن الجديد!... في الثمانينيات من القرن المنصرم قال لي:

– إذا كان هناك إنسانٌ واحدٌ سعيدٌ حقّاً، في مدينةٍ كئيبةٍ كصنعاء، فهو منيف! وصلها في بداية الثمانينيات. كان مبتهجاً أوّلاً بِبُعدِه عن عدَن لأنه لم يعد يسمع الألقابَ التي طالما لاحقَتْه وأغاظتْه: "زنوة نصراني"، "طيز الرّبح"... ابتعد أيضاً عن مناطق هيمنةِ والدِهِ وضغطِه... صار أخيراً طليقاً كالهواء، مُستقِلاً كما يهوى!...

درَّس مادة "التربية الوطنية" في إحدى مدارس صنعاء الثانوية للبنات!... معظم طالباته من بنات صنعاء أو الجبال المجاورة. يَعِشنَ في الغالب في أُسَرٍ تمارسُ بصرامة عادات وتقاليد آتيةً من عصورٍ سحيقة، لا يعرفن الشارعَ الذي يسكنَّ فيه، لا يغادرن المنزل (حتى يوم الزواج) إلا للمدرسة فقط إذا لم تُحرَّمْ عليهنّ غالباً... تحيطهنّ شراشف وعباءات صمّاء مظلمة، لا يتحدَّثن مع رجلٍ إلا إذا كان أباً أو أخاً، يُمارِسْنَ الرقابة والقمع الذاتيين على تفكيرهنَّ ونظراتهنَّ وأحاديثهنَّ ولمسهنَّ لِأجسادهنَّ ورؤيتهنَّ للوجود!...

يَخشينَ الرجلَ بشكلٍ غريزي، وإن كُنَّ رهيفات الحسّ، حدَّ الجنون، لِغزَلِهِ ونظراتِهِ المعجبة!... بعضُهُنّ، لا سيّما بنات الجبال والقرى النائية، جميلاتُ الطلعة ممشوقاتُ الجسد، حورياتٌ فاتناتٌ أحياناً، رقيقاتٌ جدّاً، ذوات طاقاتٍ ومَلَكاتٍ مذهلة!...

خمسٌ من أجملِ بنات المدرسة وأذكاهنّ وأروعهنّ، وأكثرهنّ حساسيةً ورهافةً وذوقاً وغنجاً، وقعْنَ في حبِّ منيف بِشكلٍ لن تُصدِّق ضراوتَهُ ومداه!... الأسباب كثيرة: تميّزَ منيفُ العدنيّ أوّلاً بتشجيعهِ للفتيات على القراءة والتحصيل والنقاش وامتلاك مشروعٍ شخصيّ...

جذبهنَّ أيضاً بإصرارهِ وحُبِّهِ للحوار معهن والتفاعلِ المهذَّبِ الراقي... ناقشهنَّ كثيراً من منظورٍ مدنيّ حول الثقافة والعادات والتقاليد، حثَّهنّ على القراءة وَدَخَل معهنّ في جَدَلٍ حول ما قرأنه، فتح معهنّ دردشات ممتعةً أو مضحكةً لا تُنسى أحياناً!...

لم يتوقف بعناد عن طلب آرائهن في كلِّ شيء، وتعليمهنّ أن يكنّ ندّاتٍ له في النقاش... سلوكٌ رجوليٌّ فوق–طبيعيّ، لم تخطر ببالهنّ يوماً فرضيَّةُ حصولهِ في مكانٍ أو عصرٍ ما!...

خلَقَ منهنّ فتياتٍ أخريات! علمهنَّ حبَّ "العلم" و"العمل"! (سألهنّ ذات يوم: أصدْفةٌ أن تكون هاتان الكلمتان مركبتين من نفس الأحرف الثلاثة: "ع"، "ل"، "م"؟)... علَّمهنَّ الحُلم!... الحلمَ بالحياة في ضفاف بحر عدَن، بعيداً عن مقبرة صنعاء، في أحضان منيف وحده لا شريك له!...

ردَّدنَ بخشوع، في محرابِ هذا الحلم، مليونَ مرّة في اليوم: "آمين، يا ربّ العالَمين!"...

يستأنف شوقي:

– كان منيف في أعينهنّ إنساناً آتياً من كوكب آخر، لا سيّما أن للعدنيِّ في أعين بنات صنعاء موقعاً مُتميِّزاً! اعلمْ، عزيزي باسل، أن لأذواق الصنعانيات مراتب ومقامات: يُفضِّلنَ مثلاً أولادَ مدينة تَعِز ومناطقها المجاورة (لِرِقَّتهم وثقافتهم وانفتاحهم وعذوبة الحوار معهم) على كثيرٍ من الصنعانيين. أقصد اللامدَنيِّين منهم، ذوي اللغة الجلفة عادةً، والثقافة المنغلقة الخشنة الصارمة غالباً، لا سيّما من يَميل منهم إلى الرقابة اليومية على حركات المرأة وسكناتها، والإصرار على خضوعها الدائم!...

غير أن إعجابهنَّ وحبهنَّ لأولاد عدَن لا حدَّ له! تجذبهنّ بشكل لا نظير له مَدَنيَّةُ هؤلاء وكياستُهم، روحُهم البحريّةُ المنفتحة الرقيقة، حسنُ تعاملهم مع المرأة، نزوعُهم اليومي الدائم إلى الفكاهة والضحك، وثقافتُهم التي تعتجنُ فيها تقاليدُ راقية اكتُسِبتْ، منذ أيّام عصر الإنكليز، من المناخات الكوسموبوليتية العدنيّة القديمة، أو من سبعينيات عدَن وشعاراتها التقدّمية والإنسانية الكبرى...

ناهيك عن أن منيف كان وسيماً ورقيقاً جدّاً، جذّاباً، دونجواناً، يُحبُّ النساءَ والغزلَ بِشكلٍ غريزيّ، ويعتبر الكذب في الحب مُبرَّراً أيضاً!... يمدَحُ جمالَ عيني هذه، وابتسامة تلك... تُسكرهنَّ عذوبةُ هذا المدح الذي لم يراودهنّ حتّى كأُمْنِية! هنّ خجولات بالفطرة، يَذُبْنَ أمام أصغر تلميحٍ غزليٍّ رقيق غير مباشر، فما بالك، عزيزي باسل، بكلمات غرامية مِهَنيَّة من العيار الثقيل تنبثق من ثغرِ شابٍّ أبيض وسيمٍ جدّاً، أشقر الشعر أيضاً، آتٍ فعلاً من كوكبٍ آخر، "نظراتُهُ أسهمٌ تثقبُ القلبَ" حسب تعبير إحداهنّ!...

كبرنَ وكبر عشقهنَّ له، وتنافُسهنّ الخفيّ عليه... كلُّ واحدةٍ منهنّ تشكُّ بصمت من حُبِّ الأخرى له، تجهلُ تفاصيل ذلك الحب، تَغِيرُ منها حدّ الموت، تزدادُ رغبةً في جذبِ منيف لها وحدها! حربٌ خفيّةٌ تُذكي في نفسِها رغبةً بتتويجهِ ملِكاً يتربّعُ على عرشِ أحلامها، هي وحدها لا غير!...

ما يُذكي عشقهنّ بضراوةٍ مُمَنْهَجة هو منيف نفسه عندما يزيل آلام كلِّ واحدة بكلمةٍ تطفحُ بالحبِّ والقُبَل، تنتظرها المعشوقة بشوقٍ من جمر، تُحوِّلُ حياةَ صنعاء في عينيها برداً وسلاما!...

هو يعرف مشاعرهنّ وأحلامهنّ ومعاناتهنّ وتطلعاتهنّ أكثر من أيّ إنسان! هنّ "خبز يديهِ والعجين"، كما يقول المثل الشعبي!... يعرف كيف يُذكي اللوعة فيهنّ ويُشعلُ الرغبة! يختار لذلك أفضل الكلمات التي تدقُّ عموديّاً في الصميم، تُؤجِّجُ الحلم، تنسجمُ مع نفسيَّةِ كل واحدةٍ حسب إيقاعها الخاص، تدغدغُ عواطفها، تُهيِّجها بوحشيّة... يستخدمُ معها سلاحَ الغَيرة بدهاء، يتلذَّذُ بِسخريَةٍ في أعماقه من أوبرا هذه القصص المتداخلة "المحشبكة"!...

نضجَتْ الشابات الخمس ووصلن سنّ الزواج! يستحيل الارتباط بمنيف لأنه تزوّج!...

– بمن تزوّج؟، سألتُ شوقي بعجلة!...

- لم يتزوّج إحداهنّ بالطبع! له في الزواج نظريةٌ تختلف عن نظريته في العشق!... مع ذلك، يعود لهنّ الفضل، إذا جاز القول، باختيار زوجته!...
- لم أفهم!، أجبتُ...
- في نظرية منيف: الفتاة التي طعمتْ الغَزَل قبل الزواج لا تصلح للزواج! لأنها ستخوضُ بعدهُ، بالضرورة، مغازلات أسوأ وأفحش!... قبولُها للغزل قبل الزواج لعنةٌ أبديّة، دليلٌ على معدنٍ فاسد!... معشوقاتهُ الخمس لا يصلحن للزواج به بسبب هذه النظرية الراقية!...

الزواج شيءٌ في ذهنية منيف، والعشق شيءٌ آخر!...

الأكثر حقارة ربما: عندما بدأ يفكِّرُ بالزواج سأل معشوقاته الخمس، من باب النقاش المتفتِّح الذي عوّدهنّ عليه، عن آرائهن بصديقاتهنّ ومعارفهن!... لاحظ أن جميعهن تحدّثن بإعجاب شديد، كلّاً على حدة بالطبع، عن فتاةٍ شديدةِ الجمال، متعدِّدةِ المواهب، ملهَمةٍ حقّاً، تدرُسُ الكيمياءَ في جامعة صنعاء، اسمها أروى!...

تمكّن منيف من أن يُوصِّلَ لها، عبر بعض طالبات صفِّه، كلاماً جميلاً وسمعةً مُغرِيةً حسنةً عنه، قبل أن يتقدّم لأبويها بطلب زواجها، حسب التقاليد المحليّة، دون أن يكون قد قابلها قبل ذلك!...

التقى منيف بأروى "رأساً برأس"، عشر دقائق فقط قبل الزواج، بمرأى عائلتها! تحدَّثتْ خلال اللقاء عن شروطها غير القابلة للنقاش أثناء حياتهما المشتركة: مواصلة التعليم والدورات الجامعية في اليمن أو خارج اليمن، حالما تريد، دون أي منعٍ لذلك!...

وافق بالطبع! ثمَّ أعلن شروطه: الالتزام بالعادات والتقاليد والدين والشرف والحجاب (من يشتري قطّةً داخل كيس؟ من يسجنُ الريح؟...)... وافقتْ أروى على الزواج، ووافق والداها بعد ذلك!...

منذ أوّلِ يومٍ لزواجِها، وصلتْ أروى لِنتيجةٍ تصيبُ العمودَ الفقري بالشَّلل: أدركتْ أنه يستحيلُ أن تُحبَّ منيف ذات يوم! زواجُها به خطأُ حياتِها الأول والأخير!... قرّرتْ أن تلجأ إلى منع الحمل وأن لا تُنجبَ منه أبداً!...

- كيف عرفتَ ذلك، هل تعرفُها؟...

أزعج سؤالي هذا شوقي كثيراً. لعلّه تسرّع وقال ما لم يود قولَه!... ردّ مرتبكاً:
- يبدو ذلك منطقيّاً واضحاً عند رؤيتهما. أفسّرُ بطريقتي ما يحكيه لي منيفُ بإسهابٍ عن علاقتهما!...

ثمّ هرب نحو الإجابة عن الشقّ الآخر من السؤال:
- أروى من مواليد جِبْلَة (في اليمن، حيث عاشت الملكة أروى أيضاً في القرن الحادي عشر) من أبٍ وأمٍّ ريفيين لطيفينِ، تخرّجا من مدرسة الحياة. مُحافظَين جدّاً ومنفتِحَيْنِ قليلاً في نفس الوقت!...

لها أخٌ يكبُرُها بِـ ٣ سنوات: رضوان...

وصلَتْ من جِبلة إلى صنعاء في العاشرة من العمر لِتعيشَ ظروفاً خانقة في عاصمةٍ منغلقةٍ قاتلةٍ أصيلة. سافرتْ بعد ذلك إلى مدينة تَعِز، بسبب انتقال عملِ والدِها إليها، حيث درست آخر سنتين في المدرسة الإعداديّة وبداية الثانوية. ثمّ عادت مع والدَيها ورضوان إلى صنعاء... كانت تدرسُ الكيمياء في جامعة صنعاء عندما تزوَّجَها منيف...

ليس ذلك ما صبوتُ إلى معرفته! لا أبحث عن سيرةٍ رسميّةٍ تُسرَدُ في أغلفة الكتب. أبحث عن وصفٍ جِراحيٍّ مليمتريٍّ أكثر كشفاً وحميمية!... لم أجِده! يهربُ شوقي من الحديث عن أروى بشراسة! يُقطِّرُ الحديثَ عنها تقطيراً في أفضل الأحوال!... أشعرُ بِتوتُّرِهِ لمجرَّدِ ذِكرها. يُغيّرُ موضوع الحديث بفظاظةٍ واضحة إذا حاولتُ جرَّهُ إليه...

سألتُ شوقي ذات يومٍ في أواخر التسعينيات:

– هل زُرتَ منيف في منزلهِ في صنعاء؟

– مرّةً واحدة فقط في بدايات التسعينيات، بعد الوحدة اليمنيّة مباشرة! كانت أوّل زيارةٍ لي لصنعاء!... صُدِمتُ عندما دخلتُ منزله الفاره ورأيت زوجته (سمح لي بذلك لِدقائق قليلة، بفضل بقايا تقاليد تربيةٍ عدنيّة مدنيّة لم يتجرأ بعدُ حينها على التنكّر لها كليّةً)! تصوّرْ: لم يذكر لي اسمها قبل ذلك اليوم، وكأنّ ذلك عَورة!...

كنتُ قد رأيتُها شخصيّاً قبل ذلك، بالمصادفة، في تعز في بداية الثمانينيات، عندما كنتُ هناك في مهمّةٍ أدبية نظَّمها "اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين"!...

قاطعتهُ بعجلةٍ واستغراب:

– حدِّثني كيف رأيتَها في تعز!...

– لا أذكر تماماً!...

صمتٌ طويل!... ثمّ واصل شوقي:

– يكفي أن أقولَ لك كلمتين: جيناتُها منقوعةٌ بِعشقِ النورِ والحريّة والحياةِ الإنسانيةِ الرقيقةِ الثريّةِ بعلاقاتها وسعادتها! أروى امرأةٌ لا نظيرَ لها في كلِّ شيء! كلوروفيلُ حياةٍ من تهبُهُ قلبَها! يكفي أن تَمُرَّ أطراف أصابعِه على ساعدها لِيَصلَ إلى الجنّة!... لن أضيفَ أكثر بعد الآن!...

جوابٌ شاعريٌّ جدّاً ربما، لكنهُ "مُخيّطٌ بِصميل" (مُخيّطٌ بِعصا)، أو: décousu، كما يقول الفرنسيّون!

إذ كيف له أن لا يستذكرَ كيف رأى هذه الفتاة التي يُموضِعُها مع ذلك في السماء السابعة؟... ثمّة خللٌ في إجابته، إهانةٌ لذكائي!...

أعرفُ مع ذلك أنه يسكنُ عدَن (في جنوب اليمن حينها) ولم يزر صنعاء (في شمال اليمن حينها) لأوّل مرّة إلا في بدء التسعينيات فقط (بعد الوحدة)!... لم ير أروى إذن إلا في بداياتِ الثمانينيات في تعِز بالمصادفة، كما يقول! ولم يعد يتذكّر ذلك، كما يقول أيضاً!...

– حسناً!... أخبرني على الأقل كِيف وجدتَ منيف يوم زرتهما؟، سألته!...

– لم أعرفه يومذاك، كان منيفاً آخر!... قصرُهُ فارِهٌ جدّاً في حيّ حدّة بصنعاء! لم يعد حينها مُدرِّساً في الثانوية؛ لأن دخلَ المُدرِّس لا يسمن أو يغني من جوع! صار آنذاك مسؤولاً كبيراً في الحزب الحاكم، له ارتباطات أخافتني بكبار مسؤولي الأمن!... نظَّر كثيراً لاجتياح جنوب اليمن ونهبِهِ في ١٩٩٤!... كتب عدداً من المقالات التافهة في صحف السلطة، شعرتُ بالتقزّز حين قرأتُها!...

– عفواً، لا يُهمُّني ذلك، أقصدُ كيف كان يعيش حياته العائلية مع أروى؟...

– بشكلٍ كارثي! يُعذِّبُها يوميّاً، ولا يمكنها الخلاص منه. أحكمَ خناقَها بكل الوسائل!... يحتاجُها كثيراً لأنّ سُمْعَتَها الطيّبة جوازُه أمام العالم: من له زوجةٌ مثلها لا يمكنه أن يكون رديئاً. مدحُ الآخرين لشخصيَّتِها مدحٌ له، بالضرورة، بشكلٍ أو بآخر!... لذلك، على الأقل، لن يُفرِّط بها يوماً!...

عندما وصلتُ إلى منزلهما في بدايات التسعينيات، مرَّتْ أروى للسلام عليّ والحديث معنا بضعةَ دقائق فقط (حسب أوامر منيف)!... كانت صدمةً لي أن أكتشفَ أنها زوجة منيف، لأني كما قلتُ لك رأيتُها قبلِ ذلك في تعز!... لم يلاحظ منيفُ ذلك، ولم تُظهِرْهُ له، وإن كنّا مصدومَين معاً من مفاجأة لقائنا بعد سنين!...

الأكثر إذهالاً: خلال الدقائق التي بقيتْ أروى معنا، كان منيفُ يتصفّح جريدةً، ويتمتم في نفس الوقت بأغنية محمد عبد الوهاب: "لا، لا، لا تكذبي! إني رأيتكما معاً!" وهو يحدج بنظراته بين اللحظة واللحظة أعينَ أروى!...

ثمّ استطرد شوقي:

– شعرتُ بقشعريرةٍ في نخاعي الشوكي! خفتُ أنهُ يقصُدُنا! كنتُ أرتجفُ هلعاً من شيءٍ ما لا أستطيع أن أشرحه لك!...

غير أن هدوء أروى، وهو يغني مقطع أغنية محمد عبد الوهاب، طمأنني وأراحني!...

أثارتني عبارة شوقي: "شعرتُ بقشعريرةٍ في نخاعي الشوكي! خفتُ أنهُ يقصُدُنا!" التي لا يمكنهُ استخدامها إلا لِسببٍ جسيم!...

ماذا يخفي عنّي شوقي؟ كيف له أن يخاف من شكوك منيف، هو الذي زار صنعاء حينها لِأوّل مرة؟...

واصل شوقي:

– سألتُ منيف بعد أن غادرتنا أروى، وبعد أن استعدتُ أنفاسي، لماذا كان يغني تلك الأغنية ويحزر أعينَ زوجتِهِ بِرِيبةٍ ما؟... قال لي إنَّهُ يمارس هذه الطريقة (المستندة إلى تجارب علم النفس، حسب رأيه!) على الدوام وبشكلٍ آلي! يسمح له ذلك، إذا رمق ربشةً في ملامح المرأة التي تسمعُ هذا المقطعَ أثناء وجودِ رجُلٍ آخر، باكتشاف أن لها علاقةً خفيّةً بذلك الرَّجُل أو أنها تنوي العلاقة به مستقبلاً!... أضاف منيف: "لا أشكّ فيكما بالطبع؛ لأنكما تتقابلان لِأوّل مرّة، لكني، كما قلتُ لك، أمارس هذا الامتحان السيكولوجي بشكل آلي لِاستشرافِ وفضح أيّةِ نيّةٍ خفيّة!"...

هذا هو، عزيزيَ باسل، منيفُ التسعينيات: دماغٌ متعفِّنٌ أكلَهُ الليل! فوبيا الريبةِ والمؤامرات طاغيةٌ عليه، تدمِّرهُ وتخرِّب حياةَ محيطِه! صار تجسيداً نموذجيّاً لبيتِ المتنبي:

إذا ساء فعلُ المرء ساءتْ ظنونهُ
وصدَّق ما يعتادهُ بالتوهّمِ!

كفاني ذلك لِأُدرِكَ فداحةَ كارثةِ حياةِ أروى معه!... لم أرجعْ بعد ذلك اليوم لزيارتهِ في منزلهِ مرّةً أخرى، لكنه ظلّ يزورني كلما جاء لعدَن في إجازة!... ظلَّ يفضفض لي بيوميّاتهِ وحياتهِ الشخصيّة، يفضي إليّ بما لا يُفضيهِ إلى أحد!... ظلّ أيضاً يمدحُ بِفخرٍ ماكر زوجتَهُ أروى: عفافَها، سمعتَها، شخصيّتَها!...

– يمدحُها حقّاً؟

– يمدحُها دوماً عند الآخرين!... لا يريدُ بذلك في الحقيقة إلا مدحَ نفسِهِ لا غير، لأنه زوجُها، ربُّ بيتِها، سيِّدُها... لكنه في المنزلِ لا يتوقّف عن كيل الشتائم لها، والتشكيك والسبّ والتصغير والتحقير!... كلّما واصلتْ دراستَها وتفوُّقَها في الكيمياء، انهال عليها تحقيراً وتصغيراً، وشكّك في كل حديثٍ لها أو حوارٍ مع طالبٍ أو زميلٍ أو جارٍ أو عابر سبيل!...

ذهلتُ! استفسرتُ شوقي كيف يعرف كلّ هذه التفاصيل؟...

ردّ: تصلني الأخبار بسهولة لأني أسكن اليمن، ولستُ مثلك في آخر الدّنيا. هنا كل واحدٍ يعرفُ تقريباً كلّ تفاصيل حياة الآخر!...

ثمّ سألتُه:

– ومعشوقات منيف الخمس؟ هل واصلن الانقياد إليه بعد زواجه؟...

– بالتأكيد!... أكثر من قبل! زادهنّ ذلك غيرةً وعزماً على الظفر به يوماً ما... من علّمهنّ غيره أنه "لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس!"؟...

في رأي كلِّ واحدة: لا حلّ معه إلا بمزيدٍ من العشق! يلزم أن يشتاقها أكثر، أن تقتلهُ الحاجة لها، أن يسقطَ باللكمة القاضية، أن يستسلم!...

سلاحهُ هو، عندما يوشك أن يميل بقوّةٍ إلى إحداهنّ ويُفكِّر بها من دون توقف: الهروب منها بالتفكير بأخرى... كلُّ واحدة سلاحٌ ناجعٌ ضدّ الأخرى! هذه عُمْلتهُ الفعّالة التي تُحرِّره من سلاسل الأحادية، وَتقيهِ من الهرولة في زحلوقة العشق القاتل!... يعرفُ كم تعبدُهُ كلُّ واحدةٍ منهن! يدركُ أنهن يتقاتلنَ بِصمتٍ للاستيلاء على قلبه!... كلّ ما يُهمُّه فقط هو ديمومة هذه المعزوفة! لا يصبو إلى أكثر من بقائهن في جَعْبتهِ بهدوء!...

قلتُ لِشوقي:

– يُذهلني منيف وغرامه المبعثر الغريب! كيف يمكنه ذلك بِمَعِيَّةِ زوجةٍ تكفيهِ "ونُص" مثل أروى؟...

– سيظلّ أبداً العكس النموذجيّ لأوسان في كلِّ شيء، حتى في الغرام: حياة منيف الزوجية تناقضٌ مريع بين الزواجِ والعشق (ظلاميٌّ مع زوجته،

انفتاحيٌّ مع معشوقاته)، فيما حياة أوسان تناغمٌ عضويٌّ كاملٌ بين الزواج والعشق؛ لأنهما وجهان لعملة واحدة في رأيه!...

حياة منيف ثراءٌ تعدُّديٌّ شقيّ، وحياة أوسان ضحالةٌ كاثوليكيّةٌ سعيدة!... إذا كان العشقُ أرخبيلاً في عينَي منيف، فهو بدرٌ في أوج كماله في عينَي أوسان! نموذجُ منيف: العشقُ المتناثر كالعهن المنفوش، ونموذجُ أوسان: العشقُ الصوفيُّ الواحد الأحد!...

ما أروع كلمات شاعرنا شوقي عندما ينزلُ عليه الإلهام!... لذلك السبب لم أتوقّف عن الاتّصالِ به مساء كلّ خميس!...

فكّرتُ كثيراً في ما قالهُ شوقي عن منيف وأوسان! تَضادُّ حياتيهما أثار تأملي كثيراً!... لم أكن في الحقيقة معجباً بالوزير منيف وعشقِهِ المبعثر!... ثمّة كذبٌ ما فيه: من يستطيع سماع أكثر من أغنيةٍ في نفس الوقت؟... لا أحبُّ عشقَ أوسان أيضاً: عشقٌ انتحاريٌّ أعمى!... من يستطيع سماعَ نفسِ الأغنية حتّى آخر العمر؟...

أنا عكسُ منيف وأوسان معاً!... عندما أعشقُ، أعشقُ بكلِّ جوارحي مثل أوسان! لكني أستقيلُ عندما يتحوّل ذلك العشقُ رقصاً على إيقاع موسيقى الروتين الباردة!... أرحل حينها!... أبحثُ حتّى اليوم عن عشقِ أوَّلِ نظرةٍ يَتأبَّدُ فعلاً!... عشقٌ يكتسحُ ويتجاوزُ نفسَهُ يوماً بعد يوم!...

لم أكن قد وجدتُ هذا العشقُ بَعْد! لكني اكتشفتُ أني وجدتُهُ أخيراً، بعد يومين من لقاء أوسان في روما، عندما رأيت أروى في الميريديان، أو على الأرجح في الساعات الأولى من لقاء روما، عند الإصغاءِ إلى حديثهِ عنها!...

قلتُ لشوقي:

– ما أغرب الحياة!... توقّعتُ فعلاً من زمان أن لا يواصل منيف عمله كمدرّس ثانوية، وأن ينخرط بدلَ ذلك في العملِ السياسيّ في صفِّ الحاكم ويمارسه بهذا التملّقِ والضّعفِ والكذب (لم أنسَ تزويرَهُ للشهادات المدرسيّة عندما كنّا في المدرسة الابتدائية)!...

لكني لم أتصوَّره يوماً عاشقاً خفَّاشاً يعيش مغامراتٍ مراهقةً تحتَ أرضيّةٍ من هذا النوع!... شيخٌ روحيٌّ أو "جورو أفريقيّ" لبلاطٍ من خمس عاشقات!... أكثر ما يثيرني حقّاً هو شبكةُ معشوقاته الخمس!...

كنتُ أظنّ أن حبَّهنَّ الهوسيّ هذا لِعاشقٍ من سراب لا يمكنُ أن يوجد في الواقع! لا يحدثُ إلا في بعض الروايات الأدبية، مثل قصّة ستيفان زفايج: "رسالة من امرأة مجهولة". بطلتُها الفريدة تشبهُ معشوقات منيف: تخضعُ كعبدةٍ مخلصة، ككلبٍ مطيع، لِمعشوقٍ غير مكترث، لا يتذكّرُ أنهُ رآها. تنقادُ لهُ من نخاعِها مثل عاشقٍ صوفيٍّ لإله!...

لم أصدِّق، عندما قرأتُها ذات يوم، أن حبَّاً عُصابيّاً مُتطرِّفاً كحبِّها يمكنُهُ أن يحدث مرّةً واحدةً في كُرَتِنا الأرضية! ثمّ ها هو يحصل فعلاً خمسة مرات مع نفس الرّجُل في مدينة واحدة: صنعاء!...

ردّ شوقي:

– ربما لأنها المدينة الوحيدة في العالَم التي تثيرُ ضجرَ الآلهة!...

سألته:

– كيف يستطيع منيفُ اللقاءَ بمعشوقاتِهِ في مدينةٍ كصنعاء لا يوجد فيها خلاءٌ أو فضاءٌ أو متنفّسٌ واحدٌ لِعاشقَيْن! كلُّ ميليمترٍ مربَّعٍ فيها مكشوفٌ للجميع، تُراقبهُ عيونُ القبيلة لِيل نهار؟... لا أفهم ذلك!...

– منيف مذهلٌ جدّاً في هذا المجال!... يطلبُ من أروى أن تدعوَ إلى تناول الشاي كل واحدةٍ من معشوقاتهِ الخمس على حدة، باعتبارها طالبةً قديمة، ذكيّةً رصينة!... يندسُّ في اللقاء كأستاذٍ قديم!...

تزدادُ المعشوقة غَيرة عند رؤيةِ أروى بكلِّ روعتِها وطيبتِها، تحترقُ لوعةً وحلماً بالحلول محلها في الزيجةِ القادمة، لا سيّما أن منيف يشكو لمعشوقاتِهِ أن أروى لا تُحبّه حقّاً، عقيمةٌ لا تُنجب منه، لا يمكنها أن تكونَ ربّة بيت، لا تهتم إلا بدراستها للكيمياء، تهملهُ باستمرار!...

يستغلُّ كلَّ دعوة لِيُدَحرجَ للمعشوقة كلمةَ غرامٍ قاتلة وهو يختلي بها هنيهات مرتعشة، بعيداً عن مسمع أروى!... ثمّ يدعوها، بذكاء وحيلة، ذات يومٍ يُصادفُ غيابَ أروى عن المنزل!...

يُعلِّمها في ذلك اليوم الصنعانيّ الرائق (الذي يَغسلُ المطرُ فيه جِبال عيبان ونُقم... قبل غروبٍ ساحر)، شيئاً جديداً جدّاً، يُجيدهُ بمهنيّة ومهارة: رقصةَ فالس اللسانين، القُبلة!... سحرٌ لا سحر بعده!... لا تحلم من يومِها إلا برقصة اللسانين، أجمل الرقصات، أو "البَرَع"، كما يقول أهلِ صنعاء... لا تشتاق لشيءٍ في الحياة إلا "لِتبترعَ" لسانها ولِسانه بعمق، طويلاً جدّاً، كما علَّمَها ذات مَغربٍ ربّانيٍّ ناعم ترتجفُ عند تذكُّرهِ أسوارُ صنعاء القديمة!...

يستأنفُ شوقي:

– تتقدَّمُ السنين، يلزمُ هذه المرّة أن تتزوَّجَ المعشوقةُ دون تَأخُّر، كما تنصُّ أعرافُ القبيلة!... يفوتها القطار، كما يقولون. وإن كان من الأجدى القول: "يفوتُها الحمار" لأن اليمن لم تعرفِ القطارات بعد!...

منيف يغيبُ تماماً كعادتهِ في هذه اللحظة بالذات! لا وجود له في الكون، جنديٌّ هارب! هنديٌّ أحمر مختفٍ وراء صخرةٍ نائية!... تعلَّمَتْ المعشوقة بعد سنينٍ من الأحلام المُرهَقَة أن عليها أن لا تنتظرهُ لِزواج!... يتقدَّمُ لها زوجٌ سيئٌ جدّاً في الغالب!... لا ترفض!... تبدأُ حياةً جديدةً تتفجَّرُ شقاءً يوماً بعد يوم!... يتضاعفُ حلمُها بِمنيف، منقذِها الإلهي ومسيحِها المنتظر! تشتاقُهُ بجنون!...

يعرف هو كيف يشعِلُها أكثر، كيف يختارُ لحظةً ومكاناً جديداً لِلقاءٍ سريٍّ معها، كلّ بضعة أشهر... يحدِّدُ المكان واللحظة بشكلٍ مفاجئ!... يذهلهنّ منيف وهو يُبرمج سيناريو كلِّ لقاء بذكاءٍ وتخطيطٍ عبقريّ هادئ، يبتكرُ لكلِّ لقاء اختراعات ومفاجآت وطقوساً جديدة!...

معشوقاته يذُبنَ انتظاراً لمفاجآت وهدايا كلِّ لقاء، لا يفكّرن إلا بموعدِه القدرِيِّ الذي يخرجهنّ هنيهاتٍ من الجحيم اليوميّ...

يمرّ اللقاء الغراميّ كثيفاً لا يُنسى: عناقٌ محمومٌ، قُبَلٌ ملتهبة، متعةٌ دافئةٌ كثيفةٌ يعرفُ استخراج مياهِها الجوفيةِ الأكثر عمقاً... تقتاتُ عليها المعشوقةُ بانتظار اللقاء القادم، بانتظار الحلم، بانتظار أن يطلبها بالحياة معه ذات يوم، من يدري!...

يختفي منيف بعد ذلك اللقاء، لا يتركُ خبراً أو أثراً! يحيا حياته العلنيّة بعيداً عنهنّ تماماً. هو برقٌ يضربُ ويهرب، زلزالٌ يعبرُ كلمحِ البصر!...

مهمٌّ جدّاً في إيديولوجيته أن يكون هكذا، شبحاً لا أثر له، لا تُضايقه إحداهنّ لحظةً واحدة، في أيِّ وقت!...

لذلك علّمَهُنَّ "شيخ الطريقة" أهمَّ أركانِ مِلَّته: عليهنّ أن يَعِشنَ حياتهنّ الطبيعية الخارجية في أعين الدنيا كما لو لم يكن موجوداً (أو كما لو كنَّ معهُ في خليّةِ نضالٍ سريّ)، وأن يَعشنَ حياتهنَّ الحميمية الداخلية كل لحظةٍ في أحضانه لا غير، يَعبُدْنهُ ويُخلِصنَ بنقاءٍ له وحدهُ لا شريك له، كلّ ثانية!...

– كيف يتجرأُ على هذا الطلب الفاحش؟، قاطعتُ شوقي!...

– اربط حزامَكَ عزيزي باسل!: منيف غيورٌ جدّاً حدّ الموت! يصرخُ كثورٍ هائج: "يا للخيانة!"، يُحرقُ الأخضرَ واليابس إذا انسابت من إحداهنّ عبارةٌ رقيقةٌ تمدحُ رَجُلاً غيره!...

يواصلُ شوقي رسم خريطتهِ الإكلينيكية لتماوجات وتشنّجات أصابع المايسترو منيف، أو "الوزير الدنجوان" كما اشتهر في اليمن مؤخّراً:

– منيف "مهندسُ صيانةٍ" بامتياز: يبعثُ كلَّ بضعةِ أيّامٍ (تطولُ أو تقصُر. يُغيِّر مواعيده كلّ مرة. فلسفته: الضربة المفاجئة) عبارةً تؤجِّجُ حربَ استنزافِ الأشواقِ، تنتظرُها المعشوقةُ المشتَعِلةُ المُخدَّرَةُ بِقلقٍ وجنون... لكنه يظلُّ مختفياً أشهراً متواصلة!...

تتواصل الأوبرا بشكلٍ أشدّ وأحمى بعد ذلك: يُطِلُّ البدرُ من ثنيَّاتِ الوداع، يُلَوِّحُ الشبحُ الهارب فجأة بموعدٍ جديد، في لحظةٍ غير متوقّعة، بعد أشهر من اللقاء السابق... تدوِّخُ المعشوقة مع اقتراب الموعد، تنقادُ له دون مقدرةٍ على الرفض والاعتذار، تنساقُ لهُ بِجنون!...

بإمكان منيف، إذا أراد، التوحُّدَ الجسديَّ الكامل معها، برْهَنةَ فاقتِهِ وبسالتهِ الجنسيّة!... لن ترفض ذلك لأنها تموتُ رغبةً به عمرها عدّة سنين، تذوبُ عشقاً لِتوحُّدِه هوَ وهوَ وحده!... قضَّتْ عُمرَها تحلمُ بممارسة الحبِّ معه!...

لكنه يُقنِّنُ من هذه المناسك، يمارسُها في المناسبات الاحتفالية المتباعدة. يهمُّهُ الكيفُ أكثر من الكمّ: يعرف أن التهوّرَ فيها إلى أقصى الحدود سيُنهي كلَّ شيءٍ في لحظةٍ ما!... مارس الحبّ بتواترٍ وتطرُّفٍ وشهوةٍ وشغف مع اثنتين منهن فقط، وخسرهما فجأة بعد ذلك إلى الأبد!...

تعلّمَ درساَ لا يُنسى: أنينُ الشهوةِ أفضلُ بكثير من صقيعِ القطيعة!... لم يبقَ في خِدرِهِ إلا ثلاث معشوقات فقط!... لم يعد وهو في منتصفِ الأربعينيات من العمر إلَا شيخ طريقةٍ دينيّة لِمِلَّةٍ تعتنِقُها ثلاث عاشقات!... لكن، إلهي العظيم، أيّةُ عاشقاتٍ ثلاث!...

عندما اتصلتُ بشوقي في أواخر ٢٠٠٦، على هاتفِهِ الجوّال، أسألُ عن أخبار "طيز الرّبح" (استخدمتُها لِأوّل مرّة بعد عقود! لم أستطع أن أمنع نفسي بعد أن صار من منظّري رئيس العصابة التي تحكم اليمن)، كان ردُّهُ مختلفاً كثيراً:

– هو حالياً وزيرٌ كبير! انتهت علاقته بمعشوقاته الثلاث كما أظن! من جهته هو على الأقل: رماهنَّ من النافذة كزجاجات فارغات!... هُنّ: لا أعرف! أتوقّع أنهنّ ينتظرنَهُ دوماً بنفسِ اللهفة والشغفِ العُصابيّ!...

منيف غارقٌ حالياً حتّى الأذنين في الفساد بكل أنواعه (ممتلكاتُه وأراضيه وفيلاتُه لا تُعدّ!) بما في ذلك الفساد الأخلاقي أيضاً!...

– ماذا تقصد؟، سألته!...

– أعرف أنه يستقبل بين الحين والحين مومسةً أجنبيّةً تأتيه من خارج اليمن، ربما أكثر من عاهرة!...

طنّ في رأسي أكثر من حديثٍ (دار قبل أشهر من حديثي مع شوقي) مع صديقٍ لي مسؤولٍ في فرع شركة طيرانٍ جويّة في باريس حول هذه العلاقة!

سالتُ شوقي بِقرَف:

– وأروى في كلِ ذلك؟...

– لا تدري شيئاً! تذوقُ الأمرَّيْن أكثر من قبل! يُنكِّد على حياتها ويَخنقُها أكثر فأكثر! أعتقدُ أن الطاقات التي يبذلها في التنكيد عليها أكثر من الطاقات التي يبذلها هو وحكومته ورئيسه في إدارة اليمن. أي في تخريب اليمن!...

لن يُفرِّط بأروى أبداً، أكثر من أي وقتٍ مضى، لأنها الوجهُ المشرقُ له أمام الآخرين، لا سيّما بعد أن صار فاسداً نتناً إلى هذا الحد!...

غير أن أروى وجدتْ مَخْرجاً ما، يَخلقُ نوعاً من الاتزان في حياتها: سفراتها خارج اليمن لدورات أبحاث في الكيمياء بين الحين والحين تناضلُ من أجلِ الحصولِ عليها من أكثر من جامعة!...

تتنفّسُ أثناء ذلك قليلاً، تهربُ من مأساة حياتها اليومية!... تمارسُ حياتها حينذاك كما تحب: بين مختبر الجامعة، المكتبات، المسرح، السينما... تُقضّي حينها أروعَ أسابيع حياتها! تحيا بها ولها، لا غير!...

تستجرُّ عند عودتها لليمن ذكريات هذه الأسابيع، على أمل موعدٍ آخر لدعوةٍ جامعية أخرى!...

سألتُ:

– كيف يسمح منيف لها بالسفر؟...

– في البدء كان يرفض ذلك بشدّة، لمجرّد الرفض فقط: لا يُهمّه في الحقيقة ما يحصل لها بعيداً عن معارفِهِ في اليمن! يهمُّهُ فقط أن تظلَّ كما هي في

أعينهم، وأن تمارس نفس سَلوكها اليومي معهم، لا غير. لأن لها هذه السمعة الطيبة التي ترفع من قيمتهِ الشخصية في أعين الآخرين بالضرورة!...

تَبْيَضُّ سمعتُهُ بفضل أروى، of course (رطنَها شوقي بلاوعي)!...

كانت أروى تقاومُ رفضَهُ لسفراتها، لأن مواصلة الدراسة والأبحاث كان شرطَها الوحيد الذي طلبتْهُ قبل الزواج، في لقائهما العائلي الذي دام عشرة دقائق. أقسمت حينها أن لا تفرّط فيه يوماً مهما كان الثمن!...

– كيف تعرفُ كلّ هذه التفاصيل التي لا يمكن أن يعرفها إلا صديقٌ حميمٌ لأروى؟ هل تتواصل معها؟...

تلعثم شوقي من جديد! ردّ:

– منيف يزورني في عدَن ويُحدِّثني عن أشياء كثيرة أحلِّلُها بطريقتي! لا يهمُّ ذلك! الأهم هو أن منيف لم يَعُد، في السنوات الأخيرة التي أصبح فيها وزيراً، يرفض سفراتها الجامعية (إن لم يحبّذها في قرارة نفسه!) لأن ذلك يسمح له بأن يستقبل بهدوء وحريّة عاهرتَهُ الأجنبية خلال أسابيع!...

آوسان يتحدّث:

موعدٌ في فندق بولمان

سألَ باسلٌ نوغدين بعد أن خرج من الحمّام معطّراً، محلوق اللحية، يُحدِّقُ بإعجاب في المرآة وهو يرتدي أمامها بدلةً أنيقةً من دون أي قميصٍ أو معطفٍ طاليباني:

– إلى أين ستتّجه؟

– إلى فندق بولمان!

– لماذا؟

– لمقابلةِ المضيّفة!

– لا تعرف اسمها، لم ترها يوماً، فكيف ستجِدُها؟

– آآآه، عندك حق!...

– أنا أعرفُها! رأيتها في حفلةٍ نظَّمَتْها شركة الطيران!... سأقدّمُها لك إذا أردْت!...

– نعم، أريدُ ذلك!...

– سأقَدِّمُكَ لها كمالِكِ فندقٍ في أحَد شواطئ أغادير بالمغرب، على البحر تماماً، يمتلك أيضاً شركةَ أحذيةٍ مطرّزةٍ بموتيفات وأرابيسك ينقشُها فنّانون على الأحذية مباشرة، لها فرعٌ في إيطاليا.

سأقول لها إنك جئت لباريس بحثاً عن موظّفات وموظّفين لهم خِبرة بالسياحة الدوليّة، للعملِ في فندقِك في أغادير!...

– رائع!...

– يلزمني أن أحجز لك غرفةً إذَن في نفس الفندق، ستحتاجُها كما أظن!... إليك أيضاً بعض ورقات المائة يورو التي قد تحتاجها هناكِ أيضاً!...

– لماذا كلّ هذا التعقيد؟... لم أحتج للإغراء الماديّ يوماً!...

– أعرف ذلك! تكفيكَ وسامتك، هي خاتمك السليمانيّ، لكن من يدري!...

المضيّفةُ تتواجد غالباً في مسبح الفندق!... أقترحُ عليك التوجّهَ إليه للسباحة، ثمّ الطلوعَ لغرفتك حتّى أطلب من مكتب استعلامات الفندق دعوتك إلى النزول!... سأكونُ حينها (كما أتوقع) في مقهى المسبح أشربُ شيئاً ما معها!...

عليك أن تنزلَ حينها من غرفتك إلى المقهى... سأعرّفُكما ببعض... يكفي أن تفوهَ برقم غرفتك أثناء الحديث، وستتصلُ بك كما أتوقّع، بالتأكيد!...

طلب باسلُ من نوغدين أن يُغيّر بدلته. أعارهُ أخرى من ماركة كارل لاجارفيلد، وساعة رولكس لا يضعها باسل إلا نادراً. كاد ينفجرُ من الضحك عندما رأى نوغدين يضعُ حذاء نايك!... أعارهُ حذاءين من ماركة إيطالية فاخرة...

ربما لم يحتج باسل لهذا السيناريو المعقّد؛ لأن وصول نوغدين إلى مسبح الفندق، بُعَيد الرابعة عصراً، كان كافياً لِجذبِ الأنظار إليه: شابٌّ بهذه الوسامة والجسد الرياضي (وإن بدأ يعتورهُ بعض ضمورٍ في عضلاته المفتولة)، يسبحُ "الكرول" بمهنيّةٍ شبهِ أولمبيّة، لا يَمُرُّ دون استقطاب كلِّ الأنظار، لا سيّما في مسبح!...

هو أكبر من أحلامِ هذه المضيّفة في كل الأحوال، أصغر منها سنّاً أيضاً!...

أملَتْ نظرها به، قبل أن يصعدَ إلى غرفته، دون أن تتمادى على نفسها بمجرد الحلم بالتعرُّفِ إليه. اعتادت فقط معاشرة ومضاجعة نفايات الحياة من الموبوئين بالقبح الرّوحي والجسدي والعاهات النفسيّة كالوزير منيف!...

إلهٌ صغير كنوغدين لا ينتمي إلى فصيلتها البيولوجية في شيء!...

يصلُ باسلٌ إلى الفندق قبل الخامسة والنصف عصراً. يتَّجهُ إلى المسبح. يرى المضيّفة التي عرفتْهُ وعرفها!... يقتربُ منها. يقول لها إنه يفتّشُ عن صديقٍ له، صاحب فندق في أغادير، جاء إلى باريس بحثاً عن موظفين للعمل في فندقه!...

بانتظار رؤيته، يدعوها إلى شرب كأسٍ في مقهى المسبح. توافق دون تردّد!...

يتّصل باسل من المقهى بمكتب استعلامات الفندق. يطلبُ إشعار السيّد نوغدين بأنه جاء لِمقابلته في المقهى حسب الموعد... بعد دقائق يصل نوغدين. تتسمّرُ المضيفة وهي تراه يقترب: وسامةٌ ذكورية كهذه لا توجد إلا في رواية ألف ليلة وليلة، وبعض أفلام السينما فقط!...

يعانقُ نوغدين باسل الذّي يُعرِّفُه بالمضيّفة... تنزعُ منشفتَها عن ظهرِها بلا وعي، قبل أن تقفَ لِتحيتهِ. مايو سباحتها لا يزيدُ حجمه على ملابسها الداخلية المقتضبة التي تلوِّح بها في الطائرة، أثناء سفرها لتلبية دعوات الوزير منيف العاجلة جدّاً لخدمة المصالح العليا جدّاً لليمن!...

أمامها هي وباسل، على الطاولة، كأسا "دراي جين". يأتي نادل المقهى ليسأل نوغدين ما يحبُّ شربه.

يتردَّدُ نوغدين في أخذ فنجان حليب أو عصير طماطم! يختار في النهاية كأس حليب!...

يُخرِجُ باسل من حقيبته الأنيقة قنينةً صغيرةً تحوي عسلاً دوعنيّاً وملعقةً يملأُها عسلاً يضعهُ في كأس الحليب. تنظرُ المضيّفة إلى ذلك باستغراب ملحوظ، متسائلةً عمّا إذا كانت في خيمةٍ بدويّة أم في فندق بولمان!...

يقول باسل لِنوغدين:

– جرّبْ هذا الكوكتيل الذي لا يوجد مثله إلا في فردوس أرحم الراحمين!... عسلٌ دوعنيّ! أرقى وأغلى عسلٍ في الكرة الأرضية. هل تعلم أن لهذا العسل أسهماً في بورصة دول الخليج، ثمينةً جدّاً؟...

يرتشف نوغدين الكأس، يمدح هذا الخليط البديع وكأنّه جرّبهُ لأوّل مرة. يُبدي إعجاباً خاصّاً بطعم ذلك العسل. يُخرِج عشر أوراق من المئة يورو لشراء القنينة الصغيرة من باسل، قائلاً:

– لا أعرف ثمنه في بورصة الخليج، لكن أرجو أن تقبل هذا المبلغ الصغير ثمناً للقنينة!...

يعتذر باسل قائلاً:

– لا يجوز لي بيعه! أهداني إيّاه صديقٌ يمنيّ عزيزٌ جدّاً. الهدية لا تشترى ولا تباع حسب نواميسنا وقيَمنا الأخلاقية الاصيلة!...

لكني أعدك بأن أبعث إليك بالإيميل عنواناً على الإنترنت، سيصِلكَ عبره، حيثما تريد، نفس هذا النوع الأرستقراطي من العسل!...

يستطردُ باسلُ قائلاً إنه وجد مرشحةً لِفندقه في أغادير حسب كلِّ المواصفات التي طلبها.

أضاف: "المرشّحةُ مستعدّةٌ، حالما تريد، لأن توقِّعَ على التعاقد للعمل بأجر أربعة آلاف دولار شهرياً، كما قلتَ. سأبحثُ عن مرشّحٍ أو مرشّحةٍ أخرى للعمل في الفندق بنفس المواصفات!"...

يشكر نوغدين باسل على مجهوده، ويدعوه رسميّاً إلى قضاء أسبوعٍ سياحيٍّ خاص في فندقه في أغادير، على حسابه، مضيفاً: "ستصلك تذكرة سفرٍ مفتوحة خلال أسبوع!"...

يتحدّثان بعد ذلك في مواضيع بلا أهمية، ثمّ يعتذر نوغدين لباسل والمضيّفة؛ لأن عليه أن يعودَ إلى غُرفتهِ لإرسال بعض الإيميلات العاجلة (يذْكرُ لباسل رقم الغرفة: ٢٥٥، لتركِ إشعارٍ له إذا وجد بقيّة المرشحين للعمل في فندقِه)!...

قبل الانصراف يدعو نوغدين نادلَ المقهى لدفع ثمن فاتورة كأس الحليب. (كان باسل قد دفع فاتورة كأسي الدراي جين، قبل وصول نوغدين)...

يعطي النادلَ ورقة مئة يورو!... يقطِّبُ النادل حاجبيه وهو يرى ورقة مئة يورو لدفع ثلاثة يورو ونصف لا غير!...

يُبدي استياءً ما، برطمةً في الشفتين!... يذهب بعيداً، يغيبُ طويلاً قبل أن يعود بباقي الحساب!...

لا يقبلهُ نوغدين!...

يترُكُ، بحركة يدٍ أرستقراطية متعالية ونصف ابتسامة، ما بقي من المئة يورو "بخشيشاً" للنادل الذي لا يُصدِّقُ ذلك!...

يحزرُ النادلُ نوغدين، يتفرّسُ في قسماته ليتأكد أنه ليس مجنوناً أو ممثلاً فكاهيّاً من النوع الثقيل!...

لا يتجرأ على الابتعاد عن الطاولة مع البخشيش. يخشى أيضاً (أو يتمنّى ربما) أن يطلبَ منه نوغدين كأس حليبٍ من جديد ويدفع له بخشيشاً آخر!... يتجمّدُ في موقِعِه لا يعرف ما يفعل!...

يبتعدُ قليلاً، يسير بخطوات غير أكيدةٍ إلى الخلف، ثمّ يُدوِّي بِشهْقةٍ لا يستطيعُ كتمَها وهو يبتسمُ لِنوغدين ابتسامةً التصقت بخدّيهِ بشكلٍ غير طبيعيّ، مردِّداً: "ميرسي ميسيو، ميرسي ميسيو!"... (لم يستطع إرخاءَ عضلات خدّيهِ لإنهاء الابتسامة، كما يبدو، إلا بعد ساعات، عند مغادرتِه الفندق بعد الدّوام.)

تتسرّبُ من المضيّفة شهقتان حاوَلَتْ كبحَهما بصعوبة وهي تحملقُ في عيني نوغدين بذهولٍ وإعجابٍ ونهَم!...

ويصاب باسلَ (الذي ندم أنه أعطى نوغدين عدداً مهمّاً من أوراق المئة يورو) بثلاث شهقات دثّرها بنحنحةٍ وسُعالٍ مصطنع!...

السارد يتحدّث: جسدٌ منقوشٌ بالخضاب

يلزمني أن أقول في هذه الاستراحة الثانية، أنا السارد الذي وقع في شباك هذه الرواية التي وصلتهُ من السماء، إني لم أكتشف كلّ هذه المعلومات الجوهريّة في نصِّ أوسان فقط، بل من لسانِ نوغدين نفسه!...

زُرتهُ، في الحقيقة، بعد وفاة أوسان في منتصف نوفمبر ٢٠٠٧ بأيّام، بعد أن استوعبتُ نصوصَ الفدائيين وأمسكتُ بِتلابيبِ روايتِهم المشتركة.

زرتُ نوغدين في شقّةٍ يسيلُ من أرجائها موتٌ داكن، شُقَّةِ باسل!...

أحببتُ من كلِّ قلبي نوغدين الذي لا يمكن أن لا يحبَّهُ إنسانٌ في الوجود!...

حدّثني كثيراً عن أوسان الذي كان رفيقَه الأوحد الدائم في نفس هذه الشقّة حتّى انقطاعِ آخرِ أليافِ قلبِه!...

قال لي: "أوسان قلبٌ يتّسعُ لكلِّ رياض الجنة! رأيتهُ يذوي، يتجندلُ أمامي!...

كنتُ أتمنى أن لا أفارقه في الدنيا إلا عند موتي، لكنه سبقني إلى حياة الآخرة!...

لا تفارقني أبداً ذكرياتُ يومِهِ الأخير!

أسأل الله أن لا أفترق معه لحظةً واحدةً في حياة الآخِرة، إن شاء عزّ وجل!".

انفجرَ بكاءً، لم يتوقّف!...

قلتُ لِنفسي: إذا استجاب الله لِدعوتهِ، فمئة وأربعون حوريّة عِين (سبعون لأوسان، وسبعون لنوغدين) سيَظلَلْن في سوق البطالة إلى أبد الآبدين!...

باح أحدهما للآخر بكلّ تفاصيل حياتهما. كان كلُّ واحدٍ منهما ممحوناً بآلام الآخر أكثر من آلامه الشخصية، كما يبدو!... كانا يُقضّيان الأيام الأخيرة من عمر أوسان في الحديث المتواصل من الفجر حتى آخر الليل. لا تفصلهما إلا استراحاتٌ صغيرة يتوجّهُ خلالها أوسان إلى شربِ جرعات سخيّة من الويسكي، ونوغدين لِتلاوة ما تيسَّرَ من الذِّكر الحكيم!...

عدتُ إلى شقّةِ باسل عشرات المرّات، حتّى الأيام الأخيرة من عمر نوغدين. ثمّ زرتُ العمارة بانتظام بعد وفاة نوغدين. سألتُ جيران شقّة باسل عنه. لم يرهُ أحد، لم يلاحظوا في الشقّة ضوءاً أو إشارةً لِحياة!...

سافرتُ إلى اليمن في نهاية ديسمبر ٢٠٠٧، بعد أيّام من ندوة كوبنهاغن التي تحدثتُ عنها سابقاً، لِممارسة طقسٍ سنويٍّ مقدّسٍ ونعمةٍ لا تُوصف: السباحةُ في شاطئ جولد مور في عدَن، في منتصف الليل، في ساعة رأس السنة تحديداً!...

أردتُ استغلال هذه الرحلة لإيصال ظرف شوقي إلى أروى! كنتُ قد حاولتُ الاتصال بها حالما عرفتُ رقمَ تليفونِها من صديقٍ لي يُدرِّسُ الكيمياء في جامعة صنعاء، في نهاية نوفمبر. لا ردّ!...

سألتُ عن أروى في اليمن. عرفتُ أنها تسكن حالياً في دار والدِها بِمدينة جِبلة (في منتصفِ الطريق بين صنعاء وعدَن)!... توجّهتُ لزيارتها!...

طرقتُ الباب! استقبلني شيخٌ جليلٌ طيّب، والِدُها!... قال لي إنها ترفضُ رؤيةَ أي مخلوقٍ عدا أبويها ورضوان الذي كان خارج البيت! هاتِفُها مغلقٌ على الدوام إلا لبعض أقاربها!...

حدّثتُهُ عن الظرف الذي يلزمني تسليمُه لها!... سمح لي، بعد أن ذهب لاستشارتها، بالدخول لرؤيتها!...

رأيتها موشّحةً بالسواد، تعيشُ مليون حدادٍ في نفس الوقت (سحرٌ من علّيين!)... حيّيتها بأدب، وقدّمتُ لها كل التعازي القلبية المخلصة دون أن أذكر اسماً من أسماء رجالٍ صدقوا ما عاهدوا أروى عليه، منهم من قضى نحبه (شوقي في الأول من نوفمبر، أوسان في منتصفه، وقبلهما منيفُ، في ١٨ أكتوبر) ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا!...

تمعّنتُ في منظرِها: تستحقُّ كلَّ إعجابِ فدائييها الثلاثة ووصفِهم، وأكثر من ذلك بكثير!...

قدَّمتُ لها الظرف، راجياً أن تسمح لي بأخذ صورةٍ منه، حسب طلب شوقي، إذا وافقَتْ!...

مدّت يدها. نقوشُ خضابٍ أسود في غاية الجمال يُطرِّزُ أصابعَها وراحةَ يديها، ومعصميها... دُهِشتُ من جَمال النقشِ ونصاعتهِ وتألّقهِ على بشرتها البيضاء وأصابعها الطويلة!...

تضاعفت دهشتي لأني أعرف أن نقش الجسد بالخضاب لا يتمُّ إلا في المناسبات الاحتفالية، لا سيّما قبل الزواج والأفراح. أما في معمعان المآتم، فذلك طقسٌ جديدٌ يتجاوزني!...

فتحَتِ الظرف، تصفَّحَتْهُ ورقةً ورقة، ثمّ رمتْهُ ليحترق في جمرات وقيدٍ لِتسخين القهوة، في طرف الصالون! توسّلتها أن لا تفعل!... عبثاً!...

(استحضرتُ عبارات أوسان: ”لا يوجد ما هو أعتى من الماء أيضاً!... أروى، حبيبتي، هي الماء!“)...

ثمّ سألتُ: لماذا تحرقينه؟...

ردّت: هو صورُ رسائل دامتْ ما يقارب ثلاثة عقود! لديّ نسخٌ من كل رسالة!...

سألتها: أيمكِنُكِ إعطائي نسخةً من تلك الصور؟ شوقي موافقٌ على ذلك!... أحتاجُها لِكتابةِ عملٍ سرديٍّ عنه!...

رفضَتْ بأدب، وإن أخفتْ انزعاجها الشديد وتذمُّرَها من طلبي!... شعرتُ بأنها تريد أن أغادر المنزل سريعاً. كانت مرهقةً جدّاً!...

دحرجتُ آخر عباراتي: إذا غيّرتِ رأيكِ فهذا رقم تليفوني، وهذا عنواني!...

حزرتْني بنظرةٍ لا تخلو من سخريةٍ داكنة، ثمّ ودَّعتني بأدب، قبل أن ترمي بعنواني ورقم تليفوني في نفس الوقيد!...

ظللتُ أشهراً طويلة أستحضر لقائي الجنائزي الخاطف بأروى، أتذكّرُ منظرَها ونبرات صوتها (أردِّدُ: سحرٌ من علّيين!)، أتأمّل في ذاكرتي نقوش أصابعها

الفاتنة في معمعان المآتم، أعيدُ قراءةَ نصوص أوسان وباسل، أقلَبها وأرتِّقها وأُمَوْسِقها، أحومُ قرب عمارة شقّةِ باسل في الدائرة الخامسة عشرة من باريس، أسألُ جيرانه عنه، أراقب الإيميلات مليون مرّة يوميّا لَعلّي أتسلم منه حرفاً يؤكد أنه لا يزال حيّاً يرزق، أفتّشُ صندوقَ بريدي يوميّاً علَّ أروى ترسلُ صورةً من طردِ شوقي (من يدري!)، لا أفارقُ تليفوني دقيقة على أملِ أن تصلني إس إم إس ما منها، من باسل...

عبثاً!...

توحّدتُ مع هؤلاء الشخوص كثيراً من فرط تَمرُّغي في كلماتهم واندماجي في معاناتهم.

صرتُ أعرِفُهم تماماً، أستوعبُهم بعمق، أسمع كلّ آهاتهم وسعاداتهم، لا سيّما بعد أن رأيتُ أروى بأمِّ عينيّ في جِبلة، ولو بضع دقائق!... أستحضر طفولتهم، وأتذكّرُ معاهدة صباهم وقسمهم بأغلظ الأيمان في ركن الشارع إنهم عندما يكبرون ستكون لهم زوجةٌ واحدة!...

عَجَبي!...

أذهلني بِشكلٍ خاص مكرُ القدَر وسخريةُ مقالبه!...

مثلهم أيضاً، تصدّعتْ حياتي يوماً بعد يوم، طوال أشهر كتابةِ روايتهم، وتبدَّدتْ في غياهبِ أزماتٍ يوميّةٍ، بلا مخرج، لن أشرحها هنا، كما عاهدتُ القارئ.

كلُّ سيرة حياتي لا تستحقُّ السَّرد في كلِّ الاحوال: خلتْ من عشقٍ بِقامةِ أروى، لذلك لم تكن حياة!...

ثمّ صرتُ بعد ذلك اللقاء مهووساً بالحياة، لا أحلم كلّ لحظة إلا برؤية أروى!...

باسل يتحدّث: الإمام الشافعي يعزفُ على البيانو قرب الكعبة

بعدما سألتُ أروى (التي باغتتها إس إم إس شوقي وصدَمَتْها مفاجأته، حال وصولنا إلى مطعم سوهو) كيف عرفَتْ بأني بعثت إس إم إس لشوقي تُلخِّصُ ما يعانيه أوسان، أجابت: – حوَّلَهُ شوقي لي بالإس إم إس قبل قليل، مع رتْلٍ من الاستفسارات العاصفة!... لا أدري كيف استقبلَ المعلومات التي أرسلْتَهَا له، وحديثك الساخر عن "عشقٍ حامي الوطيس"؟ فجَّرتَ كارثة!...

الله يعينه ويعينني!...

عيناها مخضلّتان بالدموع. لا تُخفي قرفاً وقلقاً شديداً وهي تعيد قراءة ما بعثه شوقي لها. تحاول استعادة جأشها بصعوبة...

اللعنة!... فجَّرتُ كارثة دون قصد! أعشق الكوارث!... رميتُ بنفسي هكذا بمحض المصادفة (الحمد لله!) في أكثرِ مناطق حياة أروى غموضاً وانغلاقاً وسريّة!...

أيعني ذلك أن شوقي هو نفسه عِشقُها النخاعي؟...

–عفواً! اعذريني... لم أكن أعرف أن ذلك الخبر سيزعجُ شوقي، وأن علاقتكما مهمّةٌ إلى هذا الحد!...

تكفكفُ دموعها... يزدادُ حُزنها مع مرّ الوقت...

كي أهربَ بِضع دقائق من الحديث في هذه المشكلة الورطة، وأفكِّرَ بأفضل طريقة أعودُ إليها، دعوتُها، من باب المزاح وترطيب الجو، إلى تذوُّقِ كأسٍ من النبيذ!...

لم تُجرِّب أروى يوماً أيَّ كحولٍ من عيارٍ ناعمٍ كالبيرة والنبيذ، أو وحشيٍّ كالويسكي والفودكا!...

لن يتجرأ إنسانٌ بالطبع، بسببِ منديلها الإسلامي الذي لا تتسرّبُ منه شعرةٌ واحدة، على اقتراح ذلك لها!... فوجئتُ بأنّها وافقتْ!...

ها هي تحتسي أوّلَ رشفةٍ وهي تقول: "يومٌ كلُّهُ مفاجآت! يومٌ تاريخيٌّ مُحشبكٌ من جميع النواحي! أحتاج إلى دوخةٍ كثيفةٍ في الرأس لنسيان ذلك!"...

كان منظرُها مثيراً وهي ترتشفُ النبيذ، بمنديلها الإسلامي، بكلِّ ثقة، وسط المطعم!...

تخيّلتُ مناظر غير أليفة من نفس الطراز: الإمام الشافعيّ يعزف على البيانو قرب الكعبة! البابا يوحنا بولس الثاني يُصليّ صلاة الوتر في بازيليك القديس بطرس بالفاتيكان! الشيخ أسامة بن لادن يُمثّل دور عبد الحليم حافظ في فيلم "أبي فوق الشجرة"!...

المؤسف جدّاً أن أروى لم تحبّ النبيذ! هي جريئةٌ صادقةٌ مع نفسها عندما ذاقتهُ، وعندما قالت ببساطة إنه لا يناسب مزاجها، رغم أنه مصنوعٌ من أجودِ كرومِ الآلهة: بومرول ١٩٩٢!...

يا لشَقائي وشقاء الآلهة: أروى لا تحبُّ رحيقَ كرومهم المقدّس!...

بعد تفكير مكثّفٍ في هذه الأزمة التي حلّتْ على رأس أروى بسببي، سألتُها:
– رآكِ شوقي في بداية الثمانينيات بِتَعِز بالمصادفة؟... هذا ما قالهُ لي ذات يوم!...

أدركتُ من رؤيتها كم هي ملخبطة جدّاً، في محنةٍ عويصة! لا تحبُّ التطرُّقَ لهذا الموضوع بالذات!... فكّرتْ طويلاً قبل أن تجيب: "إس إم إسك خلقَت لي ورطةً كبرى، لم يكن وقتُها الآن!... يلزمني لذلك أن أكشف النقابَ عن أهمِّ وأقدمِ وأقدسِ وأغربِ بُعدٍ في حياتي: شوقي، لم أتحدَّث عنه لِأَحد!... لعلّي أرغبُ هذا المساء في بوحِ شذراتٍ ما من بعض فصولِ علاقتي بشوقي! ثمّ أنتَ وقد أصبحت صديقاً عزيزاً أيضاً قد تساعدني في الخروج من هذه الورطة!"...

اللعنة! جرحَتْني!... أكرهُ من أعماقي هاتين الكلمتين: "صديق عزيز"، لا سيّما عندما تأتيان من فتاةٍ أنوي أن تكون معشوقتي، زوجتي، كلَّ حياتي!... خفتُ على مستقبلِ قلبي ومصيرِه!...

تنَفّستْ طويلاً، كفكفَتْ بقايا دموعها، وإن ظلّت شاردة الذهن بادية القلق! رشفةُ ماء، قبل أن تضيف: "سأدخل في صلب الموضوع مباشرة. سأختصرُ الحديث عن علاقةٍ غير عاديّة لم أَفُهْ بها لأحد، عمرها ثلاثة عقود تقريباً، قد تبدو لك شديدةَ الغرابةِ أيضاً!"... قاطعتُها: – رشفةٌ أخرى من النبيذ أوّلاً؟...
– لا، شكراً!...

دقّت ساعة الكشف! دقّت ساعة البوح!... ستبوح لي أروى بأسرارِها مثل أوسان! بدأتُ أقترب فعلاً من النصر!...

رشفةُ ماء قبل أن تسترسل دون توقّف: – سكنتُ مع عائلتي في تَعِز من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٢! كنتُ أزورُ هناك بيت عمّتي سلمى بانتظام... بلقيس، جارة عمّتي، إنسانةٌ لا تتكرّر، مثقّفةٌ حسّاسةٌ رقيقة، وُلِدتْ وتربَّتْ في عدَن، تحبّ الآخرين وتساعدهم بإخلاص، تمتلك دماغاً نقيّاً ومواهب كثيرة!... تعرّفتُ إليها، أحببتُها وأحبّتني كثيراً!...

جذبَتْني ذات يوم صحيفةٌ عدنيّة كانت تقرأها، رأيتُ فيها صورةً لشاعرٍ شابٍّ يُشبِهُ أخي رضوان كثيراً!... بجانب الصورة مقابلةٌ طويلة مع الشاعر أسرَتني بشكلٍ غير مألوف، وقصيدةٌ له حملتْني لعالَمٍ آخر!...

كلُّ سطرٍ هزّني في هذه الصفحة: سيلٌ رقيقٌ من الكلمات الأنيقة، الجديدة على مسمعي! حبٌّ دافقٌ حرّ! أحلامٌ وأخْيُلةٌ طارتْ بي إلى جزرٍ وآفاق بعيدة!...

عرفتُ من بلقيس أن الشاعرَ أخوها من الأمّ! طلبتُ منها أن تُعيرني كل ما تحتفظ به من مقالات وقصائد له. أعطتني كلَّ ما لديها، لا سيّما أعداد من صحيفةٍ مدرسيّةٍ شهريةٍ داخلية، كان رئيساً لتحريرها، تنشرها "ثانوية عَبُّود" في الشيخ عثمان بِعدَن!...

حدَّثَتْني بلقيسُ عن نصف شقيقها كثيراً (كنتُ أطلبُ المزيد، كلَّ مرّة!)، عن طقوسهِ اليومية، شغفهِ بالدراجات النارية!... عن اسمِهِ: شوقي، الذي كنتُ

ألفظه وأرتجف، لأنه صار شوقي اليوميّ الدائم حتّى الآن، منذ ذلك اليوم الذي رأيتُ صورتَهُ في عصر ٣ أكتوبر ١٩٧٩!...

(لاحظتُ دون تعليق: ٣ أكتوبر عيد الوحدة الألمانية!)...

قرأتُ كلَّ ما كتبَهُ عشرات المرّات! شعرتُ بأنه ينيرُ حياتي، يُعَبِّر عن أحاسيسي وأحلامي التي لا أستطيع التعبير عنها. أيقنتُ أنه يكتب لي أحياناً، يُخاطبني شخصيّاً! عشقتُ كلَّ ما كتبه بشكلٍ أعمى!...

مثالٌ بسيط: عندما قرأتُ له في صحيفتهِ المدرسيّة مقالاً أدبيّاً بعنوان "رسالة غرامية بالكيمياء" (استخدمَ فيه مصطلحات الكيمياء التي تُدَرَّسُ في الثانوية في سياقٍ أدبيٍّ غرامي بَحْت، ممتعٍ جدّاً) استولى عليَّ إعجابٌ وبهجةٌ حادّان كثيفان لِدرجة أني أقسمتُ ساعتَها أن أتخصّصَ في الكيمياء في دراستي الجامعية!... باختصار، أدينُ له بكلّ شيءٍ في حياتي منذ أن خَلَبَتْنِي صورته وأسكرتني كلماته!...

ألفَ مرّةٍ في اليوم كنتُ أصابُ بِشبهِ غيبوبةٍ وأنا أتخيّلُ شوقي أمامي على دراجته النارية، أو أستعيد في ذاكرتي صورَةُ التي رأيتها في بيتِ بلقيس، أو أُحدِّقُ فيها ساعاتٍ طوالاً في الصحف التي أحتفظُ بها!...

يرتجفُ قلبي بعنف عندما أتخيّلُ نفسي ملتصِقَةً بِظهرهِ، أهيمُ معه على دراجتهِ الناريّة!... لم أعرف هذه الأحاسيس يوماً من قبل!...

حفظتُ مقالاته عن ظهر قلب!... ظلَّتْ بلقيس تمدُّني بكلِّ جديدٍ يكتبه!... أحببتُ الكتابة أيضاً بفضل ما قرأته له. حاولتُ أن أتماهى مع أسلوبِهِ ومواضيعِه. بدأتُ بِكتابةِ يومياتي أوّلاً بأوّل!... تحوَّلتْ هذه اليوميات، من أولى صفحاتها، رسائل غدقة موجّهةً إليه، تسردُ مشاعري، ذكرياتي، أحزاني... وأفراحي (وإن كانت قليلة) أيضاً!... تراكمت هذه الدفاتر بسرعةٍ مذهلة!...

دعتْني بلقيس إلى مصافحة شوقي عندما جاء لزيارتها في ٢ فبراير ١٩٨٠!... عشرات الصفحاتِ في يومياتي تتحدّث عن ذلك اليوم وعن نصفِ غيبوبتي عند رؤيته!... رأيتهُ فعلاً!...

لم أجذبْهُ كثيراً ذلك اليوم! استغرَبَ من فرط اهتمامي به وتحجُّرِ لساني وذوباني في حضرتِه!... لم يكن يحبُّ ذلك كثيراً لأنه يميل إلى المرح والهزل ولا يأخذ نفسه بجديّة إطلاقاً! شعر بالسعادة فقط والفخر لأني أحفظ عن ظهر قلب كلَّ قصائده!... كان مخطوباً لفتاةٍ في نهاية الدراسة الثانوية في عدَن، مملوءاً بهمومٍ ومشاريع لا علاقة لها بي!...

طلبَتْ مني بلقيس أن أريهِ يومياتي. تصفَّحها بسرعة، بحث عن قلمٍ لتصحيح بعض الأخطاء الإملائية، وأعادها إليّ! كم شعرتُ بالخيبة والألم!... توقَّعتُ منه تفاعلاً أقلَّ سُقراطيّة، أكثرَ حميميّة!...

في زيارتهِ الثانية، في ٦ أبريل ١٩٨٠، كان شوقي أكثر تواضعاً وانفتاحاً! حمل لي قوقعةً من عدَن أحتفظُ بها إلى الآن، قبَّلتُها مليون مرّة! علّمني كيف أسمع فيها هسيس البحر وأصداء أمواجه، غناءِ النوارِس، كيف أسافر فيها ببواخر

شراعيّة نحو جُزُرٍ بعيدة!... علّمني كيف أرى أسراباً من النوارس تخرجُ من قوقعتِهِ لِتملأ رأسي، كيف أغتسلُ عاريةً في زبد البحرِ الذي تقذِفهُ أمواجُ قوقعتِه!...

حدَّثني كثيراً عن عدَن، البحر، كيف تحيا المرأة هناك!... زرع في وجداني الحلمَ والأمل. أدينُ لهُ بِهِما إلى الأبد!...

عاد إلى تعِز في زيارات لاحقة كانت بالنسبة إليّ أحلى أيام العمر! لاحظتُ أنه لا يبادلني نفسَ الحبِّ فعلاً، لكني أثير اهتمامه كثيراً لحفظي كلَّ قصائده ومقالاته، لتحسّنِ أسلوب ومواضيع يومياتي واكتسابها "مسحةً شعريّة" كما قال، لانتهاءِ الأخطاء الإملائية والنحويّة التي كانت تزعجه، لتضاعفِ كميات يومياتي بسرعةٍ خارقة، ولِتعلّقي بِهِ (إدماني، في الحقيقة) الذي لا أستطيع إخفاءه، والذي دغدغَ نرجسيَّتهُ كثيراً وإن جاهدَ لئلا تبدو سعادتُه بذلك!...

تغيّرتْ حياتي بعد لقاءاته! صرتُ مسكونةً بهذا المدنيِّ الباسمِ الناعمِ الذي يتحدَّثُ بسلاسةٍ وشاعريّة! يختلفُ كثيراً عن الرجل الذي اعتدتُ رؤيتَهُ دوماً خشناً عبوساً كالحاً، إذا استثنيتُ أخي رضوان بالطبع الذي كنتُ أعتبرهُ الإلهَ الوحيدَ على الأرض، والذي كان شوقي يُشبِهُهُ في كثيرٍ من الملامح والطباع!... (ربما لذلك تعلّقتُ بشوقي!)...

شوقي، مثلهُ، حطَّ في ناظري من خارج الكون!... صرتُ لا أفكِّر إلا فيه!... أهربُ به وأطيرُ معه بعيداً عن شقاءِ ليالينا التي لا تنتهي، وسَأمِ أيّامِنا الخانقة!... هو، رغم عيشهِ في عدَن، معي على الدوام، يُؤثِّثُ أحلامي التي أضحتْ بعد رؤيتهِ تتّسِعُ لِلكون...

أغنّي له، أرقص له، أحلم به، أهدي إليه أوّل مُضغةٍ من أطيب فاكهة وأوّل جُرعةٍ من أعذب مشروب، أتذوَّقُ له أوّلَ وريقات "القات" [2]، أنظِّمُ له "المهاجل" [3] والأبيات الغرامية، أختلي مع نفسي ساعات طوالاً لمناجاته ومسامرته، أطرِّز له "القحيطات" [4] والأحزمة التقليدية، أشتري له الهدايا، أعِدُ الله بالموالد وإطعام كل فقراء الدنيا إن تحقَّقَ لي حلمُ الزواجِ به!...

2 القات: نوعٌ من "العَلَف" يتمُّ لَوكُه أو "تخزينُه" خلال ساعات طويلة كلّ يومٍ في اليمن.

3 المهاجل: أغانٍ شعبية ريفية.

4 القُحَيْطَة: قطعةُ قماش تُوضعُ بداخلها موادّ يُعتقد أنها تجلب الحظ وتبعد الحسد كالملح والحبة السوداء. يختلف حجمُها حسب مكان وضعها؛ فهي صغيرة إذا وُضعت في أحد جيوب الثياب المختبئة في الصدر، وعلى شكل مثلث متوسط الحجم إذا عُلِّقتْ في أحد أركان المنزل.

لا تمرُّ دقيقةٌ واحدة دون أن يستعمرَ شوقي تفكيري وأحلامي... حياتي ضجرٌ أسودُ مميتٌ قبله. سعادةٌ كثيفةٌ يانعة منذ أن عرفته، مترعةٌ بالمشاريع والأحلام والأشواق والذكريات الخفّاقة المُسكرة!...

شعرتُ رغم تكرار زيارته (مرّتين أو ثلاثاً في العام، حتى نهاية ١٩٨٢) بأنه لا يهتمُّ بي أكثر من قبل، وأن حبّي له سيظلُّ إلى الأبد حبّاً من طرف واحد، وإن

حاول في زياراته الأخيرة أن يكون أكثر اهتماماً ورقّةً معي!...
قتلني ذلك غيظاً وأسى، وغَيرة ممن تأسرُ (أو ربما ممن يأسرنَ) قلبَهُ بدلاً مني في عدَن!... ضاعفَ آلامي اقترابُ موعدِ عودتي مع عائلتي إلى صنعاء في نهاية ١٩٨٢!...
تغيّرت الأشياء كثيراً قبيل ١ نوفمبر ١٩٨٣ (عيد ميلادي الثامن عشر) عندما اتصلَتْ بي بلقيس في صنعاء، قائلةً إن شوقي سيأتي لتهنئتي بعيد ميلادي. سألتني عمّا إن كان صعباً بالنسبة إليّ المجيءُ إلى تعِز ذلك اليوم بِحُجَّةِ زيارةِ عمّتي! "سنحتفلُ بعيدِ ميلادكِ، ثلاثتنا!" قالت حبيبتي بلقيس، بصوتٍ عذبٍ لن أنساه مدى الحياة!...
لا أستطيع أن أصف لك كم كنتُ سعيدةً بعد هذه البشارة، كأني عشتُ كلّ حياتي بانتظارها!...
شعرتُ بأني أسعد فتاةٍ في الكون! عملتُ المستحيلَ لإقناعِ والديَّ بالسماحِ لي بالسفر إلى تعز لرؤيةِ عمَّتِي وقضاءِ بضعة أيام في بيتها!... وافقا شرط أن يرافقني رضوان في رحلتي!...
اعترفَ لي شوقي بالحبِّ ذلك اليوم! قال لي: "أحبِّك!"، حتّى وإن شعرتُ بأنها من طرف اللسان!...
اعتبرتُ لذلك أوّلَ نوفمبر عيد ميلادي مرّتين: عيد حُبِّنا وميلادي، وإن كنتُ أعشقهُ منذ رأيت صورته في ١٩٧٩، قبل نحو ثلاثة عقود من الآن!...
كنتُ متأكدةً أن شوقي لم يكن جادّاً في حبِّه. لهُ عالمهُ الخاص. له معشوقاته. لكني كنتُ أموتُ من الفرح! كفاني أني أصبحتُ جزءاً من موسيقى حياته: ألم يأتِ من عدَن للاحتفال بي وحدي؟...
في لحظة اختلاءٍ لنا ذلك اليوم غافلني شوقي بِقُبْلَة!... لِقبلتهِ مفعولٌ مغناطيسيٌّ أسرني إلى أبد الآبدين!... لا شيء في الدنيا أحلى من قُبْلَتِه، كنتُ أسيرةَ سحرِها ليل نهار، أستحضرُها معظم الوقت!... ثمّ غمرَني بعبارات غرامية كدتُ أفقدُ الوعي عند سماعها!...
توالت اللقاءات في بيت بلقيس بين الحين والحين حتى نهاية ١٩٨٥!... كنتُ أعرف كيف أقنعُ والديّ بالذهاب لرؤية عمّتي كلّ مرّةٍ يجيءُ شوقي لِتعِز!... يمرّ اللقاء الغراميّ كثيفاً لا يُنسى، مُعمَّداً بالعناق والدموع واللذة. أقْتاتُهُ أشهراً كثيرة بعد عودتي. تتحوَّلُ صنعاءُ، فردوسُ الكآبة، بفضلهِ إلى فردوسِ الفراديس!...
ثمّ أشتاقُ إلى شوقي وأحتاجُهُ بضراوة. أبكي لِفراقِهِ كلّ ليلة. يعصفُني الشوقُ له ولِقُبلتِهِ وعناقِه. وحدَهما يعطيان لِعُمرِي روحاً وجسداً!... كلّ ما عداهما بكاءٌ وألم!...
تتغيّرُ الأشياء في منتصف ١٩٨٦: بلقيسُ تتزوّجُ وتسافر للحياة في دُبَي!... لا يوجد بعد سفرِها موضعٌ لِلقائي بِشوقي الذي دخل أيضاً في دوّامةٍ من المشاكل العائلية والاجتماعِية: أصيبتْ ابنته البِكر بالشَّلَل! ألزمهُ ذلك البقاء

معها على الدوام. سافر أيضاً لعلاجها أكثر من مرّة!... صَعبَ التنقلُ بين شطري اليمن أكثر فأكثر. كانت رسائلهُ تصلني بعد أشهر من كتابتِها. ثمّ انقطع تواصلنا أكثر من سنة!..

لم يعد لديّ غير البكاء والتكبّد والمرارات! نزفٌ متّصِلٌ من الأشواق والآلام! سنينٌ ظالمةٌ مُسفْلَتةٌ بالأشواك، أعبرُها وحيدةً حافيةَ القدم، أرتجفُ من البرد!... أتَّصلُ بين الحين والحين بِبلقيس في دبي! تسألني عن أخباري... أقول لها إن الكثيرين يتقدّمون لي للزواج وأنا أرفضهم جميعاً لسببٍ أجهله!...

هي، في الحقيقة، مثلي لا تجهل السبب: ذلك الأمل الباهت في الزواج بمن أعشق!... "قدَرٌ ظالم!"، تقول بلقيس بيأسٍ مركَّزٍ يهوي على كَعْبِي كمطرقة! تنصحني بأن لا أنتظر، وأن أتزوّج بأفضلِ المتقدِّمين "قبل أن يفوت القطار"، كما قالت! (كم أكره هذه العبارة الشديدة الاستخدام في يمنٍ لا تُوجدُ فيه سكّة حديد!)...

تمرُّ الأيام ثقيلةً جرداء كافرة! أختنق، أموتُ ببطء!...

لا أدري لماذا قبلتُ الزواجَ بمنيف بعد سنتين من فراق شوقي، وفي أوجِ انقطاعِ أخبارِه!

ربما لأنه كان بِعُمْرِ شوقي، من مواليد نفس المدينة والحيّ، عاش نفس الزمانِ والمكان، نفس اللحظة والواقع!

لعلّي كنتُ أبحث عن شوقي فيه بلا وعي! أو لعلّي أردتُ أن أنتقمَ بِشكلٍ أو بآخر من شوقي ومن نفسي قبل ذلك!...

في بداية التسعينيات، بعد الوحدة اليمنية مباشرة، وصل شوقي إلى بيتنا لرؤيةِ صديقهِ منيف!... فوجئتُ (صُدمتُ في الحقيقة) عندما رأيتهُ، وهو كذلك! لكنّا أجدْنا، ولله الحمد، إخفاء بَهتَةِ المفاجأة على منيف!...

عاد تواصلنا بعد ذلك اللقاء! داوَمْنا لقاءاتنا الانفرادية في صنعاء هذه المرّة، أو عندما تأتي بلقيس من دبي إلى تعز! أذهبُ كلَّ مرّة مُحمَّلةً أطناناً جديدة من اليوميات يقرأها شوقي باهتمامٍ وحب!...

عادتْ دورتُنا الدمويّة كما لو لم تتوقّف: نفس المناجاة، نفس الأشواق في كلِّ لقاء، نفس الرغبة بالبوحِ والإصغاء لِبعضنا بإخلاصٍ وحب، نفس اللذّات الصغيرة!...

حياةٌ سريَّةٌ موازيةٌ لحياتي اليومية تعبرُ هكذا سنوات عمري منذ نحو ثلاثين عاماً، تستعمرُ كلَّ أحاسيسها وتطلّعاتها وتأملاتها، تملأُ كلّ ثوانيها، لِتصبحَ جزءاً جوهريّاً من منظومتي العصبية!...

ما أزعجني بشكلٍ خاص هو أن شوقي كان يراني معشوقةً أبديّة لا غير، حديقةً سرّية. لا يصبو أن أكون زوجتَهُ ذات يوم، ولا يُعبِّرُ عن رغبةٍ ما، ولو نصف صادقة، بأن أكون يوماً كذلك!...

انسجمَ كما يبدو مع إيقاع علاقتنا بهذا الشكل الكثيف المتقطِّع، وبهذا الشوق العنيف الدوريّ، دون زيادةٍ أو نقصان!...

لم يعد يرى نفسه قادراً، بعد ما يقارب ثلاثة عقود، على تغيير موسيقاها، فيما كنتُ عكسهُ تماماً: أحلمُ في كلِّ ثانية بأن أضعَ ستاراً حديديّاً على حياتي مع منيف لأبدأ حياةً جديدةً مع شوقي وحدهُ لا شريك له!...

قلتُ له ذات يوم: – أكرهُ اسمك!

– لماذا؟

– لأنه اسمٌ على مسمّى! طاقات الأشواق التي ذرفتُها لرؤيتك منذ أكثر من عقدين تكفي لإعمارِ كوكب!...

في منتصف مايو ٢٠٠٣ طلّق شوقي زوجتَهُ وتزوَّج أخرى في عدَن كان يُحبُّها بِشكلٍ موازٍ لِحبِّهِ لي، هذا إذا لم يكنْ له عشقٌ آخر أو أكثر!... ارتبكتُ بصمت! لم أصدِّق ما فعل!...

شعرتُ بِغيرةٍ قاتلة، بِغضبٍ عنيفٍ أصم! لو كان لي أن أحرقَ الكونَ لأحرقتُه!...

بدا لي زواجُهُ هذه المرة خيانةً حقيقية، لأنه يعرف كم أريد الحياة معه لا غير، وكم أنوي التضحية لأجل ذلك مهما كان الثمن!...

استمرَّتْ علاقتنا رغم زواجِهِ الثاني بنفس الشكل تقريباً، وإن كان هناك جرحٌ لم يندمل في أعماقي!...

عاصفةٌ خرساء من الغيرة والشعور بالظلم دمّرتني بصمت!... لم يضمحل عشقي له رغم ذلك، بالعكس!... ما العمل؟... أنساقُ لشوقي رغماً عنيّ، أنقادُ له من النخاع!...

ثمَّةَ ظلمٌ حقيقيٌّ مع ذلك: هو مكتفٍ بعلاقتنا كعاشقَين يلتقيان بضع مرات في العام، يذوبان ببعضهما عناقاً ومناجاةً بكلِّ عشق الدنيا، ثمّ ينفصلان كلٌّ لِعالمهِ لِيبدآ لوكَ الحديثِ عن أشواقِهِما العنيفة وذكرياتهما المحمومة طوال أشهر!... يعرف مع ذلك أن هذه ليست معزوفتي المفضّلة!...

تواصلتُ مع أوسان في روما إثر مقالٍ له قرأتهُ في مجلّة أبحاث علميّةٍ دوليّة متخصِّصة، واشتغلتُ عليه في بعض أبحاثي!...

ربما كان لجوئي العاطفيّ إلى أوسان انتقاماً من شوقي، أو تلبيةً لِحاجةٍ لاواعية!...

لعلّكَ تعرفُ بقيّة قصة علاقتي بأوسان وتحوُّلها إلى حبٍّ يوميٍّ عاصفٍ لا حدّ له!...

صار أوسان قِبلةَ حياتي، وإن لم يملأها وحده: لم أستطع مع ذلك إغلاق الستار على شوقي! أناجيه وألاقيه كما لو لم تتغيّر حياتي كثيراً بعد أوسان (وإن تغيّرت جدّاً مع ذلك)! ثمّة نحو ثلاثين عاماً من العشقِ والولاء لِشوقي يسري في دمي!...

قبل بضعة أيّام فقط حدَّثتُ أوسان عن علاقةٍ عتيدةٍ "نخاعيّة"، بدأتْ وأنا في الرابعة عشرة من العمر، تُسيطرُ على أعصابي (لم أذكر لهُ اسم شوقي!)،

وحدَّثْتُ شوقي عن علاقة يوميّة عاصفة مع إنسانٍ (لم أذكر اسمَ أوسان) بَدَأتْ بعد زواجه الثاني في ٢٠٠٣!...

شعر شوقي ب"طعنةٍ في الظهر"، حسب تعبيره، و"تكهربَتْ شرايين" أوسان، حسب تعبيره هو الآخر!...

عرف الاثنان معاً أني، بعد عودتي من لندن، أنوي هذه المرّة التخلُّصَ السريع من منيف الذي لا أطيقه، والبدءَ بإعادة ترتيب حياتي!...

فوجئتُ إثر ذلك بأن شوقي دخل حالة اكتئاب! انفصل عن زوجته!

بعث لي إس إم إس صغيرة قبل يومين فقط: "أنا مستعدٌّ للحياة معكِ الآن حبيبتي! أتمنى أن يكون ذلك ابتداءً من ١ نوفمبر القادم، عيد ميلادك قلبي! عيد ميلاد قبلتنا الخالدة أيضاً! أليست هذه، معشوقتي أروى، أفضل هديّة لِذكرى قُبلةِ تعِز؟"...

صُعِقتُ، لم أتصور من شوقي ذلك القرار قط!...

قاطعتُها: – "أن تأتي متأخراً خيرٌ من أن لا تأتي أبداً!" مقولةٌ صائبةٌ في الزمن الميكانيكي، لكنها خاطئةٌ تماماً في زمن العشق!...

اخترقَتْ نظراتها جمجمتي، غاصت في ظلمات دماغي!... ثمّ استأنفتْ: – أوسان يعيش اكتئاباً حادّاً أيضاً! فاجأهُ قراري لأننا لم نتحدّث يوماً عن أي مشروعٍ بحياةٍ مشتركة قبل ذلك. ناهيك عن أن عشقهُ لِزوجتِه لم يهتزّ يوماً، لا حدَّ له!... ها هو ضائعٌ، يحترقُ ببطء!...

قاطعتُها: – مسكينٌ أوسان! لن يستطيع مواكبتك!... أنتِ أكبرُ من حياتهِ "الخَطِّيّة" بكثير!...

نظراتٌ قارسةٌ تخترقني كأشعة ليزر! لم تُعلِّق مع ذلك!...

واصلَتْ: – الأسوأ والأصعب: لا أعرف كيف أتخلّص من منيف الذي لم أعد أحتملُ رؤيته يوماً واحداً، لكني أخافه لأنه، كما قلتُ لك، مستعدٌّ لأن يرتكب جرائم دنيئة إذا انفصلتُ عنه، لا سيّما النيل من حياة رضوان!...

قاطعتُها: – ألا يمكنكِ أن تطلبي اللجوءَ السياسيَّ في بريطانيا وتبدئي منها إجراءات الطلاق من منيف؟... أقترِحُ قبل ذلك أن تُقنِعي رضوان بالسفر إلى مصر مؤقتاً، إلى أن يتحوّلَ الطلاقُ من منيف إلى أمرٍ واقع!...

فاجأتْها الفكرة!... لم تكن متحمِّسةً للمشروع، بَدَا لها مستحيلاً!...

أوضحتُ لها أنه ليس بهذه الصعوبة! قلتُ لها: "هو سهلٌ بشكل خاص لأنك زوجةُ وزير، ولديكِ جوازٌ دبلوماسيّ!"...

فصَّلتُ لها كيف يمكن تنظيمه وتحقيقه، وعدتُها بإعداد الملف كاملاً أنا نفسي، من وحي معرفتي للإجراءات الإدارية اللازمة في هذه الدول الغربية!...

"هذا مشروع حياتي الآن!"، قلتُ لها من القلب!...

أيقنَتْ أنه يمكنها أن تعتمد عليّ رغم أنها لم ترني لأول مرّة إلا اليوم فقط! من يصدِّق ذلك؟...

اتَّصلَتْ على التوّ، ونحن في المطعم، برضوان الذي يعرفُ كلّ معاناتها وتطلّعاتها!... بدت لها الأمور أقلَّ استحالةً بكثير، سهلةً ممتعةً أيضاً، عندما صرخ رضوان فرحاً بالخبر!...

وعدَها بشراء تذكرتهِ لمصر غداً، طمأنها كثيراً، قبل أن يقول: "سآتي حالاً للحياة في لندن قربكِ إذا أردتِ أيضاً، حبيبة قلبي!"...

أمعنتُ النظر في عينين فاتنتين تنضحان رطلاً من الدموع إثرَ عبارة رضوان!... اندفعَتْ بعد ذلك بكلِّ قوّتِها العارمة لهذا المشروع الذي أضحى أولويَّتَها المطلقة!...

نغادرُ المطعم... أروى مشحونةٌ بالحماسة، وأنا بالأمل! ثمّةَ مشروعٌ جديد لحياتها أنا عَازِفُهُ!

نتحدّثُ بحماسةٍ وتركيز كأننا نعرف بعضاً منذ عقود!...

(أفكِّرُ بصمت: سأعيش معها قريباً في لندن من يدري؟)...

ها أنا أتقدّمُ فعلاً خطوات حاسمة نحو قلبِها!...

ما إن عبرنا حيّ سوهو باتجاه بيكاديلي حتى اجتاحتني من جديد نفس رغبةِ تقبيلِها التي راودتني عندما كنّا أمام سينما إمباير!...

أردتُ أن أمحو خيبتي عندما سمعتُها تقول لي في بدء العشاء هذه العبارة الكابوسية: "أنت صديقٌ عزيز!"، أردتُ بلا وعي أن أكشف لها أني أرنو لشيءٍ أكبر من مجرّدِ الصداقة بكثيييييير!...

أردتُ أن نحتفل بمشروع اللجوء السياسيّ والخلاص من الطامّة الكبرى: الوزير منيف. أردتُ أن أُضاعف بهجة هذه اللحظة التاريخية...

استحضرتُ أوسان وشوقي معاً في هذه اللحظة بالذات وكيف انتقلت علاقتاهما بها، بعد القُبلة، من الصداقة إلى الحب!

استحضرتُ أوسان أوّلاً عندما سألتُهُ في روما: – وهيَ، في أي لحظةٍ أحبَّتكَ بشكلٍ لا رجعةَ فيه؟...

ردّ أوسان: – لا أعرف في الحقيقة! أعرف أنها منذ أن بدأتْ التواصلَ معي، كانت قد قرّرتْ سلفاً أن تكون هذه العلاقة بُعْداً هامّاً في حياتها!...

هي التي بادرَتْ ذات يوم بِاستخدامِ كلمةِ: "أحبّك"!...

كهرباءٌ صامتةٌ من الفرح سرَت في أضلعي حالما قرأتُها! شهقتُ سعادةً، لكني لم أردّ بالمثل عليها إلا متأخراً جدّاً، بعد عدّة أشهر. لم تتوقّف عن لومي على ذلك التأخُّر، ولن تتوقف كما يبدو حتى آخر العُمر!

لم استخدم مثلها أرْسَنال ذخائر بلاغة الحب إلا بعد أوّل قبلة. لأن الحبّ الحقيقي لا يبدأ إلا بعد أوّل قبلة، ولا يستمرّ إلا إذا كان قبلةً دائمةً لا تتوقّف، توحُّدٌ لا يفتر... ما قبل القبلة الأولى أوهامُ حب، أو مشروعُ حبٍّ لا غير!...

قلتُ لِنفسي: يلزمني، أنا أيضاً، أن أبادر بالقُبلة الآن، قبل أن تلوم أروى تأخّري إذن!...

تذكّرتُ شوقي أيضاَ، استحضرتُ عبارتها: "غافلني شوقي بِقُبلة!" وهي تسرد احتفال عيد ميلادها الثامن عشر في تَعِز!...

تردّدتُ... أردتُ، أنا أيضاً، أن أحذو حذو شوقي الآن (أشبههُ كثيراً)، هنا، في هذه اللحظات الجذلى من ليلٍ لندنيٍّ ربيعيٍّ شديدِ الرومانسية بشكلٍ غير طبيعيّ!...

كلُّ شيءٍ سيبدأ بيننا إذن بعد القُبلة!...

أثمة مكان أكثر عبقريةً وملاءمةً لِقُبلةٍ تاريخيّةٍ خالدة من قلب لندن: هذه الأزقّة المتاخمة لبيكاديلي والمتأجّجة حياةً وسناءً؟ أثمة مكان أنسب منه لإقلاعِ طائرةِ عشقِنا نحو أعلى الأعالي، نحو السماء الثامنة؟...

تردَّدتُ، شعرتُ بالرّجفة. لم أرَ أروى إلا اليوم فقط! لماذا التهوّر والعجلة؟... سأقبّلها غداً في سينما إمباير... ثم، لم أسيطر على رغباتي، غافلتُها بقبلةٍ مارقة!...

أوقفتني أروى بهدوء!... همسَتْ لي بِأدبٍ، بأكبرِ صدمةٍ أتلقّاها في حياتي: "أرجو أن لا تُكرِّر ذلك مرّةً أخرى إذا أردتَ أن نظلَّ أصدقاء!"...

صَدُّها المهذَّبُ لِقُبْلَتي هزَّ نخاعي الشوكي! أيقنتُ أني أخطأتُ شيئاً ما: أروى إنسانةٌ أخرى يلزمُ التفاوضُ مع قلبِها بطريقةٍ غير تقليدية!...

عدتُ بعد ذلك اللقاء إلى فندقي. اكتشفتُ أني عِشْتُ منذ الخامسة عصراً لحظاتٍ إلهية لن أنساها طول العمر! كنتُ مسحوراً من أقصى الرأس لأخمص القدمين!...

أنَّبْتُ نفسي على تسرُّعِ محاولتي الفاشلة لِتقبيلها! ثمَّ قلتُ: لا يهمّ! عرفَتْ أروى قصدي على الأقل: أنا لستُ "صديقاً عزيزاً" إطلاقاً!...

كم أكرهُ هاتين الكلمتين من شفتَي أروى! "صديقٌ عزيزٌ" للمرأة يعني "إنساناً فائضاً على اللزوم! داخل المرأة هناك دوماً، كما يقول نيتشه على لسان زرادشت، عبدٌ وطاغية متستِّران! (العبد، مثل الطاغية، لا يمكنه أن يكون صديقاً)! لذلك المرأة غير قادرةٍ على الصداقة: إنها لا تعرفُ سوى الحب!"... (وأنا لا أريد منكِ، حبيبتي أروى، غير ذلك!)...

عليّ أن أنسى ما حدثَ وأبدأ كلّ شيءٍ من جديد لِلوصول إلى غاية الغايات بطريقةٍ مختلفة!...

موعدُنا الغدُ صباحاً، في مكتبها في الجامعة!...

السارد يتحدّث:

نصوصٌ مؤجّلة

قبل أن أحكي، أنا سارد هذه الرواية، ما تلا فيها من أحداث، تلزمني استراحةُ محارب أدحرِج فيها بعض ما حذفتُ من فقرات نصوص باسل وأوسان!...

باسل ليس رحّالةً في المكان فقط، بل في الزمان أيضاً: سرَدَ وهو يتحدّثُ، عند لقائه مع أوسان بروما، بعض ذكريات طفولتهم!...

لم يكن مُجدياً، في رأيي، أن يكتظّ سردُ لِقَاءِ روما بكلِّ تلك الذكريات والأحداث، لأن القارئ كان سينساها قبل أن يكتشف دلالتها الآن فقط، أو كان سينطُّ فوقها دون إدراك فحواها، لا سيّما أن بعضها مفاصل جوهرية!...

لعله حان وقتها الآن فقط!...

الفقرة الأولى غيرُ ذات أهميةٍ جوهرية ربما، لكنها ممتعةٌ ولا شك، تُجلي شخصيةَ باسل وإعجابه بأُولِيس، بطل الأوديسة! لا تخلو أيضاً من ومضاتِ مقارنةٍ رمزيّة بين عدَن "الأوديسة"، وعدَن "سورة الحديد"!...

ها هي هذه الفقرة الذي يسأل فيها أوسانُ باسلَ (وهما يجولان في قلب روما التاريخيّ حال وصول باسل لها):

"هل تتذكّر أستاذنا، عبده البُعيصي، الذي درَّسنا بأسلوبٍ ممتعٍ شيّق، في السادس ابتدائي، شذرات من التاريخ الإغريقي والروماني وملاحمه وتراجيدياته، عندما كان ذلك جزءاً من مقررات مناهج المدارس الابتدائية في عدَن، قبل استبدالها في مناهج هذه الأيام بحفظ "سورة الحديد" عن ظهر قلب!؟...

أجبتُ:

– نعم، أتذكّرُ بشكلٍ خاص كيف كنا نموت من الضحك وهو يحكي لنا ملاحم جدِّهِ البطل العظيم "بُوعِيص" (رديف "أُولِيس")، أو عندما حرّف قصة "سبارتكوس، مُحرِّر العبيد" بِـ"بُعَيْصِيوس، مُحرّر بني بُعَيص"!...

أتذكّر كيف كان يسبقُ روايةَ كلِّ قصةٍ ملحميّةٍ إغريقيّة أو كلِّ حدثٍ تاريخيٍّ روماني بتأليفِ وحكايةِ قصّةٍ موازية، يخترعُها هو نفسه، حول جدٍّ وهميٍّ عظيمٍ له، حدثَتْ له قصّةٌ مماثلة في مملكة "بني بُعيص" (التي اخترعها نسبةً إلى اسمِه)!...

ضحكنا كأطفال ونحن نستعيدُ ملاحم أبطال بني بُعَيص! شجونٌ وذكريات كثيرة تناسلت بِعفويّة!...

يعرفُ أوسان أكثر من أيّ إنسانٍ آخر كم جذبتْني آنذاك شخصيّةُ أُولِيس، عبقريّ الإلياذة وراوي الأوديسة وبطلها، صاحبُ فكرة حصان طروادة، "رجل الألف حيلةٍ وحيلة، الألف منعطفٍ ومنعطف، الألف اختراعٍ واختراعِ"...

لعلّ أوسان لم ينسَ أني قلتُ له ذات يومٍ حُلماً طفولَيّاً غريباً: ”كم أعشقُ شخصيةَ أولِيس وحياتَه، أحلمُ أن أحيا بحّاراً فاتحاً مثله!“...“.

ثمَّ يسترسلُ باسل، في مستهلِّ لقائه بأوسان في روما، تلخيصَهُ سيرةَ حياتِه وأسفارهِ وزيجاته، قبل أن يختتمها بـ:

”صرتُ هكذا على شفا خطوةٍ من تحقيقِ حلم حياتي الكبير: أن أقضي سنوات عمري أرحلُ في سفنٍ جديدة تمخرُ عبابَ بحارٍ جديدة، أحطُّ رحالي في مرافئ جديدة، أقضّي أيامي أضطجعُ طويلاً فوق رمالِ الشواطئ الدافئة، أغتسلُ بالشمس، أتسكَّع في جزر العشق واللذة!...

لا تلوموني: حلمُ حياتي الكبير ليس أكثر من غابةٍ من التهوامِ والكسل تحت سماءٍ زرقاء ناصعة!...“.

ماذا بقي عليّ من ديون الفقرات المؤجلة قبل أن أخوض في سرد وابل بقيّة أحداث الرواية؟

فقرةٌ جميلةٌ جدّاً قالها أوسان وهو يتحدّث عن انطباعاته الأولى عند رؤية أروى (نساها أو تناساها باسل في فصلِ لقاء روما) وجدْتُها في نصِّ أوسان، لحسن الحظ!...

أكتشفتُ صوابَ جملةٍ أو جملتين من هذا المقطع عندما ذهبتُ، في نهاية ديسمبر إلى مدينة جِبْلَة، لرؤية أروى، أنا نفسي، حاملاً لها ظرف نصوص شوقي على أمل أن تسمح لي بأخذ صورةٍ منه!...

يقول أوسان:

”سألني باسل: ماذا كانت انطباعاتك الأولى عن أروى قبل أن تسقط في حبِّها؟

رددتُ: لعلّك تعرفُ أني قضّيتُ حياتي أدرسُ الماء، أشتغلُ للماء، أحيا كلّ لحظة في حياتي مع الماء، في الماءِ، ومن الماء!...

في منظّمةِ الفاو مهمّتي الأساسية المساهمة في صياغة التقرير الدولي السنويّ عن وضع الماء في كوكبنا الأزرق!...

لذلك، أقضّي حياتي أطوفُ الكونَ من بلدٍ إلى بلد لدراسةِ أوضاعِ الماء، لتقديم استشارات لكلِّ مشروعٍ مرتبطٍ بِصنعهِ، تنظيفهِ، أو استخراجه!...

لا يوجدُ بلدٌ في الكونِ لم أعبرْهُ! طفتُ صحاري أوستراليا وغاباتها، كلَّ أفريقيا والصين وجنوب أمريكا، كلَّ قرى المحرومين من الماء في أقصى أطراف العالم، كلّ الأصقاع التي تعصفُ بها الأعاصير والطوفانات!...

أتفاعلُ مع مشاريع سنغافورة وأوستراليا والجزائر وإسرائيل لِصنعِ الماء وتحليته، أعيش آلام البنغلاديشيين عندما يرون مارد الطوفان يبتلعُ جزرَهم العائمة كلَّ بضع سنوات، أزور معاهدَ دراسةِ أمراضِ الماء في الهند، أدرسُ بِشغفٍ كلَّ التكيّفات البيولوجية الداروينية للكائنات الحيّة عبر التاريخ، من الكنغر إلى الجمل، مع ظروف حياتهم المائية!...

لا أنام قبل أن يمرّ في ذاكرتي كلّ أرخبيل في كوكبنا الأزرق، كلّ بحيرة، كلّ نهرٍ ومحيطٍ وجدول!...

أعرف أكثر من أي إنسانٍ في الكون ربما أن الماء هو الرّقة، العذوبة، جوهر الحياة... لكنه الطوفان والتسونامي، العنف العاصف والشقاء والخراب أيضاً!...

لا يوجد ما هو أعظم وأرقّ وأحلى وأندى من الماء، ولا يوجد ما هو أقوى وأعتى وأغدر منه!...

في الماء تزدوجُ أقصى الرقّة بأقصى العنف، الحياة بالموت!...

أروى، aqua، باللاتينية تعني الماء! منذ أول ساعات معرفتي بأروى، وطوال كل لقاءاتنا، لم أتوقّف عن الشعور المبهوت بأنها تحمل اسمها بجدارة! هي اسمٌ على مسمّى!...

كلّما عرفتُها أكثر، اكتشفتُ أنها التجسيدُ البشريّ الحيّ للماء!...

أحبُّ أروى لأني أحبُّ الماء!...

أروى، حبيبتي، هي الماء!...".

سجّلتُ في ذاكرتي ما يلي: جذبَتْ أروى أوسانَ منذ البدء لأنها تُجسِّدُ الماء في عينيه. ثمّ أحبَّها عندما اكتشف من حميميّة علاقتها برضوان أنها "محيطُ عشقٍ" أراد الغرقَ به إلى الأبد!...

أوسان مخلوقٌ من ماء، من أروى، من aqua...

غير أني أختلفُ قليلاً مع أوسان في ربطهِ الكُلِّي بين اسم أروى والماء! أوافقه على أن بعض الشعوب اللاتينية، كالإسبان، تلفظُ كلمة الماء: أكوا، أخوا، أروى... لا أختلف معه في أن كلمة أروى تعني: "أتمَّ شُرْباً"، وأن فعل "روي" الذي يشتقُّ منه اسم أروى مائيُّ الدلالات، وأن علاقته بالماء يوثِّقها أكثر من بيت شعرٍ عربيٍّ قديم، مثل:

وماءٌ قد وردتُ لِوَصل أروى

عليه الطيرُ كالورق اللجين

وكذلك فعل "رَوَى"، أي: سرَد وحكى، يماثل بين جريان الكلمات وجريان الماء...

غير أن للكلمة دلالات أخرى مثل: أحسن وأبهى. هي أيضاً اسم أنثى الوعل، وتطلق في اليمن على نوعٍ من الثعابين البدينة الراقصة المختالة!...

شخصيّاً أحبُّ كثيراً اسم أروى، الشديد الرواج في اليمن! أحبّ ملِكةً حقيقية، من لحمٍ ودم (وليست مثل جدّتنا الأسطوريّة بلقيس!) حكمَتْ اليمن: الملكة أروى!... إذا كان لليمن أن يفخر بشيءٍ واحدٍ في تاريخه، فليفخرْ بملكته أروى!...

زرتُ في نهاية التسعينيات من القرن المنصرم أطلال قصرِها في مدينة جِبلة! صوّرتُ بالفيديو سيارات تسرقُ حجارةُ في وضح النهار، مدجَّجةً مع ذلك بآيات قرآنية، منقوشةٍ على إطارها، تحثُّ على البر والتقوى، وتُثني على أولئك الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاما!...

نشرتُ مقالاتٍ عدّة عن ذلك، تحدّثتُ فيها عن الفيديو الذي أردتُ أن أتركَهُ لِمن تُهمُّهُ استعادة القطع التاريخية المنهوبة في وضح النهار، لكنها لم تحرّك ساكناً لِسلطةٍ تتنفّسُ الفساد، تعيش من الفساد، وإذا خاطبها المرء عن لصوصيّتها وفسادها تقول: هل من مزيد؟!...

أعودُ الآن إلى الفقرة المائية التي تناساها باسل:

لماذا لم يذكر باسل في نصِّهِ ذلك الحوار الذي دار بينه وبين أوسان؟... أرهقني كثيراً هذا السؤال، فكّرتُ فيهِ طويلاً!...

وصلتُ للاستنتاج التالي: ربما لأن باسل يشعر بالخجل أمام عظمة ردّ أوسان! حبُّ أوسان لأروى حبٌّ مطلقٌ تَشكَّلَ من كينونةِ أوسان وطبيعته، من حبِّهِ للماء! فيما حبُّ باسل حبٌّ دونجوانيٌّ اندلع لمجرد السماع بحبِّ الآخرين لها! حبُّ مُقلِّدٍ يُرضي غرورَه الاجتماعي أوّلاً وأخيراً، مهما نظَّرَ حول شرعيّة ذلك الحب، وبرّرَ أولويّته بكلِّ الكلمات...

حبٌّ زنديقٍ، ليس إلا!...

حبُّ أوسان خيارٌ جذريّ للأنا الشخصية العظيمة وهي تقف عاريةً أمام نفسها وتقول: "أروى، حبيبتي، هي الماء!"، فيما حبّ باسل إرضاء لأناهُ الاجتماعية المدعية، حبُّ محاذاةٍ وتقليد، حبٌّ ضحلٌ بالضرورة!...

ثمّة بعدٌ صوفيٌّ في عِشق أوسان: انطلق حبُّه من الماء أوّلاً، ثمّ أراد أن يغرق في محيط عشق أروى (الذي أدرك لانهائيّة شواطئه وهو يراقب علاقة حُبِّها بأخيها رضوان)، أراد أن يغمره ذلك العشق، أن يكون له وحده لا شريك له، إله أروى!...

ربما لذلك أغفل باسل في نصّه تلك الفقرات المائية التي تجلي ماهيّة عشق أوسان المطلق، مثلما أغفل كليّةً ذكرَ اسمِ نوغدين في المئة وسبع صفحات التي وصلتني منه!...

لعلّه شعر بالتأكيد بتقزّم عشقهِ الضحل أمام أمواج هذه الفقرة العاتية!...

ماذا بقي الآن من الفقرات المؤجّلة؟

فقراتٌ طويلةٌ يسخرُ فيها باسلُ وشوقي من "وحدانية" أوسان في العشق! أردتُ أوّلاً حذفها كليّةً من الرواية لأنها محفوفةٌ بعدمِ الدِّقةِ، وبِكثيرٍ من التشويهات بالضرورة: مرّ سردُها بمرايا باسل ذات الانحرافات الزنديقية، ومرايا شوقي ذات الانحرافات اللعوبة!... لا سيّما أن أوسان لم يعد حيّاً ليقول رأيه فيها!

ثمّ غيَّرتُ رأيي في آخر لحظة: فقراتٌ لذيذة، تستحقُّ بدايتُها على الأقل القراءةَ والتأمل!...

لعلّها تكشفُ نفسيّتَي باسل وشوقي أكثر من نفسيّة أوسان، رغم أنه محورُ هذه الفقرات وبؤرتُها!... ليس لديّ شخصيّاً أية استنتاجات حولها تُقدِّسُ وحدانية أوسان أو تُجرِّمُ زندقة ودونجوانية باسل وشوقي!...

تبدأ هذه الفقرات بقول باسل:

"عندما حدّثني شوقي في التلفون عن أخبار "المعتصم بالله" وحياتِهِ الزوجية مع ليلى منذ ٣٠ عاماً، قاطعتهُ (لنا، شوقي وأنا، في نظرية العشق تقاربٌ ملحوظ في وجهات النَّظَر):

– عندك حق! ٣٠ عاماً أكبرُ من العمر البيولوجي لأيّ عِشقٍ إنسانيٍّ حقيقيٍّ ممكن!... ما أسهل أن تتدثَّرَ الحياةُ المشتركةُ في زمنٍ كهذا ببطانيّاتِ أهلِ الكهف!...

العشقُ الحقيقيُّ لا يغفو أبداً! هو سُموقٌ وتسلُّقٌ يوميٌّ على شفا هاوية! ذلك يعني: إذا لم يتجاوز نفسَهُ كلَّ يوم، ويصعد من قمّةٍ لِقمّة، فهو مدانٌ بالهرولةِ في هاويةِ الرتابة والاسترخاءِ والهمود والعطب!...

استأنفَ شوقي:

– أوسان "مجنون ليلى" بالمعنى الحَرْفيِّ للكلمة، مدى الحياة (يا للضحالة!). هو حالةٌ متطرِّفةٌ (مرَضِيَّةٌ ربما!) في وحدانيّته!...

رأيتُ ليلى معه في أكثر من إجازة في عدَن. ربما كان يصعبُ على من يُعاشر رائعةً طاغية الجمال لانهائية العطاء والمرح مثلها أن لا يكون أحَادِيَّ العشق! لكن اعذرني إذا اعتقدتُ أن الحياةَ الثنائية المتأبدة، أيّاً كانت، موتٌ مؤكد!...

– أوافقك من جديد! عبارة رامبو: "الحبُّ يلزمُ إعادةُ ابتكاره!" تثير تأمُّلي دائماً!... أفضِّلُ الزواجَ تعاقداً لِـ ٥ أو ٧ سنوات، يتمُّ تجديده (مثل الفترات الرئاسية في الدول الديموقراطية) مرّتين أو ثلاث في أفضل الأحوال، إذا لم نرد أن يتحوّلَ الحبُّ فساداً، والآخرُ طاغيةً، والحياةُ المشتركةُ انجرافاً نحو الوَحدةِ والتخثُّرِ والسأمِ الحتميّ!...

لكني لم أفهم ما تقصد بِـ"حالةٍ متطرِّفةٍ في وحدانيّته"!...

– بعد وصول أوسان إلى روما للدراسة، وقبل حياته مع ليلى قضّى سنتين جميلتين يكتشف خلالهما عالَمَه الأوروبيّ الجديد!... سمَّاهما بعد أن تعرّف إلى ليلى: "جاهلية العشق"!... تسميةٌ غير مناسبة، لا أحبُّها شخصيّاً!...

يحاول تناسيهما كما لو لم يكونا جزءاً من حياته! ينكرهما قدر ما يستطيع، يناضل لِمحوهما من ذاكرته!...

سنتان عاش فيهما أوّل توحُّداته الجسدية مع مُدرِّسةِ لُغةٍ إيطالية طافحةِ الرغبات، تلتْها علاقةٌ غراميّةٌ ناعمة مع صديقةٍ صغيرة، كتكوتةٍ جدّاً، تعرَّفَ إليها في حفلةٍ راقصة!...

لا أفهم كيف طمَسَتْ ليلى قلبَهُ وقالبَه لِيرفض ماضيه قبلها، وكأنه لم يحدث!...".

قرّرتُ، أنا سارد هذه الرواية، أن أحذف كلَّ نصوص قصص "جاهلية العشق"، كما سردها شوقي وباسل، وما تلتْها من علاقاتٍ قدَرِيّةٍ مثيرةٍ دهمتْ حياة أوسان العاطفية خلال ٣٠ عاماً وناضل ببسالة لئلا يسقط في إغراءاتها، لأنها

سرديّاتٌ طويلة جدّاً، بحجم نصف رواية، لا تخلو من سخريّةٍ متطرِّفةٍ (لم أحبّها) من اختيارات وسلوك أوسان...

لم أقرّر حذفَها لذلك فقط، لكن لأن شخصيّة أوسان صارتْ جليّةً الآن، وكذلك طريقتا باسل وشوقي في الحديث عنه!...

أترك الكلمة الأخيرة لباسل الذي أجّلتُ نصَّهُ هذا لِيكون خاتمةَ هذه الاستراحة:

"سأطيرُ نحو روما لرؤية أوسان في ٨ أبريل ٢٠٠٧! سأسمعُ أوسان (هذا الراهب الوحدانيُّ المتطرِّف!) يقول هذه العبارات (من يصدِّق ذلك؟) التي كم تمنّيتُ من عقود أن أكون أنا قائلها:

– أروى إعصارٌ من الرقّة اكتسح كلَّ شيءٍ في حياتي! جميلةٌ كإله! كلُّ ثانيةٍ قربها عشقٌ وموسيقى وإبداعٌ ولذّة! يكفي أن أراها لِيسقطَ فوق صدري جبلٌ من السعادة، لا ينزاحُ عنه إلا عند فراقها!...

معها تعلّمتُ أن الحبَّ الأعظم كوكبٌ لم تطأه قدماي قبلها!... قبل أروى عرفتُ العشقَ لأجل الحياة، ومع أروى عرفتُ عشقَ العشق، العشقَ لأجل العشق، أنبلَ أنواعِ العشق!...

قبْل أروى عرفتُ الرغبة، ومع أروى عرفتُ رغبةَ الرغبة، أقدسَ الرغبات!...

أروى تُسيطرُ على كلِّ عصبونٍ في دماغي، على كلِّ ثانيةٍ تمرّ!... معها أحقِّقُ (كما يقول شكسبير على لسان ماكبث) "الهدفَ الأسمى للحياة: رضاعةَ الرقّةِ الإنسانية على الدوام": أسابيع لقائنا قُبْلةٌ مستديمةٌ لا تتوقّف لحظةً واحدة، نحترقُ رغبةً في مواصلةِ الرغبةِ بها بشغَفٍ أكبر حتى أبد الآبدين!...

نعيشُ معاً لِهدفٍ واحد نتمنّى الوصولَ إليهِ ذات يوم: أن نؤبِّدَ أوّلَ قُبلةٍ لنا خلف الباب، دون توقّف، حتى آخر العمر! لا نستطيع أن نفترق ساعات قليلة فقط دون أن تُسيطر علينا رغبةُ اللقاء السريع من جديد، بِلهفةٍ مجنونة، لِمواصلة تلك القبلة، كأنّنا لم نرَ بعضنا منذ سنين!...

لماذا نحيا؟ ما هو مشروع حياتنا؟... لا شيء غير قُبْلَةٍ حرّى تتأبدُ كلَّ يوم، كلَّ ساعة، حتى لحظة الفناء!...".

باسل يتحدّث:

دولابٌ يدفعُ نفسهُ بِنفسِه

قلتُ: "كنت مسحوراً" بعد لقاءِ البارحة بأروى، ودعوتِها لي للعشاء، وبوجِها الذي لا يعرف مجموعَ تفاصيله إلا هي وأنا فقط. رغم القبلةِ الفاشلة...

الحقُّ، لم أرَ بعدُ إلا شذراتٍ من سناءِ أروى!... توجّهتُ صباح اليوم التالي إلى مكتبِها في المختبر في جامعة لندن، حيث تُقضّي معظم اليوم!...

استقبلتني بحفاوة، أجلَستني على كرسيٍّ أمام منضدة صغيرة في ركن مكتبها. أواجِهُها تماماً!... أراقبُها تشتغل، أسألُها بعض المعلومات وأنا أعدُّ ملَفَّ طلبِ لجوئها إلى بريطانيا، أتصفّحُ الإنترنت على كمبيوتر مكتبها، أتحدّثُ معها بين الحين والحين!...

نخرجُ في نهاية العصر باتجاه قلب لندن، لِـ"التّسَيْنُم"، حسب تعبيرها، للتسكّعِ الهائم والعشاءِ والسهرة... قبل أن أعود إلى غرفة فندقي مسحوراً أكثر من قبل!...

أربعة أيامٍ مرَّتْ على هذا المنوال، كَحُلم! استنشقتُ خلالها أروى دون توقّف: عطرٌ إلهي يفوحُ من كيانها كلّه! أصغيتُ لِسيمفونيّةِ حياتِها اليوميّة بِكلِّ حواسي!...

ما أذهلني قبل كلِّ شيء فيها هو ملَكةٌ نادرةٌ: أروى تمتلك عشرة أدمغة تشتغلُ معاً في نفس الوقت!... لِأشرحَ نفسي:

أوسانُ، على سبيل المثال، يمتلكُ دماغاً واحداً: لا يجيدُ قيادةَ السيارة إذا كان يتحدّث في نفس الوقت، كما لاحظتُ في يومي لقاء روما. إذا دهمهُ قلقٌ ما لا يستطيعُ أداءَ أي نشاط آخر!

هو، كما تقول ليلى: "صفرٌ أو واحد، مثل شرايين الكمبيوتر، يمرّ فيها التيّار أو لا يمرّ! أوسانٍ كمبيوترٌ مُؤَنْسَن! كينونةٌ أو لا كينونة، حسب تعبير هاملت! إمّا أن يُعطي كلَّ عصبونات دماغِه، كلَّ خلايا جسدِه لعشقٍ واحد فقط، لِهوَسٍ واحد فقط، أو لا يُعطي شيئاً!"...

أنا أمتلكُ دماغين في أكثر الأحوال: أستطيع على سبيل المثال قيادةَ السيارة وإرسالَ إيميل من التلفون. يمكنني بسهولةٍ وسعادة قراءةُ الصحفِ وأنا في الحمّام! لعلّي تعلّمتُ أثناء دراسة الترجمة الفوريّة كيف أجعلُ نصف دماغي يُصغِي والنصفَ الآخر يُترجم ويتكلّم في نفس الوقت!...

أما أروى فهي تواصلُ أبحاثَها الكيميائية في المكتب بشغفٍ حاد، تُراقبُ وتُحلِّلُ نتائجَ بعضِ التجارب العمليّة بتركيزٍ دقيق، تُضيفُ فقرةً جديدةً إلى مقالٍ بحثيٍّ تُعدُّه لِمجلةٍ علميّةٍ مُحكَّمة، تتسلمُ إس إم إسات ومكالمات تلفونية من كل أنحاء العالم، لا سيّما اليمن، تردُّ عليها، تبادرُ بالاتصال التلفونيّ وإرسالِ

الإس إم إسات لهذا أو ذاك، تُسقِطَ قلبَ هذا أو ذاك، تَحُلّ مشاكلَ البعض منهم بشكلٍ مباشر، تُصغي إليّ وتردُّ على كلِّ ما أقول!... كلُّ هذا في نفس الوقت، بِنجاحٍ مدهش!...

هي في نفس اللحظةِ: معي بكلِّ جوارحها. مع أعضاء المختبر تتفاعلُ وتساهمُ في حواراتهم ونقاشاتهم العلميّة الدائمة. مع معشوقيها الرئيسين: أوسان وشوقي في مناجاتين غراميّتين وحوارين فاعلين لا يتوقّفان. مع معشوقها الأوّل والآخر، الظاهر والباطن، رضوان، ووالديهما، تندمجُ معهم كلّ ساعة بشكلٍ أو بآخر. مع جائعاتِ صنعاء اللواتي يستغثنَ بها بالإس إم إسات والتليفونات أمامي، مع أصدقائها وصديقاتها في كلِّ أرجاء الكرة الأرضية تتابعُ أحوَالَهم وتمدُّهم بجديدِ حياتِها اليوميّة وخواطرهاِ. مع نفرٍ من عُشّاقٍ جددٍ تتركهم يموتون ببطء أو يمارسون استيهاماتهم دون صدّ، إن لم تستمتع قليلاً بإغوائهم ومغازلتِهم ومتابعة ترنّحات وانزلاقات عواطفهم. مع آخرِ أخبار البؤس والنهب والفساد في الصحفِ اليمنية. مع تفاصيل يوميات شعبٍ يمنيٍّ منطفئ، يُجيدُ النومَ وسط مستنقع، تحكُمُهُ وتستنزفهُ منذ ٣٠ سنة عصابة لصوصٍ متخلّفين جهلة يقودها طاغيةٌ نصف أمّي!...

استحضرتُ ما قرأتهُ ذات يوم: النساء الآتيات من البيئات الاجتماعية الظلامية، أو الدول الشديدة الانغلاق (مثل إيرانِ آياتِ الله)، واللواتي اخترن، بإرادةٍ قويّةٍ وقرارٍ شخصيٍّ حرٍ، عدمَ الخضوع لِبعض قيودِ الواقع مهما كان الثمن، دون الهروبَ منهُ أو التنكّرِ له، واستطَعْنَ لذلك، وفق مشروعٍ شخصيٍّ متميّزٍ، الموافقةَ والتناغمَ بين اختياراتهنّ الفردية الحرَّة وتقاليد الواقع، هنّ خارقات هذا الزمن!...

سأكتشفُ صحّةَ ذلك في أروى: من هذا التجاذب بين الانفتاح والانغلاق، التوازن واللاتوازن، المحافظة والتحرُّر، الالتزام والرفض، ولِدتْ أروى!...

ثمّة شكٌّ وتساؤلٌ وُجُوديّان مُبدِعان مُتواصِلان في تناقضها الخلّاق، بحثٌ غريزيٌّ دائمٌ عن تجاوزِ الذات، قوّةٌ جبّارةٌ مدهشة!...

هيَ لذلك نَعَمٌ نقيٌّ خالص لِسؤال نيتشه: "هل أنت طاقةٌ جديدة وحقٌّ جديد؟ دولابٌ يدفعُ نفسهُ بنفسه؟ سيكون بإمكانك إذن أن تُرغم النجومَ بالدوران حولك!...".

أربعة أيام مع إحدى خارقات هذا الزمن أعادتْ صياغتي من جديد!...

مرَّتْ لسوء الحظّ سريعاً أروع ساعات حياتي وأنا أراقب هذه الأروى في مكتبها! أعيشُ معها حياةً مشتركة لا ينقصها إلا الاندماج الجسدي!...

لم يعد ذلك هَمِّي قطّ الآن! لعلّي أحبُّها حقّاً إذن! أتساءل: هل أحببتُ بهذه الضراوة يوماً قبل أروى؟ هل أحببتُ قبلها حقّاً؟...

أزدادُ عشقاً وجنوناً مع كلِّ ساعة تمرّ، عند كل ضحكةٍ لها وهي تتحدَّثُ في التليفون، عند رؤيتها تُحقّقُ بإصرار برنامج عملها كلّ يوم، مهما كانت الظروف.

تبدأ لقاءَنا، ونحن نتناول القهوة اليمنيّة في مكتَبِها في التاسعة صباحاً، بِشرحِ ما تنوي إنجازَه طوال اليوم من مهمات عمليّة وشخصيّة!... يبدو لي حجمُ ذلكَ خيالياً كلَّ مرة! ثمّ عند نقاشنا في العشاء ألاحظُ أنها أنجزت كلَّ شيء، حتى وإن تعطّل جهازٌ كيميائي أو تباطأ كمبيوتر أو غاب زميلُ عمَل، وكأنَّ ثمّة قوىً فوق–طبيعية تؤازرها كلّ مرة!...

عندما تكون أروى في معمعان تحليلِ تجربةٍ ما، أو قراءةِ مقالٍ بحثيّ على الإنترنت، أو في نقاشٍ مع باحثٍ في المختبر، أهيم وحدي في عوالم أخرى!...

أتأمل في ما حصل لأربعةٍ كانوا في نفس الصفِّ الدراسي قبل ٤٠ عاماً، فرَّقَتْهم الحياةُ، ليجدوا أنفسهم بعد ذلك في طائرةٍ بمنطادِ نجاةٍ واحد، تهرولُ نحو هاوية!...

أسخرُ أيضاً من كلِّ واحدٍ منّا الأربعة! أبدأُ بأعزِّ أصدقائي "المعتصم بالله": أوسان ليس أكثر من "الأوَّل مكرَّر" في توزيع شهادات أروى، هو "نصفُ حُبٍّ ليس إلا"، مطعونٌ بِعنف في نخوتهِ وكبريائه!

أذلّتْ أروى غطرسة طهارتهِ الفائقة! ما أصغره الآن وقد انزلق تاجُ عشقهِ الوحداني إلى الوحل!...

أسخرُ من شوقي ثانياً: طلّقَ زوجتَهُ أخيراً لأن أروى قرَّرَتْ أن يستولي واحدٌ فقط على مملكةِ أحضانِها! ما أبلدَه! لماذا تأخَّر هذا العُمر؟ أيلْزمُهُ تهديدُ أروى بالانفصال عنه ليستفيقَ من سباتٍ دام معظمَ عمره؟ لماذا تركَ أوسانَ "القرصانَ الذي لا يُبقِي لِشوقي شيئاً" كما كنّا نقولُ قبل ٤٠ سنة، يسلبُ منهُ اليوم أرواه (أو نصف أرواه، في الحقيقة)، أندى قصيدةٍ إلهيّة؟...

(علاقة أوسان وشوقي تخفي سرّاً لم أفهمه منذ طفولتنا حتى الآن! كان شوقي يعتبر أوسان قرصاناً لا يتركُ له مجالاً يتألق فيه: عندما كتب أوسانُ الشعرَ واستحوذنا شعرُهُ كثيراً، كنا نردِّد: "ماذا بقي لك يا شوقي؟"...

أزعجَ أوسانُ شوقي الذي يعتبرُ الشعرَ مملكتَهُ الوحيدةَ الممنوعةَ علينا "عُشّاقِ العلوم والرياضيات" (كنتُ مثل أوسان أحبُّ هاتين المادتين إلى حدٍّ ما)...

لعله يُضمِرُ لأوسان عداءً رهيفاً وحذَراً ما، منذ تلك اللحظة! يعتبرهُ "غريمَهُ الوحيد" في هذا الكون إذا لزمَ أن يكون لهُ غريم!... يُحبُّهُ بِقُوّةٍ أيضاً!)...

أسخرُ من "طيز الرّبح" ثالثاً! أحاولُ أن أتخيَّلَ وجهَهُ يضطرمُ احمراراً (مثل يومِ اكتشاف تزويرهِ عند توزيع الشهادات المدرسيّة قبل نحو أربعين سنة) وأنفاسَهُ تنقطعُ تماماً حالما تدحرجُ أروى أمامه، في لحظةٍ شكسبيرية مؤلمة من حديثٍ عاصفٍ لهما، اسْمَيْ من عشقَتْهُما وتعشَقُهما أبداً: أوسان وشوقي!...

ما أروع انتقام القدَر من منيف! ما أجدرهُ بالسقوط في الوحلِ الملتصقِ بقاعِ روحِه!...

أسخرُ من نفسي قبلهم جميعاَ: وصلتُ إلى المعركة متأخراَ عدّة عقود، وإن كنتُ الوحيدَ من محاربيها الذي يعرفُ هويّةَ خصومه، مواقعَهم، جبهاتهم، إمكانيات نجاحهم!... صَدّتْ أروى قُبْلتِي واختارتْ أن أكون "صديقاً عزيزاً" لها، لا غير (ما أبشعَ هاتين الكلِمتين)! أنا الذي خُلِقتُ وحدي لها وخُلِقتْ وحدها لي!...

***

في عصر رابع يوم كنتُ على وشكِ إنهاءِ ملفِّ طلبِ أروى اللجوءَ إلى بريطانيا. وصلت إس إم إس من اليمن من أحد أقاربها: "رضوان في المستشفى! حصل اعتداءٌ عليه وهو في السيارة!"...

وقعَ الخبرُ عليها كصاعقةٍ تخترقُ قصراً من الكريستال!...

كارثة الكوارث!...

كلّ شيءٍ يمرُّ بسرعةِ البرقِ بعد ذلك:

خائفة، حزينة، مخذولة، شاحبة، أروى تُقرِّرُ على التوّ العودةَ إلى اليمن صباح اليوم التالي، قبل انتهاء دورتِها الجامعيّة بأسبوع!...

تخرجُ من المكتب، تَعِدُ مسؤولَ المختبر بإرسال إيميلٍ من اليمن يتضمّنُ تقريرها النهائي عن أبحاثها خلال فترة هذه الدعوة الجامعيَّة...

تودِّعُ الجميع، تشتري تذكرةَ السفر، تعودُ إلى شقَّتِها لِتجهيز حقيبةِ السفر، وأعودُ إلى فُندقي!...

موعدُنا غداً في التاكسي الذي سيُقِلُّها إلى المطار!...

لم أنَمْ طوال ليلةِ سفرها! شعرتُ بالدوار وتأنيب الضمير: لعلّي سببُ ما حصل لرضوان، لأني صاحب مخطط اللجوء السياسي الذي يبدأ بسفر رضوان إلى مصر!...

ستسافرُ وتغيبُ عنّي من صارت حياتي دونها لفيفاً هائلاً من لا أشياء صغيرة، سيلاً طويلاً من عَدَم!...

اكتسحتني إرادةٌ عاتيةٌ للانتقام، ضغينةٌ ناريّة، حقدٌ من كلِّ شيءٍ في الكون! عاصفةٌ من الغضب!...

لم أغلقْ جفني، أفكِّرُ وأفكِّرُ!... اتخذتُ قرارات مصيرية أقسمتُ أن أحقِّقها مهما كان الثمن!...

مثل أولِيس الذي قرّر، هو نفسه، أن تكون بينولوب نهايةً لِعلاقاتهِ ومغامراتهِ مع أجمل الحسناوات وأنصاف الآلهة، مثلهُ تماماً، قرّرتُ أن تكون أروى بينولوبَ نهايةِ حياتي، غايتي وصيرورتي، مهما كان الثمن الذي سأدفعُه أو سيدفعُه غيري!...

هي بينولوب وهيلين في نفس الوقت! هيلينُ التي تحتفظُ لِنفسها بشكلٍ موازٍ عنيد، بِعشقٍ غريبٍ جدّاً لا يتزحزح، شوقي، الذي شبَّهتُهُ بِالملك مينلاوس!...

هيلين التي استحوذَتْ دماغَ أوسان، اقتلعَتْ كلّ أحاسيسه وطمسَتْ قلبَهُ وقالبَه. شبّهتُهُ بالملك باريس الذي تفجَّرتْ حربُ طروادة لأنها اختارته!... للوصول لها سأقاتل، سأموت إذا لزم الأمر!...

عليّ أوّلاً، وقبل كلِّ شيء، أن أحقِّق المهمة المستحيلة: أن أزيح زوجَها، منيف، الذي لم تستطع أروى بكلِّ إرادتها وقواها دحرَهُ، لأنه أصبحَ وحشاً همجيّاً متسلّطاً، أخطبوطاً متأصلاً في كلِّ شيء، وزيراً نافذاً ذا سلطةٍ سياسية وعسكرية هائلة، أحاطها بألف سياجٍ ورقيب! اعتدى على أقدس كائنٍ في حياتها، رضوان!...

بحثتُ وفكّرتُ ساعاتٍ وساعات عن طريقةٍ ذكيّةٍ (لا تُضاهيها إلا حِيَلُ أُولِيس، صاحب فكرة حصان طروادة!) للتخلّصِ من هذا "البعل الشيطاني"، حسب تعبير أروى!...

بعد ساعات من التفكير المرهق تجلّى وميضُ الخلاص منه: نوغدين!...

رسمتُ لِهلاكِ منيف مُخطّطاً وحشيّاً مجرماً، عبقريّاً مع ذلك!... سأسرِّبُ بعض روائحِه غداً لأروى أثناء توديعها في مطار لندن!... سيكون مخطّطاً شريراً، لا يهم! (ثمّة على الأقل مأثرةٌ في أن يكون الشريرُ عليماً بأنه شرير، كما قال أحدهم!)...

عليّ ثانياً أن أحلّ المشكلة الأكثر استحالة: لا يوجد مليمترٌ مربَّعٌ واحدٌ شاغرٌ في قلبها: أروى تعشقُ اثنين على الأقل (ويعشقُها ألفٌ بالضرورة!): عشقَانِ جذريّانِ متأصِّلانِ في إيقاع دورتِها الدموية، لا أطيقهما معاً، عليّ أن أزيحهما من حياتِها معاً بِأي ثمن!... دون الحديثِ عن رضوان الذي يسكنُ جلدَها منذ ولادتِها، أو من قبل ذلك بقليل!... ودون الحديث عمّن لا أعرفهم ممن تُحبُّ أو تعشقُ قليلاً أو كثيراً!...

عليّ أن أزيح "على الماشي" كلَّ العُشَّاقِ الصغارِ الذين يلهثون حولها، هنا وهناك، ليل نهار!...

قرّرتُ أن أسافر إلى اليمن وأحشر نفسي في هذا العالَم الذي هجرتهُ دون ندمٍ منذ عقود، أن أسطو عليه، أن أسقطَ عليه كصاعقةٍ تُهدِّم السقف! أن أُدمِّرَ كلَّ شيء!... لا أبحث فيه إلا على حِصَّتي من الضوء: الشمس، كلّ الشمس!...

مشروعٌ انتحاريّ!... عليّ أن أخوض ضدّ كلِّ هؤلاء "المتطفِّلين" (هكذا أسميهم جميعاً!) "حربَ المُدَّعيين" التي خاضها أوليس، بعد سنوات الشتاتِ والتيهِ في البحار، قبل الارتماء أخيراً في أحضان بينولوب، في قصرهِ بمملكةِ إيتاكا!...

سألتُ أروى وأنا معها في التاكسي المُتَّجهِ إلى مطار لندن، بعد أن أهدَتْني قنينةَ عسلٍ دوعنيّ لم تفتحها في لندن:

– أُعذُريني إذا سألتكِ هذا السؤالَ المُحْرِج: أثمة علاقةٌ جسديّة بينك وبين وزوجك؟...

– لا، منذ أكثر من عدّة أشهر قبل سفري!... لماذا تسألَني ذلك؟...
– لشيءٍ في نفس يعقوب! هل تتوقّعين أن جِمَاعكما ممكنٌ مرَّةً أخرى؟
– يستحيلُ ذلك! لن أغفرَ لهُ يوماً ما عملهُ لِرضوان!...
– هل يمكنني أن أطلب منكِ طلباً ثمنهُ الحياة أو الموت؟...
– تفضّلْ!...
– ارفضيه إذا ما حاول الجماع بك، لا قدّر الله!... إذا لم ترفضيه فسيحملُ لك فيروسات الموت!... لن أقول أكثر مما قلتُ: الحليم تكفيهِ الإشارة!...

لم تفهمْ ما قُلتُه!...

غُصْتُ في عينيها وهي تنظرُ نحوي باستغراب أمام باب قاعة المسافرين في مطار لندن!... في غياهبهما تساؤلاتٌ مزدحمة، ألمٌ عميق، عواصف، وصليبٌ يتسمَّرُ عليه نبيّها الجريح: رضوان!...

ابتسمتْ ابتسامةً خفيفة غائمة!... لعلّها فهمتْني قبل أن أطلبَ منها ذلك (فِطْنَتُها خارقةٌ، كما قلتُ ألف مرّة) قبل أن تقولَ آخرَ كلمةٍ ستغادرُ بعدها لندن: "شكراً!"... شكرتُها على هدية العسل مرّة ثانية وثالثة!...

ثمّ عادتْ بعد خطوتين لتصافحني من جديد: "شكراً أيضاً على ما تنوي عملَه!... أشعرُ بالخوفِ والتقزّز من ذلك!"، ولِتحتضنَني ثانيَتين (دون أية قُبلةٍ لسوء الحظ) أعتبرُهُما مع ذلك أهمّ ثانيتين في حياتي!...

لعلّها استوعبَتْ بالتأكيد ما أنوي عمله بمنيف عندما طلبتُها أن لا تُضاجعه بعد اليوم!... لعلّها باركَتْهُ ضمنيّاً أيضاً رغم شعورها "بالخوفِ والتقزّز من ذلك!"، كما قالت!...

ألم تقل قبل أيّام: "من سيحرِّرني من منيف؟"...

تكفيني هاتان العبارتان!...

ما سأقوم به بالتأكيد "مهرُ العشق" الذي عليّ أن أدفعَهُ لأنال قلبها!...

لِيشهدَ الجميع: أنا محرِّرُها، أنا قاتلُ منيف وهي مباركةُ ذلك!...

في نظراتي التوديعية ألمٌ كافر لِفراقِها، سعادةٌ هوجاء لاحتضانها، دمعتان حبيستان، وبلاغةٌ خرساء تهمسُ: "خذيني معك أروى، ومن بؤسيْنا قد نصنعُ نوعاً من السعادة!"...

آوسان يتحدّث: ثلاثة طيور برصاصة مَنَوِيّة واحدة

بعد ساعةٍ واحدة، يتّصلُ صوتٌ مدلَّلٌ جدّاً بغرفةِ نوغدين، مِهنيُّ الانسيابيةِ والغنج: – هل تحبُّ سهرات الفندق؟

– نعم، بالتأكيد!... لكن كيف عرفتِ رقم شُقَّتي أوّلاً؟، يسأل نوغدين!

– ذكرْتَهُ أمامي لِلأستاذ باسل!... أهناك مشكلة حبيبي؟...

– بالعكس، سعيدٌ جدّاً بذلك!، ردّ نوغدين.

صمتٌ متعمّدٌ طويل. ثم تسألُ نوغدين: – أيمكنني أن أرافقكَ إلى سهرة الليلة؟

– بالتأكيد، Bien entendu، قالها بالفرنسية!...

تردُّ عليه بأنّة دلال، قبل أن تسأله: – لماذا لا تأتي إلى غرفتي للبحث عني إذن؟ أنتظركَ بِشوق!...

– كم رقم غرفتِكِ؟

– ٤١٧

– أُفضِّلُ أن تأتي أنتِ إلى غرفتي؛ لأنها أقرب بِدَورَين لِبُوفيه الفندق من غرفتِك!

– حاضر، مُرْ ما شئت حبيبي، أوامرك رغباتي!... سأجهّزُ نفسي، وسأصلُ بعد ربع ساعة!...

– في انتظارِك!...

تصلُ غرفةَ نوغدين مرتديةً نفس ملابسها التي تُهيِّجُ الوزيرَ منيف! تضعُ معطفها على الأريكة! عطرٌ كثيف، ماكياجٌ باذخ!...

تسألُ نوغدين إذا لا يُضايقهُ أن تشربَ وإيّاه كأساً في غرفتهِ قبل النزول لقاعة السهرات!...

"بالعكس!"، Au contraire، ردَّ نوغدين بالفرنسة! "أشعرُ بالظمأ، أنا أيضاً!"...

يصبُّ لها كأسَ ويسكي، وله كأسَ حليب!... تسألهُ إن كان لا يحبُّ الويسكي، بالمصادفة!...

يرد: "Au contraire! لكني أفضّلُهُ أثناء السهرة، وليس قبلها!"...

تتمتم مبرطمةً قليلاً: "آه!"...

ثمّ تسألهُ: لماذا تُحبُّ الحليب إلى هذا الحد؟ يردُّ: "لأنه يفتحُ لي الشهيّة للويسكي!"...

تتمتمُ، مبتسمةً جدّاً هذه المرّة: "آه!"...

ثمّ تخفتُ ابتسامتُها، تتساءل: – يُقال إن اختلاط الحليب بالكحول يؤدي إلى التقيؤ!...

– هذه ليست حالتي!... أحبّ الحليب قبل الويسكي؛ لأنه يسمح لي بِشرب ضِعف ما أستطيع شربه منه، من دون أن أسكر!... ربّما أكثر من الضِّعف أحياناً!...

– عجيب ذلكِ، حبيبي... تردُّ مبتسمةً بإعجاب وأنّة غنج!...

يقدِّمُ لها كأس الويسكي!... تقبضُ معصمَه بدلال، تجرُّ أنامله لشفتيها... تفترسُها لهفةٌ شبقيّةٌ حقيقية لِجسدِ هذا الشاب-الأيقونة.

لعلها فقدَتْ مقدرتَها على الانتظار تماماً!... تتّجهُ بشكلٍ عموديٍّ للهدف!... لا تبدأ بالقُبَل، المومسات لا يمارسن القُبَل!... تتجِهُ لفتحةِ البنطلون مباشرة!...

يرفضُ!

هو يفضّلُ الالتحامَ المباشر أوّلاً، كما قال لها!... والمصَّ "حلوى" للنهاية، كما أضاف بابتسامةٍ خفيفة!...

ترضخُ لنواميسهِ التي تبدو لها معقّدةً قليلاً!

يستحقُّ ذلك وأكثر، هو أكبر من حلم، يثيرها أقصى حدود الإثارة!...

يلتحمُ بها بضراوة وعجَل. يفرغُ ثلثَ رغباته بمهنيّة (ينسى كلّ دروس الوَرعِ والتقوى التي تعلّمها منذ أشهر طويلة) قبل أن يطلقَ رصاصاته المنويّة الأولى صوب الوزير منيف، العصفور الأوّل. "من أجلِ إنهاء حياة هذا الوزير المجرم أولاً"، كما طلب منه أبوه الروحي باسل!...

تريدُ مصَّهُ بعد ذلك! من هنا تبدأ سيطرتُها على عملائها!...

هي "حوريّة بحر" من نوعٍ مفترسٍ فتّاكٍ خطير: تُغنّي لهم مصّاً، تُسكرُهم مصّاً، قبل أن تقضي عليهم!... ألم يقلْ لها كلُّ من مصّتهُ إنه لا تُوجد في الكون امرأةٌ تمصُّ مثلها بنفس التفاني والتفنُّنِ، بنفسِ المهارة والمهنيّة، وبنفسِ الأسلوب الشخصيّ الشديد التميّز والفرادة؟...

همسَتْ في أذنِه: - مَصِّي سيمفونية، أجمل السيمفونيات!...

يرفضُ!... رصاصاته المنوية أغلى بكثير من التبذير في متعاتٍ دنيويّة فانية! لها هدفٌ جهاديٌّ أكثر سموّاً وقدسيّة، لأنها مكرّسةٌ لإبادة الفاسدين من حكّام الأمة الإسلامية لا غير!...

يُفضِّلُ الالتحامَ من جديد!...

يُفرِغُ الثلثَ الثاني من رغباتِهِ بِمهنيّةٍ استعادت أمجادها التليدة التي تأسست وهو مراهقٌ في الخامسة عشرة!...

يدوم التحامُهُ طويلاً هذه المرّة (ينسى خلاله هدفَهُ الجهاديّ الذي لا يحتاج بالضرورة لِضرب الأرقام الرومانسية القياسية في طولِ الالتحام ومهارةِ تقليب مراقصتهِ ببهلوانية، في كلِّ الاتجاهات) قبل أن يُطلقَ رصاصاته المنويّة الثانية في حناياها، صوبها هي نفسها هذه المرّة، العصفور الثاني. "ومن أجلِ إنهاء حياة هذه العاهرة التي تمتهنُ العادات والتقاليد الدينية للركاب الطيبين ثانياً"، كما طلب منه أبوه الروحي باسل، حسب ترتيب الأولويات التي سمعها منه!...

تصِرُّ هذه المرّة على مَصِّه!... تصرُّ بشدّة! انتصارُها عليه سيبدأ من هذه اللحظة، من بدء السيمفونية!...

يرفضُ بعناد! يُفضِّلُ الالتحامَ الجهاديّ من جديد (شهوتُهُ لا حدّ لها: خلفُهُ أشهر من الحرمان الجنسيّ، لم يعد يستطيعُ عدَّها)!...

يَعِدُها بموافقتهِ على المصّ بعد الجولة الثالثة فقط!...
يُفرغُ الثلثَ الأخير من رغباته، بفضلِ مقدراتهِ البدنيّةِ المتميّزة ولِياقتهِ المرموقة، وفاقتِهِ التي تستفيقُ بعنف بعد أشهرٍ من التصومع والتقوى. وبِفضلِ ملعقةِ العسل الدوعنيّ، وتوقُّدِ هذه المضيّفةِ الاستثنائية التي كلّما ملأها تقول: هل من مزيد، قبل أن يُطلقَ رصاصاته المنويّة الثالثة من أجل زواجِ أروى وباسل هذه المرّة، العصفور الثالث. "ومن أجل زواجِنا أروى وأنا ثالثاً"، كما طلب منه أبوه الروحي باسل، حسب ترتيب الأولويات التي سمعها منه!...
تنزلُ لِمَصِّهِ قائلةً بغمزةٍ ناعمة: "وَعْدُ الحرّ دَينْ!"...
يصدّها... ينهضُ لِيأخذُ كلَّ ملابسها ويرمي بها بحركةٍ هادئة خارج باب غرفته، جعلت بدنَها يقشعرُّ ويتجمّدُ من الصدمة!...
لم تفهم شيئاً. تتساءل: هل يطرُدها فعلاً؟ لماذا؟ هل يكره المصّ إلى هذا الحدّ؟... قبل أن تصرخ بالفرنسية: "ماذا تفعل؟... أنت مجنون! مجنون!"...
يقول بعنفٍ مثلّج ونبراتٍ باردة، وبالعربية الفصحى أيضاً: "اخرجي حالاً لعنكِ الله!"...
لم تفهم شيئاً مما يحدث!... تنفجر بكاءً، تبكي بعصبيّةٍ تثير الرثاء! دموعُها تسيل حرّى على عينيها الملطّختين بالكحل، ووجنتيها المكتظّتين بِماكياج ملوّثٍ بِرذاذ!...
تصرخ بنظرات فاغرة مكسورة: "أنت مريض، يلزمك العلاج! أنت مجنون!"... صمت، عويلٌ من جديد، أنّات محمومة. تنتظر أن يخرجَ من نوبةِ جنونه، عبثاً... قبل أن تضيفُ بالفرنسية، بنبراتٍ مبحوحة: "Pitié، الرحمة! أرجوك..."
يردُّ ببرودةِ تمثال، وبعربيةٍ فصيحة: "أكرّر: اخرجي حالاً لعنكِ الله!"...
تستجديه، تبكي بحرارة: "أرجوك، ارحمني! قلْ لي كلمةً طيّبةً واحدةً على الأقل، قبل خروجي!"...
يقول بنفس النبرات المثلّجة: "أكرّر للمرّة الثالثة: اخرجي حالاً لعنكِ الله!"...
تتوجّهُ المسكينة إلى الحمّام بحثاً عن منشفة تحيط بها جسدها المنهك للخروج إلى الرواق بحثاً عن ملابسها...
يعرفُ نوغدين شيئاً واحداً يئنُّ في عظامِه: لن يمارسَ العشق بعد هذا اليوم قط!...
تغيبُ عيناهُ في الفراغ، يشعرُ بأن أعصابَه هامدةٌ، خامدةٌ، مُكَلْسنةٌ تماماً!...
يصمتُ طويلاً وهو يتقلّبُ على الفراشِ في كلِّ الاتجاهات!... لا تناسبهُ جهة... تلتهمهُ حيرةٌ تأخّرتْ عن موعِدها كثيراً!...
تفتحُ المضيّفةُ المهزومة البابَ من جديد، وقد ارتدت ملابسَها بِعجلٍ في الرواق. تدحجُ نوغدين قبل المغادرة بِنظرة جريحةٍ حاقدةٍ أخيرة. تنتظرُ منه كلمة طيّبة...
لا صوت: تمثالٌ عارٍ بديعُ الجمال، مضطجعٌ في السرير.
في عينيه موتٌ كثير.

لِلّحظات روائحِ جنائزية كئيبة...
ثمّ ينفجرُ بكاءً لِوحدِهِ بعد أن غادرت بدقائق، دون أن يدرك السبب! يبكي كطفل، يبكي دون توقّف... دموعٌ كثيرة تنهمر في جوفه بحرارة!... لعل بينها دمعةَ ندمٍ على اغتيال هذه الفتاة المسكينة!...
هي في كلِّ الأحوال تعرفُ مِمّن وكيف ستنتقم: بعد أيّام ستسافر إلى اليمن في مهمّةٍ وطنيّةٍ عاجلةٍ جدّاً. ستمتطي حِمارَها المفضّل، الوزير منيف، لابسةً قبّعة كاوبوي (رعاة البقر) اشترتها من سانت أونتونيو بِتكساس خصّيصاً لذلك.
ستركلُ وتلطِّمُ حِمارَها كثيراً، كما يحبُّ ويهوى. ستغمرُهُ بصفعاتٍ عنيفة كما لم تغمرهُ يوماً. سيجدُ بذلك لذّةً عاتيةً تتجاوز لذّاته. وهي كذلك. لأنّها ستفرغُ فيه كلّ ما تركهُ نوغدين في أعماقِها من شحناتِ إهاناتٍ وأوجاع وجراح...
الأهم: ستُعلِّمُ حِمارَها نظريّةً جديدة اكتشفتْها اليوم فقط، وعرفتْ بفضلِها المتعةَ أخيراً ولأوّل مرّة: نظرية ”المصّ بعد الجولة الثالثة“!...

باسل يتحدّث:

هيكلٌ عظميٌّ بِلَون الصديد

لن يرى أوسانُ وشوقي رضوانَ يوماً، سيغادران الكونَ قبل ذلك: شوقي مهشَّمَ الجمجمة فوق إحدى صخور "جبل حديد"، وأوسان مهشَّمَ الروحِ بعد أن أدمن "ماء النار"، الكحول، الذي هرول به إلى الجحيم بإيقاعٍ مرعب!...

ربما كان لزاماً عليهما أن يبحثا عن رؤية رضوان قبل رؤيةِ عزرائيل، لِيستوعبا أشدّ الأبعاد جوهريةً في أرواهما الأبديّة!...

أنا سأفعل!... سأراها في ١٧ أكتوبر ٢٠٠٧ مع رضوان في قصر منيف في صنعاء!... جئتُ حينها لزيارة منيف الذي كان يُحتَضَر....

هيكلٌ عظميٌّ تحوَّلَ بياضُهُ إلى لونِ الصديد!...

وصلتُ هكذا قصر منيف الفاره بعد نجاحي بِطردهِ من ساحة ملعبِ أروى. ورائي إنجازٌ وعربونُ عشقٍ لا يمكن أروى أن تتجاهلهما. كنتُ عاشقاً أيضاً حتّى الثمالة، مذبوحاً من العشق. تضاعف شوقي وعشقي لها يوماً بعد يوم، منذ نهاية لقاء لندن وسفرِها المفاجئ. عشتُ هذه الأشهر الستّة متصوماً كعاشقٍ صوفي لا يبتهل إلا لها...

أردتُ الآنَ أن أجني ثمار نجاح هندستي لإطاحة بعلِها الشيطاني، وأن أنتزع منها اعترافاً وإعجاباً وحبّاً على أقل تقدير، قبل أن أواصل تصفية الملعب!...

قادني أحد حرّاس البيت إلى غرفتِها بعد أن سمحتْ لي بالدخول.

ابتسامتُها وهي تراني ضامرة، سريعة. شعرتُ من أوّلِ وهلة (خلايا قلب العاشق كلّها رادارات) بأنّ هناك شيئاً في غير محلّه، خطأً ما!...

اللعنة!... كنتُ قد اعتقدتُ بيقينٍ شبهِ مطلق منذ أشهر أنها سوف تعتبر تدبيري لاغتيال منيف "مهرَها"، "عربونَ عشقي لها" الذي سيجعلها تهبني قلبها! صرتُ واثقاً جدّاً من أني أبهرتُها، أني دخلتُ حياتَها كصاعقة تفقأ السقف، بعد نجاح تخطيطي لإبادة منيف! ألستُ وحدي محرِّرَها من مأساة الحياة معه؟...

ألا يجمعها بي الآن سرٌّ كبير لا يعرفه إلا كلانا فقط، ومستقبلٌ أكبر تأسّس بالضرورة بفضلِ ذلك؟...

أيّ بديلٍ للمقتول غير القاتل؟...

عرَّفَتْني بأخيها رضوان ببرودةٍ أقلقتْني. انتظرتُ حفاوةً أكثر من ذلك بكثير!...

انصدمتُ في الحقيقةِ وأنا في غرفتهما: تحزرني ببرود، ابتسامةٌ خفيفةٌ مرّة أو مرّتين، لا أكثر!... نتحدّث في مواضيعَ غير ذات أهميّة. صوتُها يابسٌ منقبضٌ عند الحديث معي... اللعنة!...

أروى ورضوان في نفس الغرفة يتألّقان جمالاً وفرحاً، كما لو لم يكونا في مأتم!... يتهامسان، يُنكِّتان، يضحكان كطفلين سعيدَين!...
أصابعُ أروى ومعصمها (وكلُّ جسدِها، من يدري؟) مزخرفةٌ بنقوش خضابٍ سوداء رسمتْها فنّانةٌ مبدعة!...
عرسٌ هذا أم مأتم؟...
رضوان قاعدٌ على الأريكة، عليه ضماد بقايا جروحِ اصطدامٍ بسيارة. هي قربهُ تدلِّلُـه كطفلها، تمسِّدُ شعره، تعانقُهُ نظراتُها باستمرار، تناديه دائما: حبيبي!...
هو أيضاً يتفجَّرُ في ملكوتها سعادةً وحبّاً. ينظرُ إليها بعينينِ رقيقتينِ عاشقتين على الدوام!...
منظرهما لوحةٌ فنيّةٌ في غاية السحر والجَمال. للّحظةِ عبقٌ رومانسيٌّ احتفاليٌّ ساحر...
في الغرفة المجاورةِ زوجٌ على حافة الموت!...
ذُهلتُ وأنا ألاحظ أن رضوان توأمُها البيولوجي، وإن كان أكبر منها بثلاث سنين! نفسُ الرشاقة، نفسُ الابتسامة، نفسُ اللهجةِ الجِبْلِيَّة، نفسُ الوجنة، نفسُ "التفاحة" في الخدِّ أثناء الضحكة!...
تناغمٌ جماليٌّ بينهما أثارَ نظري كثيراً. قمَّةُ إبداعِ الطبيعةِ والقدَر والهندسة الجينيّة!...
تناغمٌ روحيٌّ أيضاً: نفسُ النكتة، نفسُ المزاج والرغبات، نفسُ الإصغاء!... انسجامٌ خالص!...
يسكران بهجةً عندما يكونان معاً. سعادةُ كلٍّ منهما في ظلِّ الآخر لا تساويها سعادة!... لا يتوقّفان عن الضحك والدردشة بِلُغةٍ رقيقةٍ لا تخلو من شفراتٍ خاصّةٍ بهما... صوتاهما وهما يتحدّثان في نفس الوقت سيمفونيةٌ بديعة!...
فهمتُ حينها أن أروى (ينبوعَ نافورةِ العشق الذي أراد أوسان أن يغطس فيه حتّى أقصى الأغوار) تصبُّ في حوضٍ واحد: رضوان، معشوقِها الأزليِّ السرمديِّ، النخاعيِّ الجينيِّ، الأولِ والآخرِ، الظاهرِ والباطن، الواحدِ الأحد!...
للآخرين رذاذُ النافورة في أفضلِ الأحوال!...
كلُّ عشقٍ عدا رضوان، في عَينَيْ أروى، زركشاتٌ أدبيّة، "خبابير" صغيرة!...
تتواتر في كلّ عبارة تُوجِّهها إليّ المفرداتُ الدينيّةُ: "باسم الله"، "الحمد لله"... التي اختفتْ بعد ربع ساعةٍ فقط من لقاء لندن. تجيدُ أروى من جديد استخدامها كسياجٍ يقيها من لهث مَن يواجهها، أو لِكبحِ جماحِه... لُغتُها استنفاريّة، تخلو من الرطوبة!... لو لم أكن عاشقاً صبوراً وعنوداً لقرأتُ على عشقي الفاتحة!...
اكتشفتُ، بألَمٍ وغَيظ أنها ليست أروى لندن!
شعرتُ كما لو أنها مثَّلتْ دوراً ما معي هناك أو تُمثِّلُهُ الآن، أو لعلّها استخدمتني لِهدفٍ ما، شكَرَتْني عليه يوم الوداع في لندن وانتهى الأمر، أو أنها

بكلِّ بساطة لا تكنُّ لي غير علاقة ودٍّ مع "صديقٍ عزيز"، في أفضل الأحوال، كما قالت لي بالحرف الواحد، هذا إذا كنتُ عزيزاً بالفعل، أو مجرّدَ صديق!...

دهمتْني أسئلةٌ كثيرة: أهيَ فتاةٌ من زئبق؟ لماذا تغيّرتْ؟ هل تعجُّ أيّامُها بمليون لقاءٍ ووداعٍ من نفس النوع أنسَتْها لقاءنا التاريخيّ في لندن قبل ثمانية أشهر؟ أنسَتْها لحظةَ الوداع؟ دهاءَ ما عملتُهُ لإنقاذها؟ تواصلَنا التليفوني المستمر منذ ذلك اليوم؟...

تركَتْني، دون مرافقة، أدخل لرؤية منيف الذي تُوُفّي اليوم التالي، ١٨ أكتوبر، دون أدنى ضجيجٍ رسميّ: كان نعلاً للنظام السياسي اليمني الفاسد، انتهى كما ينتهي أي نعل: في المزبلة!... منذ استفحال مرضِهِ (الذي لم يتحدّث أحدٌ عن ماهيته أو يعيره اهتماماً) لم يعد وزيراً!...

تحوّل إلى مستشارٍ كبيرٍ لرئيس الجمهورية. أي ما يعني في القاموس السياسيِّ اليمني: نسيَهُ الجميع بسرعة البرق!...

ببرودةٍ ملحوظةٍ قابلتُ ضحيّتَي على فراش الموت!...

غريبٌ جدّاً: لم أشعر بأصغر ألم عند رؤيته، لم تراودني لحظةُ أسفٍ واحدة!...

عدمُ اكتراثٍ كهذا لا يستطيعهُ إلا نوعٌ نادرٌ من البشر: البسيكوباتيون، الجلّادون، أو إلهٌ ساديٌّ ميّتُ الأحاسيسِ يكتبُ الشقاء لبعض عباده ويراقب بصمت عذاباتهم ونزف جراحهم!...

أعرفُ كثيرين سيُصعقون من وحشيّةِ هذه المشاعر الميّتة، كما سيقولون، ومن هذا الاستفحال في الإجرام الأصمّ!...

أروى وأنا لسنا منهم، في كلِّ الأحوال!...

"جئتُ رسميّاً من فرنسا لِزيارتِكَ"، قلتُ لِهيكلٍ عظميٍّ بِلَون الصديد!...

"أُقتلْ الميت وأمشِ في جنازته" فنٌّ لا يجيده إلا رهطٌ نادرٌ من السفلة الأوغاد الذين يعترفون بسفالتهم و"موغادتهم" بكل جرأةٍ وشجاعة!...

بعد خروجي من غرفة منيف (الذي تنتظر أروى رحيلَه بفارغ الصبر كما يبدو)، سألتْني عن أوسان!... اكتشفتُ أنها تعرفُ بالتفصيل ما حدث له، متى وصل إلى شُقّتي في باريس وكيف يُقضّي وقته!...

اللعنة! تتواصلُ معه بنفس الانتظام السابق!...

أدركتُ بشكلٍ أو بآخر أني طوال هذه الأشهر لم أكن غير آلةِ قتل، فيما هي في عالَمٍ آخر، تتقاذفها الأمواج المتلاطمة لِعشقَي حياتها: شوقي وأوسان، تحيا معهما، بالطول والعرض، كاملَ حياتها التقليدية التي لا محلَّ لي من الإعراب فيها. تمارسُ يوميّاتها العاشقة معهما بكلِّ تفاصيلها القديمة!...

انتهى في دقائق لقاؤها بي الذي انتظرتُه طويلاً، وحلمتُ بأن أضعَ فيه أروع قبلةٍ غراميّةٍ في حياتي!...

وداعٌ بابتسامةٍ عاجلة!...

لم أصدِّق: ها أنا أغادر البيت باستنتاجٍ داكنٍ خنق أنفاسي: ما زلتُ خارج النص! لم أتقدّم إذن خطوةً واحدة رغم أني، أنا وحدي، من أنقذها من مصيبةِ

حياتِها الأزلية!...
بركانٌ من الغيظ يتلوّى في أنفاسي! شعرتُ باحتقار ذاتي درجة الكراهية! أنا لا شيءَ إذَن! هما الشمس والقمر بالنسبة إليها وأنا مجرّد دودةٍ خُلِقتْ لِتلْسعَ لا غير!... أشعر بالغثيان والرغبة في التقيؤ!...
لو كان لديّ مسدّسٌ الآن لأفرغتهُ على أوّلِ إنسانٍ أراهُ أمامي!...
أعرف مع ذلك (مثلي مثل أوسان وشوقي) أن شيئاً حاسماً نهائيّاً سيحدث في الأول من نوفمبر ٢٠٠٧، عيدُ ميلاد أروى، عيدُ قُبلتِها الأولى لشوقي، عيدُ بدءِ حبّهما، والموعدُ الذي اقترحَهُ شوقي لحياتِهما المشتركة بعد أن انفصل عن زوجته!...
ربما لهذا السبب بالضبط حاول شوقي (الذي يعرفُ أرواه أكثر من أيِّ إنسانٍ في الأرض) مباغتةَ الحدثِ وأخذَ زمامِ المبادرة باقتراح موعدِ الأولِ من نوفمبر لاتخاذ قرارهما بِبدءِ حياتهما المشتركة!...
كان ذلك القرار بالنسبة إلى شوقي بديهيّاً وأكيداً، لا سيّما بعد وفاة منيف قبل هذا اليوم القَدَريّ باثني عشر يوماً!...
أروى (كما نعرفُ ثلاثتُنا، والمرحوم منيف كذلك) تُقدِّسُ مناسباتها الخاصة، لا سيّما عيد ميلادها، أهمّ أيّام السنة بالنسبة إليها!
تُحِبُّ أن تختار لحظةَ نهايةِ أيِّ حدثٍ تاريخيٍّ في حياتها في نفس موعدِ ذكرى يوم بدئه: تعشقُ دائريةَ التاريخ بشكلٍ يُشبهُ الهوَس!...
لا أدري لماذا يسكنها هذا الهوَس. لعلّها تعتقدُ أن ثمّة من سيكتبُ سيرةَ حياتها يوماً. لذلك تريدها جميلةً أنيقةً بتماثلٍ هندسيٍّ دقيقٍ مدهش! أو ربما هذا مزاجٌ لا تستوعبهُ ولا تجدُ لذّتها وكينونتها فيه إلا ربّةُ الحياة، ربّةُ الموت، المرأة!...
ما لا تجهله أروى، ملكةُ التفاصيل، هو أن ثمّة ثلاثةً ينتظرون بجنون (لِولادتهم من جديد) الأولَ من نوفمبر، عيدَ ميلادها الذي يصادفُ إجازة "عيد الموتى" في كثيرٍ من الدول الغربيّة!...
ثلاثة موتى: مطعونٌ في الظَّهر يموت ببطءٍ في باريس وهو يتكلسنُ في الكحول، مطعونٌ في القلب يُطلِّق زوجتَه بِعجل وهو ينفجر غيظاً في عدَن، ومطعونٌ في الجمجمة (في عصبونات كبريائه وغروره، المختالةِ في واجهة دماغه) وهو يكتشف نفسه مجرّدَ أداة قتلٍ ليس إلا، مجرّد دودة!...
لا أدري ما أفعل بانتظار هذا العيد! أدركُ أن أروى ستُقرِّرُ شيئاً حاسماً نهائياً فيه. بيد أن برودتَها في الحديث معي تعني بجلاء أني خارج الحدث، خارج التاريخ. فيما عليّ أن أكون قريباً من الحدث، في قلبِه، صانِعَه!...
أرتجفُ، أشعرُ بِربشةٍ غير عاديّة! كم أثيرُ الرثاء في الواقع: كنتُ طوال هذه الأشهر كمن يُعِدُّ نفسَهُ للتحضير لحفلةٍ لم يدْعُهُ إليها أحد!...
أشعرُ بكراهية ذاتي أكثر من أي وقتٍ مضى، وبرغبةٍ عنفوانيةٍ مجنونةٍ في أن أقطع الطريق على منافسَيّ التاريخيين، مهما كان الثمن!...

شعاري اليوم: أنا أو الجحيم!...

قرّرتُ السفر إلى عدَن لأكون قريباً من شوقي ذلك اليوم!...

اتَّصلتُ بأروى من عدَن في ٣١ أكتوبر علّي استشرفُ شيئاً ما!... استغربتُ بخوف: لم أجدها. تليفونُها مغلقٌ طول الوقت!...

استفسرتُ عنها رضوانَ بالتليفون في نهاية المساء، بعد أن نفد صبري. عرفتُ منه (لم يستطع أن يخفي حنَقَه) أنها سافرت بالطائرة خارج اليمن قبل ساعات!...

– أين سافرت؟

– لا أعرف، هاتفها مغلقٌ منذ ساعات!...

السارِدُ يتحدّث:

الأول من نوفمبر، عيد الميلاد، عيد الموتى

يُقرَعُ بابُ الشقة!... يفتحُ أوسان البابَ بعينَين نصف مغلقَتين!... لم يُميِّز بين من يراها وهو يفتحُ الباب، وتلك التي يراها في أحلام اليقظة كلّ ثانية!... اختبطَتْ حياتُهُ رأساً على عقب، لم يعدْ يفهمُ شيئاً!...

عينان لامعتان، ابتسامةٌ تعيدُ له الحياة! أسنانٌ لبنيّةٌ بديعةُ الانتظام طالما حدّقَ بها بِوَله! رائحةٌ خاصةٌ تسحرهُ وتُخدّره! صوتٌ عسليٌّ كريستاليٌّ رهيف يقول: "اشتقتُ إليكَ حدّ الموت!"...

ها هي إذن (خارج الحلم، في صلب الشفتين) قُبلَةُ خلف الباب، جوهرُ حياتِه، كلِّ حياته، أرقّ وأبدع وأضرى من كلِّ قُبلات عناقِ السنوات الماضية...

ها هي توشكُ الآن أن "تتأبد كلّ يوم، كلَّ ساعة، حتى لحظة الفناء!"...

وصلَتْ إذن كإعصار! لم تُشعرهُ بمجيئها، أروى تحبُّ الإدهاش والمفاجآت!...

تيّارٌ من سعادةٍ بلا اسم (لم يُصنَّف بعدُ في معاجم السعادات) يسري في ألیافه العصبية، يرقصُ في دورتِه الدموية!...

هو لا يحلم إذن! أروى في أحضانه، جاءت من صنعاء له وحده، في عيدِ ميلادها، أقدس أيامها!...

أو ربما هو يحلمُ قطعاً لأن قُبَل أحلام اليقظة مغسولةٌ بنفس العطر، لا تقلُّ جموحاً وعذوبةً وسحراً، تمتزجُ فيها الأنفاس بنفس الحميمية!...

لعلّهُ باختصار فقد بعض قواه العقلية. لم يَعُدْ طبيعيّاً، لم يَعُدْ يُميّزُ بين الواقع والحلم، كما لو كان يقتربُ من الجنون أو النبوّة!...

لعلّ طوبولوجيا "المنظومات الاستنباطية" في دماغه فقدت معالمَها، حدودَها: مناطقُ الإحساسِ بالقُبلة اندمجت في دماغه بمناطقِ تَمثُّلِ الإحساسِ بالقبلة!...

ثمّ بدأ يُصدِّقُ أخيراً لأن دموعها انهارت على وجنتيه، أقدسَ دموع! في الحلم لا تسيلُ على وجنتيه دموعُها...

ها هو يشربُها، دموعاً من ماءِ الجنّة، لذيذةً، لذيذةً جدّاً! دموع إله!...

هو لا يحلمُ قطعاً: دموعه هو الآخر تنهمرُ من فرط السعادة، تختلطُ بدموعها!...

يستعيدُ كلَّ طاقاته من جديد! كلُّ أمواج محيطات الدنيا تضخُّ في شرايينه!... عندما يرى أرواه، ويستنشقها، ويعانقها، وتسبح ألسنتهما على نفس الإيقاع وبنفس الزعانف، تتفجَّرُ فيه قوىً ميتافيزيقيةٌ لا تنضب!... يخرجُ أوسان جديدٌ من قمقم أوسانٍ هالِك، يخرجُ حيٌّ من ميّت!...

تعشقهُ من أعماقها كما يعشقُها! يعرفان ذلك، يُترجمانه بإخلاص في كلِّ لحظة، لا سيّما في رقصات توحّداتهما اليومية، قدسِ أقداسِهما!...
ها هما في أقدس توحّداتهما التي لا تنتهي! شعلتان متوقِّدتان! يحترقان كل يومٍ شوقاً لهذه التوحدات، تفترسُهما دوماً رغبةٌ محمومةٌ في عزفِ سيمفونية انصهار جسديهما بإبداعٍ مدهش، بإيقاعٍ متجدّد، بِطولِ نَفَسٍ لا ينطفئ غليله!...
عيناها الواسعتان المكحّلتان مفتوحتان وهو يدخلُها، مفتوحتان طوال الوقت هذه المرّة!... أَلِموتِ منيف سببٌ في ذلك؟... يتفجَّرُ سعادةً وهو يراهما لامعتين، رهيفتي الرقة، تحملقان فيه، تبتسمان له، ترقصان بهجةً وشَبقاً!... لم يعد ثمّة ما يمكنه أن يكبح جماحَ رغباتهما الآن، وتفجُّرَ حريّتهما في وضح النهار، هنا بعيداً عن كل المنغّصاتِ والقيود!...
هي تحتهُ كما لم تكن أبداً، فوقهُ أيضاً، جاثمةٌ على ركبتيها تدير رأسها باتجاهه لترى كلّ تفاصيل رقصتهما الخالدة!...
تركعُ على خاصرته، يركعُ على خاصرتها... خلقهما الإله ليكونا طائرَين بنفسِ الجناحين، شجرتين تتعانقُ ساقاهما وتنبثقُ منهما نفس الأغصان! خلقهما ليكونا مندغمَين بنهمٍ وإسرافٍ إلى الأبد!...
يستغرب!... لم تعد تستقبلُ فقط! هي تقودُ كلّ شيء هذه المرة، دون لِجام، قوّةٌ خارقةٌ في أوج عطائها!... أَلِموتِ منيف سببٌ في ذلك؟...
يشعر بأنها أصبحت اليوم عنفوانَ توحُّدٍ لا تلينُ له قناة! أروى لا تتركُ مملكةً، بما فيها مملكة التوحّدات الجسديّة المتفجّرة، دون أن تسيطرَ على عرشِها!... مِلِكَةٌ غازية!...
ساعاتٌ من العشقِ الكثيفِ الرقيقِ المحمومِ قبل أن يكتشفَ أنها...
أكثر...
تشظيّاً...
وتمزّقاً...
منه!...
تعيشُ انشطاراً سيكولوجياً لم يتوقّعه!...
يُفاجأ أوسان وهي تقول له، بصوتٍ متحشرجٍ مبحوح وأنفاس متداخلة، آخر ما توقّعَ سماعَه:
– قرّرتُ في الحقيقةِ أن أبدأ حياتي المشتركة مع شوقي الذي يجمعني به عشقٌ يقتربُ من الثلاثين عاماً!... كنتُ دوماً أسيرَتهُ، أدورُ في فلَكِه، غيرَ قادرةٍ على الانسلاخ منه لحظةً واحدة، أما الآن وقد قرّر أخيراً أن نعيش معاً...
زاغت نظراتها أمداً صغيراً، كفّتْ عن الحديث، خمدتْ تماماً، ثمّ استطرَدتْ دون أن تنظر باتجاه عينيه:
– لن تعرف يوماً ما يعني أن يتحقّقَ أخيراً حلمٌ عمرهُ ثلاثة عقود!... هذا قراري النهائي، لكني فضَّلتُ أن أواجهكَ به، وأن أعتذرَ لك بِشكلٍ مباشر!... كنتُ أنانيةً عندما خطفتُكَ واستوليتُ عليك! عُدْ إلى حياتكَ السابقة، كما كانتْ

تماماً قبل أن تعرفني! واعذرني إلى الأبد!... لِتغفرْ لي زوجتك ليلى كلّ ما سبَّبتُ لها من مآسٍ وآلام!...

ثمّ أضافت:

– قرَّرتُ أيضاً أن يكون هذا توحُّدَنا الأخير!... ثلاثةُ عقودٍ من حبِّ شوقي تشكّلَتْ ونمتْ قبل معرفتي بك بنحو ربع قرن! حلمُ التوحُّدِ الدائم به يفترسني منذ أن رأيتُه! نما ذلك الحلم وأخذَ أبعاداً ميتافيزيقيةً، وانزياحات بلا ضفافٍ ولا لِجام!... لا يمكنك أن تتصوّر سيناريوهات توحُّدٍ أحلم به بجنون منذ ثلاثة عقود!...

قبل أن تدكَّ جمجمة أوسان بهذه اللكمة القاضية:

– لن تكتملَ رغباتي كأنثى إلا به!...

لم يُخلَق أوسان لِسماعِ مثل هذا الخطاب!... بإمكانه أن يمارس أية وظيفةٍ في الحياة إلا أن يكون قائداً عسكرياً مناوراً، أو سياسيّاً مراوغاً، أو مخطِّطاً استراتيجياً ملتوياً، أو محلِّلاً فطيناً لما بين الأسطر وما وراء العبارات!... (أوسان "صفرٌ" أو "واحد"، "لا" أو "نعم"، لا يعرفُ الأوضاعَ "المائعةَ" بينهما، كما لخَّصتهُ ليلى ذات يوم!)...

يأخذُ كل الكلمات بالحرفِ الواحد! لا يعرفُ أن المرأةَ تميلُ أحياناً إلى "البرهان بالنقيض"، تقول أحيانا عكس ما تريدُ لمجرَّدِ الرغبةِ باختبارِ فرضيةٍ ما، أو بدراسةِ ردِّ الآخر على سؤالها!...

لا تقول المرأة "هذا توحُّدنا الأخير" إلا وتقصد "هذا توحُّدنا الأول، في عصرٍ جديدٍ نحن فيه الآن بلا حواجز أو التزامات أو قيود، أنا بعيدةٌ عن منيف وأنت عن ليلى!" وإن تجرأتْ على المقارنة بين السماء والأرض، الجنّة والنار: ليلى ومنيف!...

هو، مع ذلك، يعرفُ، أكثر من غيره، أن أرواه مثلُ الماء! بإمكانها أحياناً أن تكون طوفاناً يعصفُ بكل شيء، كما هي الآن عندما قصَفَتْهُ بهذا التصريح! لم تتساءل على الأقل إذا كان سيصابُ بِصدمةٍ قلبيّةٍ أو لا وهو يسمع عباراتها تسقط على جمجمتهِ كقنابل!...

جأر كمجنون! نظر إليها كوحشٍ في عينيه بركانُ غضب (لم ترهُ، ولم يرهُ يوماً إنسانٌ بهذه الهيئة المذعورة، هو الذي اشتهرَ بهدوء أعصابِهِ ورِقَّته)... نَعتَها وهو في أوجِ غضبِهِ ب"مجرمة"! ثم أدار قفاه لها ليبكيَ في خواءٍ لا يُصغي إليه إله!...

اعتقد أوسان أنها أرادتْ فعلاً إبادته الآن باللكمة القاضية!... لم يتساءل هذا الغبيّ (لعلّي صرتُ بدون وعي استخدمُ نفس مفردات باسل وأنا أنعتُ أوسان بالغباء!) لماذا جاءت أروى من طرف الدنيا في عيد ميلادها إليه، لتتوحّدَ معه بكل عشق الكون، إذا كان الانفصال عنه هو ما تبغيهِ فعلاً!... يعرف مع ذلك أنها تثقُ به وتريده مثلما يثق بها ويريدها حتى أقصى النهايات!...

يعرفان أن اختيارهما لبعضهما اختيارٌ واعٍ لم تبرمجهُ قوىً ميتافيزيقية أو تَدُسّهُ جينات نخاعية! قرّرهُ إنسانانِ ناضجان، في صراعٍ مع الزمن الذي أدخلهما إلى المسرحية في فصلِها الأخير!...

لعلّها ممزّقةٌ أوّلاً وأخيراً، مثلهُ أو أكثر، بِحاجةٍ إلى بَوْصَلة، بحاجةٍ إلى أوسان آخر يساعِدُها بهدوءٍ على الخروج من تضاريسِ حياتِها الشاقة، يزيحُ الآخرين من مركز حياتها بحركةٍ سحريّةٍ ناعمة دون حرائق أو كسور أو أوجاع، يستقطبُها إليه وحده بأمان وسلام!...

في كلِّ الأحوال، هي ليست بحاجة إلى أوسان ينفجر كبركان، ينعتُها بِمجرمة، ويديرُ قفاه لأدغالِ حياتها المُشعبكة!...

ثمّ هل نسي أنها تجيدُ الردّ على العنف بالعنف؟...

***

توقّفتُ طويلاً في هذا المفصل الحاسم من الرواية وأنا ألملمُ فقرات نصوص أبطال هذه الرواية! تساءلتُ كثيراً:

لماذا قالت أروى لأوسان إنها اختارتْ شوقي؟

سؤالٌ أضناني، لا أستوعبُ كنهَهُ تماماً حتّى الآن! لا أدري كيف يمكن فهمُ قرارِ تلك اللحظة الشكسبيرية الشديدةِ التعقيد!...

ألأنَّ العشقَ "الجينيّ"، شوقي، ينتصرُ حتماً على العشقِ "الثقافي"، أوسان؟

ألأنَّ العشقَ "المُطلق"، شوقي، وإن كان نسماتٍ خفيفةً نادرة، ينتصرُ حتماً على العشقِ "الزمني"، أوسان، مهما كانت كثافتُهُ وثُقلُ عِيارِه؟

أبسببِ قِدَمِ عشقِها لِشوقي، وسحرِهِ الميتافيزيقي، وأسرارِهِما العتيقة، يكمنُ تفسيرُ قرارِها؟

ألِمفعولِ تشابهِ قسماتِ وجسدِ شوقي مع ملامح وبنية رضوانِها الأثرُ الحاسم في اختيارها؟

أم أن الإجابةَ تكمنُ فقط في تطوُّرٍ سِريٍّ في علاقتهما (شوقي وأروى) بعد قرار انفصال شوقي عن زوجتهِ، واختيارهِ الحياةَ، في آخر المطاف، مع أيقونتهِ الأزليّة أروى؟...

ثمّ لماذا لم تعلن أروى قرارها لأوسان دون الحاجة لِمجيئها إلى باريس لرؤيتهِ هو نفسه، في يوم عيدِ ميلادها؟ ولماذا أعلنتْ قرارَها تحديداً عقب توحُّدٍ جسديٍّ احتفاليٍّ معه بهذا العشقِ والصدقِ والفناء؟...

هل اتخذت قرارَها بوعيٍ حقّاً؟ هل كان مدخلاً تفاوضيّاً، اختباراً ما، مناورةً مخاتلةً ستُفضي إلى خريطةٍ عشقيّةٍ جديدة ترسم بها أروى حدودَ أوسان وشوقي في عاطفتِها وعلاقاتِها الجسديّة؟...

أم هل أرادتْ، بوعيٍ أو بلا وعي، إطاحة أوسان وشوقي، في نفس اللحظة وتدميرهما معاً كما دمّر باسلُ منيف؟...

أسئلةٌ ملأتْ أروقةَ دماغي، لا أمتلك لها جواباَ!... كم تمنّيتُ أن أوجِّهَها يوماَ إلى أروى!...

يرنُّ هاتف شقّة باسل بعد ذلك!...

– عيد ميلادٍ سعيدٍ، حُبِّي!

– شكراً حبيبي!...

– كلّ واحد نوفمبر وأنتِ عشقي الأزليّ الأبديّ الأعظم!

– كلّ واحد نوفمبر وأنتَ أيضاً كذلك!...

يديرُ أوسان وجههُ مبهوتاً نحوها من جديد، ليتفرَّسها وهي تُتلفِن. يحملقُ فيها وهي في أوجِ بهجتِها وصفاءِ سعادةِ نظراتِها!... لم يرها أسعدَ من تلك اللحظة! ثمة ابتسامةٌ في عينيها وفي شفتَيها الآن لم يلحظْهما على محياها بهذا السناءِ أبداً!... دموعُها تسيلُ سعادةً، تسيلُ مدرارةً، تسيلُ، تسيلُ، تسيلُ... أمام عينَي أوسان الذي لا يُصدِّقُ ذلك!...

يسمعهُما يتحدّثان في مواضيع لا يفهمها، يحزرُ أروى خلالها بين الآن والآن وهي تضحكُ بكل سعادة الدنيا، تبتسمُ بفرح!...

تجمَّد باسل من الصدمة، وهو بجانب شوقي، عندما شعر بأنه يتحدّث فعلاً مع أروى التي سافرتْ فعلاً إلى باريس والموجودة حاليّاً في شقّته!...

لم يخطر ببالهِ إمكانيّة ذلك!...

أيقنَ أن كلَّ تحليلاته خاطئة، هو الذي كتبَ بِقلمٍ تفترسُهُ غَيرة مجنونة (عند سرده للقاء روما، وسؤاله لأوسان: "وهي، متى أحبّتكَ؟") الفقرةَ المرعوشةَ التالية التي تستهين بِحبِّ أروى لأوسان:

"أوسانُ لا يعرف، ولن يعرف يوماً، لماذا اختارتهُ أروى!... سأعرف ذلك وحدي في ما بعد: لم تختره حُبّاً له بشكلٍ مطلق! لو عرف أوسان ذلك لاعتصرته المرارة!...

اختارتْهُ بعد تَحَرٍّ وتمعُّنٍ طويلين؛ لأنه يُكمِّلُ في عينيها كلَّ ما ينقصُها في علاقتها بزوجها، الوزير منيف: أوسانُ العكسُ النموذجيّ لِزوجها! وكلُّ ما لم تستطع الحصولَ عليه من عشقِها النخاعيِّ الذي بدأ وهي في الرابعة عشرة من العُمر، والذي لا يعرفهُ أوسان بعد!...

لو لم يكونا، زوجُها منيفُ وعشقُها النخاعيّ الذي يجهلهُ أوسان، كما هما عليه، لرمَتْ أوسانَ العظيمَ في سلّة المهملات! (أوسانُ في سوقِ بطالةِ العشق! يا للمتعة!)...

متى سيدركُ أوسان الساذجُ موقعَهُ من الإعراب؟ متى سيكتشفُ أنه قطعةُ غيارٍ لا غير؟ متى سيقتنعُ بأن المرأة تنام دوماً مع نفس الرَّجُلِ الأوَّلِ، ثمّ تبحثُ عنهُ هو نفسهُ، بعد ذلك، في كلِّ رجُلٍ آخر تختاره؟ متى سيؤمن بذلك هو الذي يزدري مثل هذه الأفكار "الرجعيّة"، كما يقول؟...".

من جهتهِ، أيقنَ أوسان سريعاً أنه قزمٌ أمام ديناصورِ عشقٍ يناجي أروى أمامه بالتليفونِ، له مفعولٌ سحريٌّ لن يستطيعَ إطفاءَه يوماً! بينه وبين أروى،

كما يبدو، سرٌّ أكبر من أسرار السموات والأرض، عشقٌ عميقُ الجذور، يَتَّسِعُ لِمعمورة!...
يراقبُ أوسان نظراتها بهلَع: يكفي رؤية بريقهما في تلك اللحظات، لم يرهما يوماً يانعتين ضاحكتين كذلك!...
توتّرٌ ثلجيّ. يشعرُ بالتعاسة تجتاحُه، تدُكّ عظام جمجمتِه، تُفتِّتُ عظام مفاصله، تتفجّرُ في غُدَدِه، تتوغَّلُ في مساماته، تسري في عصبوناته، تتهاوى عليه، تهطلُ بعنف من كلِّ شيءٍ ومكان!...
يفترسُهُ فشلٌ حتميٌّ، جذريٌّ، عُضويٌّ، قدَرِيّ...
يديرُ وجهه من جديد باتجاه ليلٍ كونيٍّ بهيم!
يبكي كما لم يبكِ يوماً في حياته!...
– كيف عرفتَ أني هنا في باريس؟، تسألُ أروى ديناصورَ العشق الذي يخاطبها بالتليفون!...
– بعثتُ عدداً كبيراً من الإس إم إسات، دون رد. هاتفكِ مغلقٌ منذ البارحة!... بِقربي الآن باسل، صديقي القديم، الذي تسلّم إس إم إس من صديقهِ نوغدين حال وصولك إلى شقّتِه. هو من أعطاني رقم هاتف منزلِه...
لم تخبريني بسفركِ هذه المرّة!... ماذا تعملينَ هناك في هذا اليوم الذي أنتظرُ فيه ردَّكِ على مقترحي بالحياة المشتركة بعد نحو دهرٍ من الانتظار؟...
– أنا هنا عند صديقِكَ القديم أوسان، سأشرحُ لك كل ذلك قريباً!...
شوقي (الذي صدمهُ ردُّها رغم أنه هو الذي حثّها دوماً على اكتشاف الآخرين وعلى التعدّدية والمغامرات الفريدة، هو الذي "شكّلَ بنيان شخصيّتي ورؤيتي للحياة"، كما تقول أروى!) يباغتُها بالشتم وبإغلاق التليفون في وجهِها، أمام مرأى ومسمعِ باسل الذي يواصلُ بعد ذلك الإسهابَ في الحديث لِشوقي عن علاقةِ أوسان بأروى كما عرفَها من لقاء روما، ويُتَبِّلُ كلَّ ذلك بفلافلَ وشطّاتٍ هو وحده من يجيد طبخَها بخساسة!...
يستغِلُّ الشيطان باسل هذه اللحظة التي لن تتكرّر لِيعطفَ الحديد وهو ساخنٌ جدّاً، لِيُهشِّمهُ بِشرٍّ وتصميمٍ وإتقان!...
لم يسمعْ شوقي أروى تقولُ له بكلِّ ثقة: "سآتي إلى عدَن خلال أيام لرؤيتكَ، وسأشرحُ لكِ كل ذلك! أتمنى، أن نجدَ في ما سأحملهُ لك من مقترحاتٍ سعادتَنا معاً بعد دهرٍ من الحلم!"... لعلّهُ كشفَ، بسببِ إغلاقه التليفون، تناقضاتِه الصارخة، وغيرتَه العنيفة، وبرهنَ أن تشجيعَهُ لأرواه على ممارسة ذاتِها كما تُحبّ لم يكن أكثر من ألعوبةٍ صغيرة، شرَكٍ قاتل، دفع ثمنَهُ هو نفسه!
بدأ أوسان يتمتمُ بعشوائية كلماتٍ مُشتّتةً تخرج منه بلا وعي، لا يستطيع السيطرة على تفوّهِهِ الآلي بها... يُهلوِسُ أكثر فأكثر!... يشعرُ بأنّ حياته تترنّحُ، تخرجُ عن إحداثيّاتها، تفقدُ بوصلَتها!...
حياةُ شوقي تترنّحُ هي الأخرى في نفس تلك اللحظة بالذات!...

أروى تعرفُ وحدَها ما يعانيانهُ معاَ!... ها هي تعضُّ أظفارِ يديها لأوّل مرّة (يدٌ لشوقي ويدٌ لأوسان، من يدري؟)... هي أكثرُ لخبطةً وتمزُّقاً منهما، كما يبدو للعين المجرّدة!...

باسل يفركُ يديه سعيداً، على بعد ستة آلاف كيلومترٍ من شقّتهِ الباريسية التي وصلتْها أروى!...

تصطخبُ في مخيّلته صبواتٌ مجنونة. استيهاماتٌ مخمليّةٌ سكرى. يشعرُ بأنه على بعدِ خطوتين من الانتصار!..

تسخر من أحلامهِ المجنونة كلُّ أشباح الكون، لا سيّما شبحُ الغادرِ المغدورِ به، منيف، الذي ينتظرُ باسلَ بفارغ الصبر في أحد زقاق جهنم!...

(أستحضرُ حاليّاً هؤلاء الأصدقاء، وعندما تعاهدوا وأقسموا في صباهم إن كلَّ واحدٍ منهم بعد الزواج "سَيُعِيرُ" زوجتَهُ للآخر بطيبة خاطر!

عَجَبي!...).

أمّا نوغدين، فقد فوجئ تماماً برؤيةِ "عمّتِهِ" أروى في شقّة باسل، لكنه لم يعدْ يعرف من هو عمّهُ في الأساس:

أوسان الذي ارتمت أروى في أحضانهِ حال وصولِها وذرفَتْ سيلاً لم يتوقّف عن الدموع، أم باسل الذي أرسل إليه نوغدين إس إم إس البشارة إلى عدَن، وأروى في أحضان أوسان؟

باسلُ الذي يُفترضُ أن يكون هو من يحتضنُ أروى الآن بهذا الجنون بعد أن أطاح نوغدين عن بُعد، في فندق بولمان، بِزوجِها منيف!...

لم يفهم المسكين نوغدين شيئاً مما يحدثُ في هذه الشقّة، لكنّه أحبَ عمّتهُ أروى من أوّل نظرة.

كان بودِّه أن يسألها هل أحضرتْ له قليلاً من العسل الدوعني. لكنه لم يتجرأ، لأنه اكتشف أنها لم تسمع باسم نوغدين قبل اليوم!...

أما هي فقد بكتْ كثيراً من جديد (هي ماكينة بكاء بشكلٍ فطرّي، غريزي) عندما عرفتْ قصة مرض نوغدين. أحبَّتْهُ بقوة. لا يوجد من لا يستطيعُ حبَّ نوغدين، في كلِّ الأحوال!...

بعد اتصال شوقي، تفتحُ أروى تليفونها الجوّال الذي أغلقتهُ منذ البارحة. تلاحظُ أنه لا يتوقّف عن زغردةِ رنّاتٍ هادئةٍ للتبشير بوصول سلسلةٍ من الإس إم إسات، ليس من شوقي فقط، بل من...

رَجُلٍ آخر!...

هاتِفُها ساحةُ معارك لا تعرفُ الهدنات!...

تقرأ في شاشتهِ اسم هذا الآخر. تذهبُ إلى البلكونةِ للاتصال به، هي نفسها، حتى لا يسمع صوتَها أحد! (نوغدين يقرأ القرآن في الغرفة المجاورة!)...

يبدو لأوسان أن من تَتَّصِل به حالياً شديدُ الأهميّةِ والسريّة، أكثر خطورة من ديناصور عشقِها شوقي: لم تعزِل أروى نفسها عندما كان شوقي في طرَفِ الخط، لكنها تحتاجُ هِذه المرّة للتوجُّهِ نحو بابِ البلكونة!...

تصلُ إلى مسمعِ أوسان المذهولِ شذراتٌ َمن عتابٍ، بكاءٍ ساخنٍ، صراخٍ (لم يتصوّر أوسان أن أرواهُ يمكنها أن تصرخ!)، تهديدٍ، غَيرة قاتلة!... آهاتٌ ودموعٌ كثيرة!... مواعيدُ بحياةٍ مستقبليّةٍ مشتركة (يرتجف أوسان من البرد وهو يصغي إلى ذلك)!...

يصغي أوسان من بعيد، يرمق أروى في البلكونة: حبٌّ لا حدّ له يخرجُ عن كلِّ قواميس الحبِّ التقليدية، يتسلّلُ من كل نبرة!...

يلاحظ أوسانُ بِعجب: قاموسها في الحديث مع هذا الرَّجُل، يختلفُ عن قاموسِها في الحديث مع شوقي، عن قاموسِها في الحديث معه!... نبراتها، ابتسامتها ولمعة عينيها تختلف أيضاً!

ثمّة، كما يرى أوسانُ بِعينيهِ ويسمع، ثلاث أروات على الأقل في هذه الجنيّة!...

حوارٌ كثيفٌ مُكهربٌ دام أكثر من نصف ساعة، قبل أن تُنهِيهِ أروى بسرعة، وتقولَ لأوسان إنها ستعودُ حالاً إلى اليمن؛ لأن أخاها رضوان يوشك على ارتكاب فجيعة!...

لا يمتلكُ أوسانُ إلا معلوماتٍ سطحيّة، كما يبدو، عن علاقةِ أروى بأخيها رضوان! لا يعرف أنها لم تختر شوقي (وتعشقهُ بِجنونٍ لا يضاهيه جنون منذ الرابعة عشرة من عمرها) إلا لأنه يُشبِهُ رضوان قبل كلِّ شيء!...

لا يعرف أوسان أن رضوان لم يتزوَّج حتى الآن، يرفضُ أية علاقةِ حبٍّ بامرأة أخرى. فضَّلَ بدلَ ذلك أن يحيا رهينةً لِمنيف، أن يُضحِّي بحياتهِ لِسعادةِ أرواه، لِتجدَ هنيهات من الراحة في سفراتها الدراسيّة هنا وهناك، لِيكونَ معها ولها دوماً في السرّاء وفي الضرّاء، لِيُناجيها أبداً، لِيخفِّفَ من آلامِها ويغتسلَ بأفراحها، لِيكفكفَ دموعَها، لِيستنشقَها، لِيغرقَ في روائحِها، لِيحتضنَها، لِيحتضنَها...

لا يعرفُ أوسان أنّ رضوان يسكنُ جلد أروى منذ ولادتها، وربما من قبل ذلك بكثير، وأنه لا يوجد في الكون من يحبُّ أروى (حتّى هو نفسه، عاشقُ الماء) أكثر من رضوان!... رضوان لا يستطيع التنفّسَ دون أروى، وهي بدون رضوان جسدٌ بلا روح!...

لم يَقبلْ رضوان سفرَها هذه المرة!... سألَها بِغَيرة ذكَّرَتْها فجأةً بِمخالب منيف: لماذا لم تُحدِّثهُ عن سفرِها؟ كيف يُعقلُ ذلك؟ لماذا لم تأخذهُ معها لباريس؟ كيف يمكنُها أن تسافر دونه؟ من قابلتْ؟ لماذا؟ لماذا لم تُخبِرهُ من قَبْل عن أوسان؟...

لا تتضايق أروى، مع ذلك، من غَيرة رضوان. تبتسمُ أحياناً، هي التي تنفجر كعاصفة عند سماع أدنى عبارات غَيرة من أحدِ عُشّاقِها أو من منيف!...

صَدَم ردُّها رضوان رغم أنها لم تُسرِّب له اسم أوسان في تلفونها إلا بشكلٍ عابر، لم تبح له بِحبِّهما بأكثر من مجرَّدِ إيحاءٍ بسيط!...

أرادت أن تُمهِّدَ الطريقَ لرضوان فقط، بعبارات مقتضبة، عن طبيعة علاقتها بأوسان، قبل أن تُفصِّلَ كل شيء عندما تعود إلى اليمن!...

إيحاءٌ بسيط لا غير، لكنه نزلَ على رضوان كالصاعقة، اعتبرَهُ "خيانةَ العمر"!...

غيابُها المفاجئ عن رضوان الآن (وقد اختفى طاغيتُها منيف إلى الأبد) زلزالٌ يزعزع مداميك كيانه!... أغاظهُ شعورٌ غريب بأنه أصبحَ الآن "بدون فائدة"، فائضاً على اللزوم، غير ذي أهميّةٍ لحياةِ أروى، لم تعد تحتاجه لِيكونَ ضريبةَ سعادتِها، أضحيتَها، كما كان دوماً بكلِّ رغبةٍ وتفانٍ أثناء حياة منيف!...

يبدو أن رضوان لم يقطع حبل السرّة بأروى!... وهي، أتساءلُ، هل قَطَعَتهُ؟... بينهما، كما يبدو، عِشقٌ ميتافيزيقيٌّ يتجاوزُ كلَّ أسرارِ الدنيا!...

السارد يتحدث: شجرةٌ تنمو فوق قبر

حضرتُ، أنا مراد الذي دهمَتْهُ كلُّ تقاطعات حيوات أصدقائه القدامى، حفلةَ دفنِ نوغدين في مقبرةٍ إسلامية في ضواحي باريس!...

كان نوغدين قد حدّثني عن هذه المقبرة في أوّلِ لقاءٍ لي به، في شقّة باسل، غداة موت أوسان، عندما سألتُ: أين دُفِن أوسان؟...

أعطاني عنوان المقبرة. ثمّ قال: – أراد أوسان (حسبَ طلبهِ لي) أن يُرمَّدَ جسدُه بعد الموت! وأن يُرسلَ نصفُ رمادِهِ إلى ليلى (كتب لها ولابنِه لؤي وصيّةً وعبارات بكَيتُ مليونِ مرّة عندما قرأتها!)، ويُترَكَ نصفهُ الآخر في قنينةٍ صغيرة مكتوبٍ عليها: "لأروى!"، داخل علبةٍ زجاجية مقفلةٍ، مُثبّتةٍ بجانب المكان الذي اخترتُهُ لِضريحِي في نفس المقبرة!...

أوسان رومانسيٌّ من الحرس القديم! لا أعتقد أن هناك رجالاً كثيرين يميلون اليوم إلى تخليدِ نقاءِ حياتِهم وعشقهِم في رموزٍ جنائزيةٍ مُدويّةٍ بهذا التطرّفِ والجذريّة!...

حجزتُ موقع قبري في تلك المقبرة بعد ذلك مباشرة، ونفّذتُ طلبهُ كما شاء!...

انتابني ما يُشبِهُ الشّلل ونوغدين يقول كلَّ ذلك ببرودة! أخفيتُ تأثّري بصعوبة!... حملقتُ بشدّة بنصفِ الإله هذا وقد استنزفَهُ المرضُ تماماً!

موتٌ كثيرٌ يكتظُّ في حبالهِ الصوتية!

لن يعرف يوماً كم أحبّه!...

سألتهُ: هل تعرفُ أروى كلَّ ذلك؟...

أجاب: أخبرتُها بذلك هاتفيّاً عندما اتصلتْ بي بعد وفاةِ أوسان!...

كانت ترتعشُ عند سماعها الخبر، يبدو من نبراتها أنها كانت تنفضُّ من الرجفة!...

قرَّرَتْ أن تأتي لزيارةِ علبةِ رمادِهِ كلَّ واحد نوفمبر، عيد ميلادها، عيد الموتى!...

(لذلك لم أتوقّف، أنا الفقير إلى الله سارد هذه الرواية، عن انتظار الأول من نوفمبر من العام القادم، ٢٠٠٨، بفارغ الصبر، لرؤية أروى إن جاءت فعلاً لزيارة رماد أوسان...).

رأيتُ أمَّ نوغدين يوم دفنِه. حيَّيتها بحرارة...

انحنيتُ طويلاً أمام رمادِ أوسان!...

قرأتُ: "لأروى!" على قنينةِ رفاتهِ وسط العلبة المُثبّتة بمحاذاة قبر نوغدين!...

أردتُ، تحيّةً وإجلالاً لأوسان، أن أعنونَ هذه الرواية: "لأروى!"، أو بعبارته التي أسَرَتْني: "أروى، حبيبتي، هي الماء!" ثمّ عدلتُ عن ذلك لأن مديرةَ نشرٍ عزيزةً، أثقُ بِذوقِها في اختيار اسماء الراويات (الذوقُ حاسّةٌ جوهريّةٌ عُلياً تُلخِّصُ وتُكثِّفُ كلّ الحواس، لذلك هي أرقى الحواس)، فضَّلتْ هذا الاسم الميتافيزيقي الحافي: "أروى"!...

***

في صباح ا نوفمبر ٢٠٠٨ الباكر رأيتُ أروى تُغادرُ المقبرةَ عندما وصلتُها! حمدتُ الله (أنا الذي لا أحمدُهُ عزّ وجل إلا نادراً جدّاً) أني لم أصل متأخراً دقيقةً واحدة!...

حيَّيتُها ومشيتُ بِقربها على مسلكٍ طويلٍ في الغابةِ المجاورةِ للمقبرة!...

كانت موشّحةً بالسواد مثلما رأيتها في جِبْلة، قبل سنةٍ وبضعة أسابيع. (أناقةٌ وسحرٌ من عليّين!).

عليها قبعةٌ وشالٌ من الصوف هي التي حبكتهما يدويّاً. عرفتُ أنها تهوى الحياكة اليدويّة أثناء مشاهدة التلفزيون! تحبكُ أو تطرّزُ مناديل وملابسِ لِرضوانها ولها، ولأطفال فقراء محرومي السعادة!... (أروى لم تنجب طفلاً! هذه "مأساة حياتها"!)...

لم تكن تتكلَّمُ كثيراً، كانت تصمتُ لحظات طويلة، تغيبُ عيناها خلالها في الفراغ، تتحدّثُ باقتضاب!...

سِرْنا طويلاً في أحد المسالك المفروشة بطبقات من أوراق الخريف المتساقطة. قرقعةُ خطانا على أديمه الجاف البارد تتخلّلُ دقائقَ صمتنا الطويل!... الخريفُ في أوْجِه!...

تُحدِّقُ أروى في صفوف الأشجار العتيقة العملاقة. أشجار بلوطٍ عمرها عدّة قرون. لكلِّ شجرة سيرةٌ ذاتيةٌ وتاريخ. يوشِّحُ الخريفُ الغابةَ بألوان زاهية متداخلة. يُفجِّرُ فيها جمالاً لا يضاهيه جمال!... كلُّ الألوان، كلُّ الظلال، تتعانق في أوراق أشجار الخريف، تمتزج، تتضاجع!... سماءٌ صَدَفيّة، سناءٌ رمادي!...

تعبرُ أروى الغابةَ بسوادها المهيب، كجوهرةٍ في ليلٍ مظلم!...

قلتُ لها: – بعثَ لي باسل عشيّة اختفائه نصّاً طويلاً بالإيميل، وبعث لي أوسان طرداً بنصٍّ آخر!...

قاطعتْني: – أعرفُ ذلك، ردَّتْ بإيجازٍ مبهم جدّاً!...

استطردتُ: – اشتغلتُ على نصوصهما منذ نحو عام... أيمكنكِ أن تعطيني صورةً من رسائل طرد شوقي الذي حملتهُ لكِ إلى جِبْلة، لأكمل نصوصي، وأكتبَ سرديّةً وافيةً عنهم جميعاً؟...

ردَّتْ سلباً بنفس الابتسامة الهادئة الساخرة التي صدّتني بها في جِبْلة! ثمّ سألتني: بأيّ حقٍّ تطلب ذلك؟ ماذا يُهمُّكَ في ما حدث؟ ما علاقتك به؟... عمّاذا تبحث بالضبط؟...

– شخوص أصدقاء طفولتي: باسل، أوسان، منيف، وشوقي جليّةٌ جدّاً في ثنايا نصوصهم! أمتلكُ ما يلزم لنقش لوحاتهم باكتمال! لكن شخصيّتكِ ما زالت عصيّةً عليّ بعض الشيء، غامضةً أحياناً!...

أعترفُ، بالتأكيد، بأنكِ واضحةٌ بشكلٍ لا بأس به في نصوصهم التي بِحوزتي، متناغمةٌ ومتجانسةٌ تماماً، لكني أريد أن أعرفكِ من رسائلكِ لشوقي، منكِ

مباشرة، بخطَ يديكِ، بحبالكِ الصوتية!... (كدتُ أضيفُ أمامها: برائحةِ أنفاسِكِ وعرَقكِ وسائلكِ الحميميّ...) رأسي يضجُّ بالأسئلة، أريد أن أستوعبكِ بشكلٍ كامل!...

– كل ذلك انتهى تماماً! بدأتُ حياةً جديدة!... قطعتُ كلّ علاقتي بالماضي!... حتى قراءاتي في الكيمياء (التي استنفدَتْ كلّ طاقاتي وشغفي، منذ أن قرأتُ مقال شوقي في صباي: "رسالة غرامية بالكيمياء"، وحتى وفاته العام الماضي) أوقفتُها كليّةً!...

(قلتُ لِنفسي: لكنكِ بدأتِ بمهارةٍ وعبقريةٍ كيمياءَ تحويلي إنساناً آخر!) أضافتْ: – ثمّ بأيّ حقٍّ تريد أن تقرأ رسائلي لِشوقي؟...

شعرتُ بالخجل!...

استأنفتْ: – سأختصرُ حياتي في كلمتين إذا كان لا بدّ من ذلك لِتنظيمِ رؤيتكَ لِمسالكِ الأحداث واتجاهاتها! لكنى سأطلب منك بعد ذلك أن تنسى كل ما حدث، وأن لا توجِّهَ إليّ أيّ سؤال عن ذاتي بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، من قريبٍ أو بعيد!... تريد أن تعرف حياتي من ينبوعها؟... ها هي باختصار: جذوة سعادة حياتي هما إنسانان توفيّا قبيل أشهر، أبي وأمي! كانا نادرَين حقّاً! ملآ البيت وحياتي نشاطاً وكفاحاً وحبّاً!... زرعا في طفلَيهما الوحيدَين الحبّ منذ ولادتهما!...

بفضلهما، وبفضل يوميات سعادتنا الجماعية نحن الأربعة، سكن الحبُّ جِلْدَنا، تنفَّسناهُ في بيتنا في كل ثانية! كلُّ حركةٍ أو سكنةٍ في حياتنا، صغيرة أو كبيرة، كانت معجونةً بالحب، منذ أن نصحو وحتى ننام!...

كلُّ ذرّات يومياتنا كانت منقوعةً بالحب، كانت حبّاً خالصاً!...

كان أبي بشكلٍ خاص ممتعاً جدّاً، ماهراً، ذكيّاً، كثيرَ العطاء والتفاني في العشق!... شجّعنا على التعلّم والسفر والمغامرة والحب!... حياتهُ كانت عشقاً من طرَفِها إلى طرَفِها. عاش مُترعاً بالمعشوقات!...

أمي كانت أكثر صمتاً، لكنها كانت متفانيةً في عطائها اليومي هي الأخرى، رقيقةً جدّاً، محيطَ حبٍّ مثل أبي في كلِّ الأحوال!...

بفضلهما تناغمَتْ حياتي مع أخي وحبيبي رضوان وتعمّدَتْ بالحبِّ من أولى لحظاتها!... أتذكّرُ أننا كنا نتنافس، منذ طفولتي، في من سيستيقظُ من النوم قبل الآخر، لينتظرهُ أمام باب غرفتهِ حتّى يصحو، كي يُقدِّمَ له كأسَ حليبٍ باردٍ بالهيل!...

كنتُ أقفُ قرب باب غرفته ساعات أحياناً، بكلِّ سعادةِ الدنيا، بانتظار أن يستفيق من نومِهِ، وهو كذلك!...

لن تعرف يوماً مقدار سعادتي عندما كنتُ أستيقظُ بعده، وأراهُ مستقيماً صامتاً قربَ الباب يحملُ لي كأس الحليب الباردِ بالهيل! يكفي أن أتذكّر ذلك لأبكي!... (بَكَتْ بِلا وعي)!...

لم يمرّ يومٌ واحدٌ منذ طفولتنا لم يُقدِّم أحدنا فيه للآخر هديّةً تفاجئُه، أو عبارةً جديدةً مغمورةً بكلمات حبٍّ وفيرٍ زاخرٍ لم يتوقّعها!... ثمّة ألف طقسٍ وطقس في تواصلِنا وتفاعلِنا اليومي مطرّزٍ بالحب، يحتاجُ سردُهُ كتاباً كاملاً، أو عدّة كتب!...

أتذكّر أيضاً أننا قَبَّلنا بعضاً عندما كان عمري ٧ سنوات (مثل قُبَلِ السينما، عدّة مرّات، فقدنا خلالها وعيَنا من فرط السعادة!) ثمّ توقّفنا معاً لأنه سمع أن ذلك: حرام!... أرعبَتْنا هذه الكلمة، وإن لم نستوعبْ مدلولَها ومبرِّرَها حتّى الآن!...

لكن الرغبة القوية في أن نُقبِّلَ بعضنا بحبٍّ لانهائي لم تذوَ قَطّ! تشعُّ دوماً من أعيننا، تتلوّى في نبراتِنا...

رضوان أميرٌ من أمراء ألف ليلة وليلة! هو "القمر في أكمل بهائه" حسب تعبير شهرزاد!...

لم يتزوّج رضوان رغم تهافتِ أروع وأجملِ البناتِ عليه! رفض أن يُحبَّ فتاةً أخرى غير أروى، أرواه! يكفيهِ في هذه الحياة رؤيتي واستنشاقي لتكتملَ سعادته!...

فضّل أن يعيش معي في بيتنا الزوجيّ "رهينةً" للطاغيةِ منيف على أن أفطمهُ عن حليبه!... ليس يوماً في حياتهِ ذلك الذي لا يبدأُ بكأسِ حليبٍ من يدي، أو من يده!...

لعله لم يهضم سفري إلى باريس لرؤية أوسان بسبب خوفه من انقطاع هذا الطقس الذي يُقدِّسه!...

بسبب رضوان لم أستطع الانفصال عن منيف الذي هدّدني بالنيل من حياة أخي إذا فكّرتُ في الانفصال عنه. ولم يتردّد عن برهنة ذلك مرّتين!...

لم يقطع رضوان حبل السرّة بي، فيما قطعتُهُ نسبيّاً بشكلٍ أو بآخر في الرابعة عشرة من العمر: ما إن رأيتُ صورةَ شوقي (التي ذكّرَتْني بأوسم مخلوقٍ على الأرض: رضوان) في بيتِ بلقيس، جارتنا في مدينة تَعِز، حتى خلبَ لُبِّي بجنون! هرعتُ نحوهُ لِأوْدِعَهُ كل ما هو "حرام" في حبّي لرضوان!...

عشقُ شوقي دام قرابة ثلاثة عقود، كنت أنا صانعته! قُبْلتُه الأولى لي في تَعِز كانت مثل هذا اليوم تحديداً! كنّا نحتفلُ بذكراها معاً كل عام!...

طعمُها يملأ روحي، لا تفارق وجداني لحظةً واحدة!...

(حدّقتُ في عينيها المبلّلتين: ترقصُ فيهما ابتسامةٌ رهيفةٌ ساحرة، وهي تستحضرُ قبلةَ شوقي وتحتفلُ بعيد ميلادِها الرابع والعشرين!...) انتحر شوقي مثل هذا اليوم قبل عامٍ بالضبط، قبل وفاة أوسان بأسبوعين. أنحني اليوم لذكرى موتهما معاً، في يومِ وفاة الأول وأمام رفات الثاني.

أتركُ لهما باقتين من الورود الحمراء على يسارِ علبة الرماد ويمينها. وأخرى لنوغدين قرب ضريحه!...

أسّسَ وأثّثَ عشقُ شوقي مداميك روحي ورؤيتي للحياة! أدينُ لهُ بكل شيء!... ظلّ هوَسي المقدّس الذي ترعرع معي واشرأبَّ يوماً بعد يوم! تعلّمتُ بفضلهِ أن أكون أنا كما تراني الآن!...

شوقي هو من شجّعني على أن أتجرأ، أن أغامر، أن أتحدّى... حثّني على نسج أوسع العلاقات، أن أخوض أغنى التجارب، ملأ حياتي شِعراً لأنه شاعرٌ بالفطرة، بوهيميٌّ بالسليقة، له أكثر من معشوقةٍ في نفس الوقت، عباراتُهُ الغراميةُ تأسرُ القلب، لا تُنسى!...

تذكَّرْ هذه العبارة جيّداً: لَعلّي نسخةٌ أنثويةٌ من شوقي، لا أقلَّ ولا أكثر. أحبُّ كثيراً مثله. لا أستطيع أن أتنفس دون حبٍّ، مثله!...

لن تعرف عن هذا العشق أكثر مما قلتهُ الآن! هو سرٌّ مغلقٌ في سياجٍ حصين، في قلعةٍ مُسوَّرةٍ في عمق أعماقي!... اِنسَ التفكيرَ بالطرد الذي أعطاك، ذلك كما يقول الفرنسيون: "سِرّي الصغير"!... إنسَ شوقي، لو سمحتَ، تماماً!...

بسبب عشق شوقي قرّرتُ شخصيّاً أن أقبَلَ الزواج بمنيف الذي لم أحبّه، والذي أيقنتُ أني لن أحبّه يوماً، منذ أوّلِ لقاءٍ يتيم به، قبيل الزواج، دام عشر دقائق! سعدتُ فعلاً بقناعتي المطلقة هذه! هل تُصدِّق ذلك؟...

ربما وافقتُ على الزواج منه لأني كنتُ متأكّدةً تماماً أن ذلك سيضمنُ بقاءَ جذوةِ عشقي لِشوقي (هل تُصدِّق ذلك أيضاً؟)!...

حرصتُ على تناولِ حبوبِ منع الحمل بإصرار حتى لا أنجب من منيف، بانتظار أن تقترنَ حياتي بشوقي ويتحقّقَ حلمي بإنجاب قطيعٍ من الأطفالِ منه!... لكني دفعتُ ثمن ذلك غالياً: انتظرتهُ دهراً دون أن يُهمَّه ذلك!...

بعد برهةٍ أليمةٍ من الصمت، استطردتْ: - الزمن لا يرحم! أروى اليوم تجاوزت الأربعين من العُمر، بلا طفل! سلالة أبي وأمّي ستنتهي بعدي إلى الأبد، لأن رضوان لم ولن يتزوّج!...

قلبي روضةُ حبٍّ تكفي لاحتضان سربٍ من الأطفال! كلّ ذلك تبدّدَ عبثاً في لا أشياء صغيرة!...

لا يمكنكَ أن تستوعب حجم هذه المأساة وما تُسبِّبه لي من ألمٍ واضطرابٍ وضغطٍ وعذابٍ يومي!

ربما لذلك أجِدُني أحْبُكُ يدويّاً، كلّ ليلة، ملابسَ لأطفالٍ فقراء بلا مأوى، حرمتني الحياة إنجابهم وإرضاعهم واحتضانهم مدى العمر!...

أوسان اختيارٌ حديثٌ جدّاً، نزيهٌ واعٍ، عشقٌ طوباويٌّ تأسّس بعيداً عن رضوان تماماً، وقريباً من شوقي تماماً، بسبب فراغٍ لم يملأه شوقي الذي فضّل أن أكون أيقونته ومعشوقته السريّةَ البعيدةَ مدى الحياة، ترفَ حياته!...

تطوّرَ عشقُ أوسان وتعملَق في معمعان تفاعلٍ صادقٍ مخلص! هذا ما كنتُ أحتاجهُ في كلِّ ثانية...

(لاحظتُ: لم تقل أروى مع ذلك إن حاجتَها إلى أوسان دمّرت حياة ليلى ولؤي إلى الأبد!) تستطرد: - سقط أوسان بعشقي بصعوبةٍ وبطء، بعد تردّد طويل.

لكنه عشقَني كما عشقته بنفس القوّة. ضحّى لأجليَ مثلما ضحّيتُ لأجله. لن أطيل الحديثَ عنه لأنك تعرف تفاصيل عشقي له، من لِسانِه هو نفسِه، كما قرأتَهُ في نصِّه!...

أما باسل فهو دخيلٌ على الخط. هو ظِلُّ نفسِهِ. هرعَ ومرعَ في ضواحي حياتي دون أن أطلبَ منه ذلك! ظلّ حصاناً جامِحاً خارج حلبة السباق!... لم أعتبره منذ أن رأيته غير موضوع دراسةٍ ممتعٍ جدّاً!

لم أطقهُ في الحقيقة، دون أن يعرف ذلك، لسببٍ بسيط: أحبّني قبل أن يعرفني، أي لم يُحبّني في الأساس إلا حُبّاً دونجوانياً سخيفاً!...

يلزمني أن أضيفَ أن باسل ظاهرةٌ فريدة تختلفُ عن كل من عرفتُ أو عاشرت: كلّ من أحبّوني أو عبّروا عن إعجابٍ متواصلٍ بي أو طاردوني بلا كلل، لم يفعلوا في الحقيقة إلا لأني أردتُ ذلك بشكلٍ أو بآخر، لِسببٍ أو لآخر، تاركةً لهم بطريقةٍ أو بأخرى خيطاً رفيعاً من ضوءٍ أخضر يسمح لهم بذلك!... جميعهم إلا باسل!...

أراد أن يحطّ في حياتي كجلمودِ صخرٍ حطّهُ العشقُ من علِ! كان واثقاً من نفسه أكثر من اللازم، لذلك لم أحبه!...

لعلي أيضاً تركتهُ يحترقُ بهدوء!... ثمّ لا تنسَ: باسل ميكيافليٌّ جدّاً بشكلٍ مخيف!...

واصلَتْ أروى بعد نهدةٍ طويلة: – بعضهم (بمن فيهم باسل) يواصلُ مغامرته حتّى نهايتها الحتميّة: المَهْلَكة!

(اعترافٌ هامٌّ من مالكةِ الحياة والموت!...

قلتُ لِنفسي بهدوءٍ وصمت: "عُقبالي!... هذه المهلكةُ هي الحياةُ الحقيقية! الحياةُ بدونها موتٌ بِقناعِ حياة! من لم يمت على أنغام "حوريّة البحر" فهو لم يحْيَ أبداً في الأساس")...

ثمّ استطردتْ: – اعلمْ أيضاً أن حياتي في السنوات الأخيرة تحوّلت إلى جهنم! صار منيفُ أشنعَ وأبشعَ من أيِّ وقتٍ مضى، لم أعد أطيق حتّى رؤيته!...

صار شوقي أكثر رغبةً من أي وقتٍ مضى في أن أظلَّ أيقونتَهُ، سلواهُ البعيدة، حديقتَهُ السريّة، ومتعتَهُ النموذجية بين الآن والآن!...

وصار أوسان أتعبَ من أيِّ وقتٍ مضى: التفاعلُ والعشقُ والحياةُ معه تتطلّب تفرّغاً كاملاً، نضالاً يوميّاً، استنزافاً لكلّ الطاقات!...

ناهيك عن دخول باسل في الخط: صار حضورُه إلزامياً بعد أن دبَّر اغتيال منيف بإشارةٍ مني وضوءٍ أخضر!...

دون الحديث عن انزعاج رضوان مني وإحساسهِ بأني لم أعُد أروى التي تتحدّثُ معه من القلبِ إلى القلب! تتفجّرُ غيرتُهُ باستمرار، يرى أني لا أتفاعل معه إلا بشكلٍ روتينيٍّ، دون إبداعٍ أو كثافةٍ أو تجديد!...

ودون الحديث أيضاً عن علاقاتٍ صغيرةٍ أخرى لن تعرف عنها شيئاً!...

أنصتُ إلى كلِّ ذلك بخشوع واستثارة. تواصل أروى: – زهقتُ كما لم أزهق يوماً! كدتُ أجن! صرتُ أشبهَ بِراقصةٍ تدورُ حول نفسِها، ثلاثمئة وستين دورةً في الدقيقة، دون توقّف! المسرح مظلمٌ جدّاً، لا تنبعثُ من سقفِهِ إلا هالةُ ضوءٍ صغيرةٍ تكسو جسد الراقصة!...

يصابُ المشاهدون بالدوار والدوخة، فيما هي لا تكفُّ عن الرقص دوراناً كخذروف في مركز حلبة المسرح!...

أرقص في الحقيقة على رمالٍ متحرِّكة، تشفطني دوّامةٌ دائريةٌ خانقة: وجدتُ نفسي فيها أنتقمُ من منيف بشوقي، من شوقي بأوسان، من أوسانَ بكلِّ حبٍّ عتيقٍ أو جديدٍ يراودني!...

صرتُ أشعر في كلِّ ثانية بأني أمشي فوق بَيْض! كلُّ ما أقوم به، في أية لحظة، يغيظُ واحداً على الأقل!...

صار نموذج حياتي: "الحركة البراونية"!...

يا للروعة!... يا للغرور الأنيق أيضاً! أخرجَتْ أروى قاموسَها العلمي أمامي، صفَعتْني به بِقوّة!...

بحثتُ في القواميس العلمية عن مدلول "الحركة البراونية": هي حركةُ جسيم "ضخم" في سائل وُضِعتْ فيه جسيماتٌ "صغيرة"، في تفاعل صداميٍّ دائم معه!...

النتيجة: حركةٌ عشوائية اكتشفها روبرت براون في القرن التاسع عشر، وتمّ تحديدُها رياضيّاً بشكلٍ خاص بفضل إحدى صيغ أينشتاين!...

جلستْ أروى على مقعدٍ خشبيٍّ على هامش مسلكِنا في الغابة، جلستُ قربها. تُحاذِينا صفوفٌ من أشجار الصفصاف. حطّ أمامي منقارُ شحرورٍ صغير هبط من أعلى شجرة السنديان الضخمة!...

رتَّبتُ في دماغي كلّ ما قالت، وأنا ألاحقُ بنظري الشحرورَ بلاوعي!...

فراشةٌ زعفرانيةُ اللونِ تحومُ حولي! يا للإعجاز! فراشةٌ في معمعان الخريف! لعلّنا نحيا "صيفاً هنديّاً" متأخراً جدّاً، أو لكأن أروى حملت لي صيفَ اليمن تحت إبطَيْها الإلهيّين الشذيّين!... تغمرني فجأة سعادةٌ مُنْعِشَة!...

تعبرُ الغابةَ أمامنا شابةٌ على درّاجة، تُهمهم نغمات أغنيةٍ لِايفا نيسانس، تثير شجوني. يليها رياضيٌّ يجري بمهنيّةٍ ولياقة، يتحدّى المسافات!...

يعبرُ بعدهما خمسينيٌّ تلتصقُ بأذنيهِ سمّاعات جهاز إم. بي. ٣، تتسلّلُ منها عبارة جميلة من أغنية لِبوب ديلان: "من ليس مشغولاً بالولادة، هو مشغولٌ بالموت"!... عبارةٌ انتحارية متطرِّفةٌ بالتأكيد كانت ستعجبُ أوسان الذي لا يستسيغُ الأوضاع المائعة بين قطبي الثنائيات، كما قالت ليلى...

تملأُ هذه العبارة دماغي الآن أملاً ورغبةً في الحياة! أسمع خيوطَ نغماتِ العبارة تنبعثُ من أمعاءِ الغابة!...

نسماتٌ باردة. أروى تعبرُ بنظراتها المحملِقة صفوفَ أشجار الغابة. تتمتم: – لم يكن باسِل لِيفكِّرَ في التخلّص من منيف وينفّذَهُ لو لم أعطه الإشارةَ بذلك

والضوءَ الأخضر!... أتحمّل وحدي مسؤولية ذلك!...
فراغٌ داكن، اعترافٌ خطير!...
صمتٌ مهيب، أكادُ أسمعُ من هَولِهِ نموَّ أعشابِ الغابة!...
على تقاسيمها حزنٌ ما، وقَرَف. لم تُخفِ دمعتينِ هاربتين وهي تستطردُ بعد دهرٍ من الصمت: – كلّ ذلكِ انتهى الآن! مات أبي وماتت أمي ومات شوقي ومات أوسان!... ماتوا جميعاً!...
(لم تقلْ: "مات منيف" لأنه، منذ أن عرَفَته، عاش ميّتاً!...
استغربتُ لماذا لم تقل على هامش اعترافاتها: "أنا قاتلةُ أوسان وشوقي!... قتلتُهم جميعاً!" سأفهم السبب قبل نهاية لقائنا هذا بقليل!)...
الغابة شديدةُ التنظيم. للأشجار الباسقة جذوعٌ مستقيمةٌ متماثلةٌ شديدةُ التشابهِ والكمال، لا تشكو من ضمورٍ أو اعوجاجٍ بسبب جفافٍ أو حاجةٍ للبحث عن الماء. تفصلُها نفسُ المسافة. للحشائش والأعشاب نفسُ الطول والهيئة!...
الغابة أحياءٌ مرتصّةٌ كمربعات شطرنج، جميعها مشذّبةٌ منسّقةٌ مرتّبة!...
"هذه ليست غابة، هذا بستانٌ رتيبٌ ضخم!"، قالت أروى!...
لا تحبُّ أروى هذه الرتابة، رغم أناقةِ الغابةِ وجمالِها الخلّاب! تُفضِّلُ نموذجَ "الحديقة الصينية" بكل تعقيدها وتنوّعاتها وعشوائيّتها. تلك التي ما إن تخطو خطوتين فيها إلا ويواجهكَ منظرٌ جديد، أكمةٌ، جذوعٌ متناثرة بِحُرِّية، بيتٌ صغير، بركةُ ماء، أعشابٌ مفاجئة، تداخلاتُ ورودٍ وأزهار غريبة!...
سجّلتُ في ذاكرتي بأحرف كبيرةٍ مضيئة ما فات باسل وأوسان وشوقي تماماً: "نموذجُ روحِ أروى: الحديقةُ الصينية!"...
استأنفَتْ أروى بعد أن استعادت جأشَها قليلاً: – لا أبحث الآن إلا عن الهدوء!... اشتريتُ ثلاث شقق في القاهرة وجنوب إسبانيا وصقلية!... لكني أحيا معظم الوقت خارجها، أسافرُ من بلدٍ إلى بلد، أقرأ كثيراً أيضاً! أتجوّلُ دون توقّف، وأرتاد المسارح والأوبرات والسينما في كلّ أنحاء العالم!... أكتب قصصاً للأطفال ومقالات متنوّعة، باسمٍ جديد أيضاً!... أتصالحُ، في الحقيقة، مع نفسي بالسفر والكتابة الأدبية!...
وجّهتُ لها هذا التساؤل الذي انفجرَ أمامها بصدقٍ صارخ: – كيف لكِ أن تمتلكي كل هذه القدرات والمواهب والملَكات اليدويّة والفكريّة في نفس الوقت؟ ما الذي لا تجيدينه في هذه الحياة؟...
ابتسمتْ وتلألأت عيناها بلا وعي. ردَّت: – ثناءٌ لا استحقّه، لكني أحبه! اعلم أوّلاً أني أحبّ إعجاب الآخرين بي وثناءهم عليّ (لا يغرُّني ذلك، لأني لا أعتبر نفسي غانيةً، حسب تعبير الشاعر أحمد شوقي، لكنه يذيبني جدّاً، أحتاجُهُ بضراوة!)...
إذا كان ذلك صحيحاً فلا تفسير له إلا الثراء الجيني!...

– لا أفهم!... أنتِ، أروى اليَزَنِي، من أكثر العائلات اليمنيّةِ يمنيّةً! لا توجدُ عائلةٌ أكثر "نقاءً" جينيّاً من عائلتك (وإن لا أعتبر ذلك مدحاً في الحقيقة. هو ذمٌّ يُشبِهُ المدح، على الأرجح!)... لن يُصدِّق أحدٌ أنكِ هجينٌ جينيّ!...

ردّتْ بعد برهةٍ صمت: – بفضل والدي عرفتُ أن لي أجداداً من تركيا الإغريقية، ومن آسيا الصغرى أيضاً، من جهته، وأجداداً من إيران، ومن راجستان في غرب الهند، من جهةِ أمّي!...

لو كنتَ خبيراً في الإثنولوجيا والمورفولوجيا لأدركتَ أن عينيّ راجستانيتان، أسناني تركيّةٌ إغريقية، أنفي إيراني، ووجنتيّ أناضوليتان!...

كلّ ذلك "تيمنَنَ" بما فيه الكفاية، كما يلزم! أدينُ لهذا التنوّع الجينيّ بالطبع!...

تمْتَمتْ: – ما يؤسفني هو أني لا أمتلك عينين زرقاوين إيرانيتين!...

توقّفتْ برهةً انقبضَتْ خلالها عيناها، وكساها حزنٌ مفاجئ. استأنفَتْ: – لكن ما يُعذِّبُني بشكلٍ قاتل هو أني لم أنجب طفلاً! سلالةُ أبي وأمي ستنتهي بي: هذه كارثةُ حياتي!...

لذلك، أيةُ امرأةٍ تراها في شارع تعز بصنعاء، أو في شارع مَدْرَم بعدَن، أو في حيّ الأشراف في تعِز، أسعدُ مني بالضرورة!...

استعادتْ أنفاسها ثمّ أردفَتْ: – هذا كلّ ما أريد قولَهُ لك لِتروي غليلكَ التلصّصي المشروع! لن تسبر أغواري أكثر! (ما بَقي ملحمةُ تفاصيل. مكتبةٌ ضخمة، ينضاف إليها كلّ يوم كتابٌ جديد!)...

أو ربما سوف تستوعبني أكثر إذا التقينا يوماً. أفضّلُ أن تعرفني من خلال تفاعلٍ مشترك تُقوِّمُهُ وحدَك، على أن تَعرِفني من سيرةٍ ذاتية أحكيها لك كما أشاء!...

استضاء وجهي على حين غرّة. كدتُ أشهقُ فرحاً. لوّحتُ بعلامة دهشةٍ كبيرة، وبسعادةٍ لم استطع إخفاءها: – يعني ذلك أننا سنلتقي مرةً أخرى، وسنتفاعل؟...

– لا أعرف! أذكِّرُكَ بشرطٍ واحد لا تنسَه: لا تسألني بعد الآن أي سؤال يحوم حول حياتي الخاصة! لن تعرف عناويني! ليس لديّ هاتفٌ ولا أريد رقم هاتفك أو عنوانك! انسَ اسمي أيضاً!...

– استفسارٌ شخصيٌّ أخير: ما أخبار باسل؟ راسلتُهُ بالإيميل ولم يجب! لم يعد إلى شُقَّتهِ الباريسية منذ عام!...

– بعث إليّ سلسلةً من الإيميلات منذ ١ نوفمبر ٢٠٠٧! رددتُ عليه بِعبارةٍ واحدة: "اختفِ من حياتي سريعاً!"... بعث آخر إيميلاته من روسيا! يبدو فيها أشبه بمتسوِّلٍ مجنون، يقول إنه مُطارد!..

لم أعرف عنه شيئاً بعد ذلك... باسلُ يحيا في مملكة الظلمات!...

– آخر سؤالٍ "يحوم حول حياتك الخاصة"، لو سمحتِ: لماذا اخترتِ شوقي وليس أوسان؟...

– من قال لكَ ذلك؟... توقّفَتْ خطّتي في أولى مراحلها وأنا في بدءِ حواري مع أوسان، بسبب دخولِ باسل ورضوان على الخطّ!... لم أتوقَّعْ دخولهما!...

أعرفُ أوسان كما لو كنتُ أنا صانِعتَه! كان السيناريو الذي رسمتُهُ وبدأتُ بتنفيذهِ أمامه سيصلُ منطقياً إلى هذه النهاية الحتميّة: كنتُ سأختارُ أوسان عشقيَ الأوحد، وشوقي حُبِّيَ الأكبر!...

قد تبدو لك هذه معادلةً مستحيلة، لكنها كانت الأنسبَ للجميع، الأصحَّ قطعاً!... لعلك ستضيعُ قليلاً في هذه العراجين العاطفية! لا يُهم!...

ذلك يعني: عشقي وجَسدِي لأوسان فقط ابتداءً من الآن، لكن حبَّ شوقي هو الأعظم، سيظلُّ ثابتاً سرمديّاً عميقاً سامقاً مشرئباً أعلنهُ أمام الله والملأ، نلتقي متى وكيف وأين نريد!...

كنتُ أنوي أن أعلنَ قراري لهما معاً، وللعالَمِ أجمع، في وضحِ النهار!...

ركعتُ رهبةً أمام هذه الصيغةِ الرياضيةِ المعقّدةِ المُرعبةِ الهوجاء: "أوسان عشقيَ الأوحد، وشوقي حُبِّيَ الأكبر!"...

مَن غيرُ أروى الكيماوية يستطيعُ تصميمَ هذه المعادلةِ الزجزاجيةِ الحلزونية اللولبية الطائشة القاتلة؟...

لعلَّ أوسان وشوقي، وهما في غياهبِ العدمِ الآن، أكثرُ سعادةً من حياةٍ دنيويةٍ قرّرتْ فيها أرواهما القَدريّة أن يكونا جِذرَينِ تربيعيّينِ باهتَين (أحدهما أشعث، والآخر أغبر) في أقصى طرَفي معادلةٍ ممزَّقةٍ مجنونةٍ صمّاء!...

استطردَتْ بعد نهدةٍ طويلة: – انتهى كل ذلك بشكلٍ مباغت... فشل السيناريو، وتعقَّدَ كلُّ شيءٍ من البداية، بسببِ حضور باسل بجانب شوقي أثناء تليفونه، وبسببِ إس إم إسات رضوان التي أجبرتني على الاتصال به!...

شعرتُ أخيراً بأني استوعبتُ قوانين حركة وجاذبية حياة أروى وكواكبها المدارية الثلاثة!...

سكنتني هذه الحيوات، صارتْ هوَسَ حياتي. صارتْ حياتي!...

لكني ندمتُ لأني لم أرَ رضوان، لم أسمعه!...

قبل وداعها، سألتُها: – ألديكِ صورةٌ لِرضوان؟ لم أرهُ لسوء حظّي في بيتكم في جِبْلة...

فتحتْ حقيبتَها! أرتني صورةً له وهو في التاسعة عشرة من العُمر!... رضوان نسخةٌ ذكوريةٌ من أروى، له نفس القسمات والجمال والسحر والتعبيرية!...

أدرْتُ (دون إذنِها) الصورةَ لأقرأ الإهداء!...

لم يكتب رضوان، كالقرود، هذه العبارة التي يردِّدها الجميعُ في اليمن: "أهديك صورتي للذكرى، لأن الذكرى ناقوسٌ يرنُّ في عالم النسيان"!... كتب عبارات شخصيّة بحتة، شديدة الحميمية، بدأتْ بِـ"أعشقكِ مدى الحياة أختي، حبيبةَ عمري، ...".

ثمّة كلمتان مشطوبتان بعناية، بعد "حبيبة عمري"!...

سألتُ أروى: ماذا انشطبَ هنا؟...

أغمضَتْ عينيها طويلاً بعد أن قبّلتْ صورة رضوان قبلةً طويلةً دافئة.

(دهمتني رغبةٌ مفاجئة في أن أستغلّ إغلاق عينيها لتركِ قبلةٍ مارقةٍ على شفتيها، أنا أيضاً، مثل بعض فدائييها! أردتُ فعلاً أن "أغافلها بقبلةٍ" انتهازيّةٍ ماكرة، على غرارِ أحد عشّاقِها، شوقي، في هذه اللحظة بالذات التي أغمضَتْ فيها عينيها...

لا توجدُ في الحقيقة لحظةٌ قدَريّة أسهلُ وأفضلُ من لحظةٍ سانحةٍ كهذه لِتوقيع أوّلِ قبلةٍ مفاجئةٍ على ثغرِ فتاة!...

لكني لم أفعل: راودني طيفُ باسل! خفتُ أن أكرِّر هزيمته الجذريّة!...).

ثمّ أجابتْ: سؤالٌ تلصّصيّ غير مشروع! بأي حقٍّ تقرأ الإهداء دون إذْنٍ منّي؟...

اعتذرتُ بارتباك!...

رفَضَت الرّد!...

لن أعرف إذن أين يتموضعُ حبُّ رضوان لأروى داخل تلك الأرض البوار، الشائكةِ جدّاً، التي تفصلُ الحبّ الأخوي "المشروع" بالعشقِ الأخويّ المنسوب إلى عشق المحارم!...

أيُهِمُّ معرفةُ ذلك فعلاً؟... أليس ذلك أقلَّ جمالاً وإثارةً من حيرتي الصمّاء!...

تذكَّرتُ أني نسيتُ أهمَّ وأخطرَ سؤال!...

– المعذرة، هذا آخر سؤال، أعِدُكِ: قلتِ قبل قليل: "رضوان لم ولن يتزوّج"! لم أره في جِبلة قربك، أين هو الآن؟

لم تُجبْ. تردّدت طويلاً...

صمتٌ أصمّ، كاد أن لا ينتهي، قبل أن تُتمتم: – يسكنُ معي في شُقَقي خارج اليمن!

ثمّ ودّعَتْني (دون أن تشرح لي أين ستذهب، وإن كنّا سنلتقي فعلاً مرّة أخرى) لتتركني في خواء!...

قبل الوداع كان هذا الحوار الختامي المفاجئ، قالت: – إلى اللقاء!...

قلتُ: – كيف سنلتقي، كما قلتِ، وليس بيننا اتصال؟... ثمّ أريد أن أقرأكِ، أن أغوص في مقالاتك وسرديّاتكِ أنا أيضاً بحماسةٍ وعشقٍ وإخلاص وشغفٍ وتتيّم!...

– أعرفُ أين سأجدكَ إذا أردتُ ذلك!...

تذكَّرْ قَيْداً واحداً، خطّاً أحمر: لا تسألني بعد الآن أي سؤالٍ يحوم حول حياتي الخاصّة! لن تعرف عناويني، ليس لديّ هاتف ولا أريد رقم هاتفك أو عنوانك!...

انسَ اسمي أيضاً!...

تذكَّرْ: بدأتُ حياةً جديدة!...

هل تعرف ما تعني: حياةٌ جديدة؟...

ثم استدارتْ وابتعدتْ عني!...

أضافت بعد خطوات: – ستقرأُني ذات يوم أنا التي سأختاره!...

ناديتُها وهي تستدير: – قلتِ إنك تعرفينني، لا أفهم ما تقصدينه!...
– أنت ثالوثٌ مركّبٌ من أوسان وشوقي وباسل معاً، في شخصٍ واحد، لا أقلّ ولا أكثر!...
اللعنة!...
فضحَتْني بشراسة أمام القراء، فكّكتني تماماً!...
علّقتُ مستنكراً: – لكني أكبرهم بثلاث سنين! و"أكبر منك بيوم، أعقل منك بسنة"، كما قلتُ في بداية هذه الرواية!...
– "على غيري"!... تعرف مثلي أنّها "تباتيك" روائيّة ليس إلا!...
– حسناً، لكني لستُ بِبلاهة ونقاء الكمبيوتر المؤنسن أوسان، لستُ بِمغامرات وذكاءِ وميكافيلية الزنديق باسل، ولستُ بِكسلِ وشلَلِ العاشق النائم شوقي!...
لا أريد أيضاً أن أعيش طفلاً قلقاً كأوسان، طائشاً مجنوناً كباسل، بطيئاً متأخراً كشوقي!...
أحبُّهم جداً مع ذلك، لكني لستُ أكثر من "أخيهم الكبير"!...
لم تردّ!... تلاشت بين أشجار المقبرة، ثم اختفتْ عن ناظري!...

***

زاد اندماجي بعد لقاء المقبرة بنصوص الفدائيين وولعي بروايتهم التي تقدّمتُ فيها كثيراً.
تماهيتُ بِعُشَّاقِها أكثر فأكثر من فرطِ الإنصات إليها في ذلك اللقاء، والتتيّم بها قَبلَهُ وبَعدَه!... زاد بؤسي وانهياري أيضاً!...
صارتْ، هي و"فدائيوها الثلاثة"، الحقيقةَ، وكلُّ ما عدا ذلك باطلٌ، ثانويٌّ، سخيف!...
لم أتوقّف عن لوكِ هذه الفقرة التي كتبَها باسل: "في نظراتي التوديعية ألمٌ كافر لِفراقِها، سعادةٌ هوجاء لاحتضانها، دمعتان حبيستان، وبلاغةٌ خرساء تهمسُ: "خذيني معك أروى، ومن بؤسيْنا قد نصنعُ نوعاً من السعادة!"...".
الغريب جدّاً: كلّما توحّدتُ بأبطال هذه الرواية ودمجتُ نصوصهم، تخبّطَتْ حياتي على أرض الواقع، وتشظّتْ وادلهمّت واختلطت بحيواتهم لتقترب من الانفجار!...
صرتُ مثلهم على حافة الانهيار، إن لم يكونوا هم مثلي قبل ذلك!...
لم أتوقّفْ (في خضمِّ انهياري) عن استحضارِ أروى كما رأيتُها في جِبلة، ولَوْكِ ذكريات لقاءِ المقبرةِ وبوجهِ المهيب!...
كانت أروى في معمعان ما أحياهُ من نكدٍ وبؤسٍ وسوداويّة مثل شجرةٍ تنمو فوق مقبرة، مثل نافورةِ ضوءٍ في ليلٍ بهيم، مثل نقوشِ خضابٍ سوداء كرنفالية على جسدٍ رهيفٍ يعيش عدّة مآتم في نفس الوقت!...

ظلّت عبارتها في المقبرة: ”تذكّرْ: بدأتُ حياةً جديدة!... هل تعرف ما تعني: حياةٌ جديدة؟“ تعيدُ غربلتي وصياغتي من جديد، يوماً بعد يوم!...

حلمتُ بأن أكون على موعدٍ معها في تلك ”الحياة الجديدة“، حياتيَ الحقيقية التي لم تبدأ بعد. أن أخوضَ معها رحلةً نحو آفاق جديدة، مدناً وجزراً ومرافئَ جديدة!...

ردّدتُ مليون مرّةٍ كلَّ يوم، منذ لقاء المقبرة: ”حياة جديدة“!...

تساءلت دون توقّف أيضاً: أليست الحياةُ الجديدة روايةً جديدة،

تنكتبُ بإيقاعٍ جديد،

باتجاهٍ جديد،

بِلُغَةٍ جديدة؟...

السارد يتحدّث:

موتٌ أخير، أو حياةٌ جديدة

القيلولةُ تسيلُ بعذوبة على شارع الشانزليزيه عندما ارتميتُ على مقعدٍ في شرفة مقهى جورج الخامس المجاورِ لمسرح الليدو في قلب الشارع. نفسُ المقعد الذي أرتمي عليه للاسترخاء على إيقاع عذوبةِ انسيابِ العابرين وهيامِهم...

كنتُ شديدَ الإعياء والإحباط هذه المرة، أشعر بالاكتئاب والرغبة بالاستقالة من كل شيء في حياتي التي تعطّلَتْ تماماً منذ عامٍ ونصف، وانزلقت في أشهرها الأخيرة نحو مضيقٍ مسدود!...

رمقتُ لوحات سينما اللّيدو، على يساري، بلاوعي. جذبني كـ"ثُقبٍ أسود" الشدقُ الوسيمُ الحائر للممثل الأميركي جواكين فونيكس وهو يتوسطُ فاتِنَتين: فينيسا شو وجوينيت بالترو، على لوحة فيلمٍ "معشوقتان"!...

بلاوعي تماماً، انتفضتُ من مقعدي مُهرولاً باتجاه مغناطيس شبكة التذاكر!... لأوّل مرة في حياتي، قرّرتُ دخول السينما وحدي، أنا الذي لم "أتَسَيْنم" يوماً دون إنسانٍ بجانبي!...

استحضرتُ للمرة المليون آخر عبارات أروى في المقبرة: "تذكّرْ: بدأتُ حياةً جديدة!... هل تعرف ما تعني: حياةٌ جديدة؟"...

اشتريتُ التذكرة. موعدُ العرض بعد ساعةٍ تقريباً... عُدتُ إلى المقهى من جديد بانتظار الموعد... بحثتُ عن مقعدٍ بديل لمقعدي الذي لم يعد شاغراً...

الفتاةُ التي تنتصُّ عليه تطلب كأساً من عصير الرمَّان!...

حدّقتُ بها متمعِّناً كي أصدِّق أنها...

أنها...

أخفيتُ ذهولي وأنا أراها تجلسُ على مقعدي في مقهى جورج الخامس! أخفَتْ استغرابها حال رؤيتي أيضاً، إن لم يكن لقاؤنا مخطَّطاً من قِبَلها بشكلٍ أو بآخر!...

نظراتُها عميقةٌ جذّابة، بياضُها نقيٌّ ساحر!...

عليها فستانٌ عاري الكتفين من الحريرِ الخالص، بلونٍ نقيٍّ واحد: أحمرٌ دمويٌّ متوهّجٌ مشتعل، نصفهُ الأعلى خفيفٌ كـ"تيشورت" شبابي، جذّابٍ ببساطتهِ وانسيابهِ على صدرِها الطليقِ المكتنزِ الناعم، ونصفهُ الأسفل راقصٌ "اسميرالديّ"، يجلي رشاقةَ خصرِها الرقيق جدّاً!...

(رشاقتُها مُطلَقة، لها خصرٌ يمكن إحاطته بنصف يد. لعلّهُ لا يتجاوز الستة والثلاثين سنتيمتراً في أقصى الحالات!...).

تفرَّستُها: فارعة، لها خطوات خفيفةٌ إلهية... أعرِفها تماماً، لها قسماتُ تمثال "أضحية النيل" في المتحف الفرعوني في القاهرة، بدقّةِ جمالِه الفرعوني الذي لم أرَ في لوحةٍ أو في الواقعِ جمالاً يُضاهيه.

حيّا كلٌّ منا الآخر بحفاوة، دون الحديث عن معرفةٍ سابقة! جلستُ على المقعد المجاور! طلبتُ كأس بيرة "أفليجم"!...

تقدّمَ حديثُنا بسرعةٍ بهتَتني!...

ثرثرنا وكأننا نعرف بعضاً من زمن، أو في حياةٍ سابقة: هي كاتبةٌ باسْمٍ مستعار! تسافر كثيراً! صوتُها سَيْلٌ من الومضات الملونة، أسبحُ فيه أثناء سماعه!...

يبدو أنها تعرف عني كل شيء! قالت لي، وقد أضعتُ موعدَ فيلم "معشوقتان":

– سألخِّصكَ سريعاً: أنت شغَفٌ خماسيُّ الأبعاد!...

بُعدُك الأول: الكلمة! منذ طفولتك، وأنت تعشق الكلمات! هل تذكر ما كتبْتَهُ عن رجفة اللذّة التي اعترتْكَ في الطفولةِ عند سماع عبارة: "انتعلَ الظلّ" بعد أن شرحها والدك: "انتعلت المطيّ ظلالها: يعني انتصف النّهار"...

هل تذكر شدّة سعادتك عندما كتبتَ في نصٍّ قديم في صغرك: "وما هو على العشقِ بضنين"؟...

بُعدُكَ الثاني: الرقم! ألم تجد نفس تلك اللذة وأنت تقرأ دروس الجبر وتحلّ تمارينها في أول سنة جامعية، قبل أن تتضاعف تلك اللذة وأنت تغرق في أبحاثك الجامعية في الرياضيات؟...

(نقطة نظام!... حاولتُ أن أستنكر: "سيّدتي: أنا متخصِّصٌ في علوم الاجتماع والإنثروبولوجيا، لا غير! لا علاقة لي بالرياضيات والأرقام!"... سخرَتْ من اعتراضي: "على غيري!"...).

بُعدُك الثالث: اكتشاف الماضي كما حصل فعلاً، وليس في صيغتهِ المتداولة. المسافةُ التي تفصل هاتين الرؤيتين في نظرك هي التي تفصل مقولة الكهنوت: "الإلهُ خلق الإنسان على شاكلته"، عن مقولة العِلم: "الدماغُ خلق الإلهَ على شاكلته"!...

يُغيظُك أن التاريخ محاصرٌ بِحُرَّاسِ الدِّين والعقائد!

شعارُك الجذريّ: "الثورةُ إعادةُ كتابةٍ للماضي بأثَرٍ رجعي!"؟...

بُعدُك الرابع: الخراب الذي يدمِّر اليمن! تحمل في أحشائك جرحاً اسمه: اليمن!... أنت جرحٌ متنقِّلٌ اسمُهُ اليمن!...

بُعدُك الخامس: تحلم بِالحرية المطلقة، الضياع، السفر الدائم، بِسفينةِ نوحٍ داروينية تكتشف بها العالَم، كلَّ العالَم...

تحت جلدك يسكن حوت "بالين" أبيض هَوَسُهُ طوافُ الكون!...

ثمّ أضافت: "هل نسيتُ شيئاً ما؟"...

أحرجَتْني تماماَ!... تساءلتُ: لماذا يدور حديثها حولي فقط، أنا الذي لا أميل إلى ذلك، وأطأطئُ رأسي بخجل إذا تسلّط حولي الضوء، أنا الذي عاهدتُ القارئ أن لا أسرِّب شيئاً من حياتي الشخصية في هذه الرواية، أنا الذي أجدُ لذّةً حقيقية غريزية في قضاء كل وقتي في سماع الآخرين والتفاعل معهم حول يومياتهم وآرائهم، والبحث الماكر أحياناً عن موادّ روائية خام في ما يحكونه؟...

من أنا لتهتمَّ بي كذلك؟ موضوعُ دراسةٍ لها؟

إلى أي جهاز استخبارات تنتمي هذه الحوريّة؟...

كنت مذهولاً أيضاً مما سمّتْهُ أبعادي الخمسة: لم تنسَ شيئاً!... (لماذا لم تتحدّث بدل ذلك عن أبعادِها الاثنين وعشرين؟)...

لعلي لم أحاول تلخيص نفسي ذات يوم، لكني لا أعتقد أن لشغفي في الحياة بُعْداً سادساً! أو ربما ثّمة بداية هوَسٍ جديد يمتلكني من سنتين أو ثلاث: الاحتباس الحراري، خراب العالم!...

نظرتُ إلى ساعة تليفوني الجوّال. آه، يلزمني العودة سريعاً إلى المنزل للتحضير لاحتفالات رأس السنة التي دعونا إليها عدداً كبيراً من الأصدقاء!...

حدثَ ارتجاجٌ ما في دماغي منذ بدء هذا اللقاء: بدلاً من أن أغادر المقهى نحو المنزل مهرولاً، أغلقتُ تليفوني الجوّال حتى لا يتَّصلَ بي أحد!...

ثمّة في الحقيقة نقطةٌ في الروح ينبثقُ منها ارتجاجٌ مدوٍّ لا يسمعهُ أحدٌ غيرك. يجتاح عصبونات دماغك غليانٌ كهروديناميكيٌّ صاعق...

يَنبثقُ من لاوعيك إعْصارٌ لم تعرفه يوماً، عزيمةٌ مفاجئة تقودك إلى أحد اختيارين: "إما أن ترمي بنفسك من الدور المئة إلى الأرض، أو أن تُهدِّم جدران حياتك!".

كلاهما عزيمة هروبٍ من موتٍ يقين. "عزيمةُ ومضات أملٍ وخرائب" مثلما قال أحدهم. عزيمة الاختناقاتِ العنيفة والرغبةِ العارمة في انطلاقةٍ جديدة!...

سألتُها لأُغَيّر منحى الحديثِ:

– من أنتِ أوّلاً، وما هي أبعادُ شغَفكِ؟

– سأضع من الآن بيننا خطّاً أحمر واحداً، لا غير: لا تسألني أيّ سؤال عن شخصي، لو سمحت!...

– ما اسمكِ على الأقل؟

– رجوتكَ قبل لحظة: لا تسألني أي سؤال عن شخصي!... سمِّني ما شئت!... إذا كرّرتَ ذلك فلن تراني مرّة أخرى: هذه آخر مرّة أنبّهك بذلك!...

استغربتُ بشدّة: حاجزٌ قاتلٌ، برزخٌ لا يبغيان!... ما السبب؟ هذه ليست عادة استخبارات أهل الأرض! لعلها تنتمي إلى استخبارات كوكبٍ في مجرّةٍ بعيدة!...

قلت لها سأسميك: "ح..."!

(ح، مثل حريّة. ح، مثل حب. ح، مثل حلم. ح، مثل حياة...).

ابتسمَتْ بعذوبة!...

نُقرِّرُ تناولَ العشاء في نفس هذا المقهى-المطعم!... نتحدّثُ خلاله بِلغةِ ونظراتٍ من يعرفان بعضهما منذ الأزل!...

تشتبكُ أصابعنا على المنضدة، برغبةٍ مشتركةٍ متناغمة، وكأنّا عاشقَان قديمان!...

أصغي إليها بقدسيّة: صوتُها مغسولٌ بالندى. أدغالٌ من الهواء الطلق تجتاح دماغي كلما أسمعه!...

تبدو لي أحياناً مزيجاً من أروع وأقدس وأجمل ما تمتلكه كلُّ معشوقات حياتي في نفس الوقت!...

أراهُنّ بلاوعي منصهراتٍ فيها معاً! ألم تقل هي نفسها، ذات يومٍ سحيق: "أنت: أوسان وشوقي وباسل معاً، في شخصٍ واحد، لا أقلّ ولا أكثر"؟...

خلقَتْني كما تشاء، أي كما أنا حقّاً! وخلقتُها كما أشاء، أي كما هي فعلاً! لذلك نعرف كلينا منذ الأزل، ومنذ قبل الأزلِ بقليل!...

نغادر المطعم لنعبر الشانزليزيه السابح في أضواء الليلة الأخيرة من رأس السنة وضجيج أفراحها. نمتزجُ ببعضنا أثناء المشي، وكأنّا اعتدنا ذلك منذ زمن!

أخاطبُها بكل بساطة بأحدث كلماتٍ وصِيَغٍ ومصطلحاتٍ حميميّة هامستُ بها من عشقتُ في حياتي!

أضيف أيضاً كلمات جديدة أخرى تتفجّر في دماغي كألعاب نارية، لم أستخدمْها ولم تخطرْ ببالي يوماً!...

ألاحظ مذهولاً من فرط السعادة: تتسرَّبُ في همساتنا كلمات حميمية يحتاج العاشقان لِسنين من الغرام والتتيّم اليوميّ للهمس بها بشرعيّة!...

ثمّة لحظةٌ جنونيّة مباركة يختفي فيها الشعور بالتناقض بين الماضي والمستقبل، بين الحلم والواقع، بين الخيال والحقيقة، بين الممكن وغير الممكن، بين معشوقةٍ جديدةٍ وقديمة!... لحظةٌ طائشة شعرتُ فيها برغبةٍ عنيفة في أن أمتلك الكون، في أن تنمو في أقدامي أجنحةٌ لأرقص، لأطير، لأخرج من سجنَي الرقم والكلمة، من حلبة قتال معشوقاتي القديمات، من أبعاد حياتي الخمسة!...

نُقبّل بعضنا في منعطف طرف الشانزليزيه المؤدي إلى شارع ماتينيون!... قُبلُها أدغال من العصافير تملأ الثغر، تعيدُ تأثيثَه و"فرمَتَتَهُ"، تمحو آثار تاريخِ قُبَلِهِ السابقة، تستولي على كلّ ذاكرته، تتحوّل إلى حاجةٍ فيزيولوجية دائمة: غيابُ قُبَلِها عن فمي بين الآن والآن يفجِّرُ أنيناً جوفيّاً حادّاً لم أعرفه بهذا العمقِ والعنف من قبل!...

مثل عاشقَين قديمَين لم يريا بعضهما من أَمَد، نقف لِنتعانقَ على طول الطريق بشوقٍ وجوعٍ ولذّةٍ كثيفة...

نتَّجهُ إلى فندقها الميثولوجي: لوبريستول (في قلب الشارع الثري: فوبور سانت أونوريه) الذي يفضي إليه شارع ماتينيون، باتجاه اليمين!...

ها هي "ح..." في أحضاني، في غرفتها الثريّة في فندق لوبريستول! مفروشةٌ على السرير تحتضنني بِرقَّةٍ وضراوةٍ وسعادةٍ عميقة هادئة، كأنّنا عاشقان قديمان!...

غرفةُ الفندق (التي سكنَتْ بها، كما عرفتُ، الممثلة السويدية أنغريد برغمان!... ما أروع أن تنام في سريرٍ نامت عليه قبلك أنغريد برغمان) شاسعةٌ أنيقة! على منضدةٍ في طرفِها حقيبةُ سفرٍ حمراء جميلةٌ جدّاً.

على طاولة الغرفة كُحلٌ من ماركة فرنسية شهيرة، أحمرُ شفاه، عطر باجاتيل سانت لوران، طابعةٌ صغيرة، كومةٌ من الأوراق، وكمبيوترٌ جوّال تسيل منه برامج موسيقية اختارتها بعناية: فيروز وهي تغنّي جبران خليل جبران، جون فيرا وهو يغنّي أراجون...

أقبّلُ بِنَهم عينيها، أنفَها، وجنتيها، شفتيها... تستيقظُ كلُّ الكلمات الميّتة في دماغي!... تمصُّ ريقي وأمصُّ ريقها بظمأ، يشربُ كلٌّ منا كلمات الآخر، تتوحّدُ لغتُنا، إيقاعنا!...

بشرتُها اللميسة البيضاء رقيقةٌ كجناح فراشة. لا يتخلَّلُها وشمٌ أو نمش...

أرهبُ المفاجآت: كانت قد نقشت على جسدِها كلمات ورسومات ورموزاً وموتيفات صغيرة وعبارات في غاية الجمال، في كل الاتجاهات، مطبوعةً على الكمبيوتر بخطٍّ فنيّ مدهش وألوان مثيرة جذّابة!...

أستحضر لوحات مطعم حورية البحر في كوبنهاغن، ونقش الخضاب على الأصابع الطويلة الفاتنة لأروى في جبلة، على معصمها... أشعرُ بالدوخة. دوخةٌ لذيذةٌ مباركة!...

جسدُها كتابٌ مفروش أقرأهُ في نفس الوقت الذي نتأرجحُ فيه في سكرةِ العناق، أروعُ لوحةٍ فنيّةٍ حيّة، سحرٌ خالص، سحرٌ ما بعده سحر!...

تفترسُني الشهوة وأنا أعبرُ جسدَها بنَهمٍ وتقديسٍ وذهول، اقرأهُ وأتلذّذ بكل نقوشه!...

على نهدِها الرقيق الممتلئ الأيمن، باللون الأخضر: "والذي حارتِ البريةُ فيه"، وعلى الأيسر: "حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ"... أتذكَّرُ صاحب هذا البيت الخالد، أبا العلاء المعري!...

هي تجثو على ركبتيها، رشاقةٌ مثالية، جسدٌ نقيٌّ ناصعٌ كرُخام، عاصفةٌ في الخاصرة!...

تنظرُ إلى المرآةِ المواجهة لنا. لا تحبُّ أن نمارسَ العشق دون مرآةٍ مواجهةٍ نرى فيها وجهَينا وجسدَينا معاً، في نفس الوقت، كما خَلَقَنا الله تماماً!... أشاركُها نفس هذه الروح الشفّافة!...

المرآة شاسعةٌ حديثةُ التصميم، تعكسُ الصورةَ بجلاءٍ أشدّ وضوحاً وأكثر دقّة!...

أدخُلُها على مرآتها ومرآتي. يتأرجحُ نظري بين عينيها في المرآة وجسدِها الذي أحتويه!...

أهيم زجزاجيّاَ بينهما (جسدِها والمرآة)، أنسابُ داخِلها على إيقاعِ تماوجِ نقوشِها وكلماتِها عليهما!... أشعرُ بسكرةٍ ودوخةٍ لم أعرفهما من قبل!... يحوِّلنَا هذا السياق جمرتين لافحتين!...

أستحضرُ أبا العلاء المعري في لجّة العشق!... ثمةَ سحرٌ غير اعتيادي في استحضارِ أبي العلاء المعري في لجّة العشق!... كيف أدركَ ذلك العبقريُّ الضريرُ فحوى نظرية التطور والارتقاء دون أن يحتاج لِسفينة بيجل (التي طاف بها تشارلز داروين حول الكرة الأرضية خلال خمس سنوات، قبل أن تختمر وتترعرع في عصبونات دماغه تلك النظرية)، ودون أن يعاصر اكتشافات العلم الحديث التي أجْلتْ كيف تفجّرت الحياة من الجماد قبل نحو أربعة مليارات عام، عبر سلسلة من التفاعلات الكيماوية!...

بيتُ شعرٍ واحدٍ يختزلُ نصفَ العِلم (قاله شاعرٌ عربيٌّ ضرير، لا يكادُ يعرفه أحد في هذه المعمورة!) منقوشٌ على نهدَي هذه الشابةِ الخارقةِ الجمال والألمعية، هذه الباحثةِ في الكيمياء التي استحدثتْ فيّ حيواناً من جماد، فجّرتْ فيه ينابيع هورمونات وسوائل صدَفيّة، أدمتْهُ شبَقاً وشهوة!...

تذكّرتُ تشارلز داروين في أوّل أيام رحلاته على بيجل، وهو يقول: "هذه الرحلة تمنح الأعمى النظر!"... ضريرُنا أبو العلاء، عزيزي تشارلز داروين، أمتلك البصيرةَ دون حاجةٍ لِرحيل!...

أهيمُ في رحلة سفينة بيجل! أمور في أعماق "ح..."، مثل سفينة! تُفضِّلُ مثلي إيقاع السفينة أثناء العشق على أيِّ إيقاعٍ آخر!... أستعيدُ تقدُّمَ بيجل فوق تجاعيد الأطلسي باتجاه أرخبيل الجلاباجوس في أميركا الجنوبية، أستراليا، جُزُر كوكوس في المحيط الهندي، رأس الرجاء الصالح، ثمّ أميركا الجنوبية من جديد، قبل العودة أخيراً إلى بريطانيا!...

تموّجٌ بحريٌّ طويل. انسيابٌ لا يريد أن يتوقّف! هي، مثلي، شديدةُ الحضورِ خلاله. تعشقهُ بجنون. يزيدُها تهيُّجاً ومبادرات وتألقاً!

جسدُها مبلّلٌ بالرغبة، متهيّجٌ بشدّة!

ترفعُ رأسها، تديرهُ نحوي لِتراني أمامها وليس في المرآة. تحبُّ جسدي، كما تقول. لبوةٌ إلهيةٌ بعينين مكحّلتين باسمتين! تتأرجحُ زجزاجيّاً هي الأخرى بين جسدي وصورتهِ في المرآة!... أعشق أبا العلاء المعري! أعشق تشارلز داروين!...

تشعرُ "ح..." بأني أهيم بعيداً وأنا أغزوها في الأعماق بِرِقَّة. تسألني: ماذا أقرأ حاليّاً على جسدها؟... ابتسم دون أن أردّ. أحملقُ في مخملية عينيها ونهمهما الرقيقين قبيل اللّذة.

تحاول أن تُخمِّنَ ما أقرأُ على جسدِها وهي تحدِّقُ في منظرِ وجهي في المرآة، أو تدرسُ إيقاع توحُّدي بها... كلما غبتُ عنها ذهنيّاً، حاولتْ أن تُخمّن ذلك، كلما أعادتني إليها بِحركةٍ فنيَّةٍ خفيفة، انصهر لاوعيانا وجسدَانا أفضل، أطولِ!...

أقرأ عمر الخيام على خاصرتها، باللون الورديّ:

لَبستُ ثوبَ العيش لم أُستشَر
وحرتُ فيه بين شتّى الفِكَر
وسوفَ أنضو الثوب عنّي ولم
أدرك لماذا جئتُ، أينَ المقر

يا للتناغم بين بيت أبي العلاء وهذه الرباعية العميقة للعظيم الخالد عمر الخيام! كلاهما لا يميلان إلى الحديثِ اليقينِ عن اتجاهٍ للحياة مُخطَّطٍ بشكلٍ مسبق، أو عن معنىً ما لِبدايتها ونهايتها...

أسكرُ في التحديقِ بخاصرةِ "ح..." والتأملِ في أبياتها!... ثم أدركُ أخيراً أنها نَقشتْ على خاصرتِها ونهديها ومعصميها وساقيها وفي أنحاء أخرى من جسدها الملائكي الرهيف عبارات تُجسِّدُ شخصيّتي وشغفي في الحياة، أو ما سمَّتْهُ "أبعادي الخمسة"!...

أنسحبُ منها لأعانقَها وأتوحدَ معها وجهاً لِوجه. مرّتْ آلاف السنين قبل أن يرتقي الإنسان الحديث، هومو سابيانس سابيانس، من وضعنا الحيواني السابق إلى هذا الوضع المتحضّر، المتماوجِ على إيقاع أرقى وأعظم وأقدس ما صنعهُ الدماغ البشري (الذي وصل إلى أعلى درجة كماله قبل نحو خمسين ألف سنة): القُبلة!...

تسكرني قُبلُها وهي تتناغمُ وتوجِّهُ ميكانيكا توحُّدِنا، تزيدهُ عبثاً وجنوناً!... أنسى المعري، داروين، وعمر الخيام أيضاً!...

أموتُ في رؤية عينيها مفتوحتين أمامي أثناء امتزاجِنا! أنزلُ مع ذلك لأقبِّلَ الشطرَ الأول من بيت أبي العلاء. أقبِّلُهُ بِرقَّة. أحاولُ شربَه. ألحسهُ بشراهة. يزداد تهيُّجنا بشدة. أنتقلُ إلى الشطر الثاني... لا أستطيع مغادرةَ نهدَيها، أعشقُ تقبيلَ شطرَي بيت أبي العلاء عليهما ومضاجعتهما دون توقّف!...

أنتقلُ إلى الأبياتِ المكتوبةِ على صدرِها، بطنِها، خاصرتِها، رخامِ أعلى فرجِها... ألتهمُ كلَّ ما هو مكتوبٌ عليها. تتغلغلُ كلماتُها في ثنايا جسدي، تسيلُ في عروقي، تذوب في أحماض نواة خلاياي، تنساب في التيارات الكهروكيماوية لِعصبونات دماغي وألياقي العصبية!...

أشعر بأن رِتلاً من الكلمات يصعدُ من أعماقها، يعبر ذَكَرِي ودمي باتجاهِ دماغي، ليهبطَ نحو يدي... سينهمرُ من قلمي بعد قليل!...

أنزلُ لِتلحيسِها طويلاً! أشربُ رذاذَ الكلماتِ اللذيذةِ الشهيّةِ التي تُبلِّله! أعشقُ فرجَها حدّ الموت! أهامسُها في غمرةِ التلحيس: جمالُ فرجكِ واحمرارُهُ الأرجواني يزدادان سناءً بعبارة رامبو المنقوشةِ في عليائه: "عظامي اليوم اكتست بجسدٍ جديد، كُلُّهُ عِشق"...

يُثيرها هذا الإطراء! تطلبُ أن أعيد ترديدَهُ مراراً! أكرّرُهُ وأنا أُقبِّلُ صدغيها وأذنيها! تدغدغُ كلماتي طبلةَ أذنِها، تتزحلقُ منها باتجاهِ دماغِها! تنطبعُ إلى الأبد على عصبوناتِهِ بِلونٍ أحمر أرجوانيٍّ سَنِيّ، نفسِ احمرار فرجِها الأرجواني المقدّس!...

يُسكرني اضطرامُ رغباتِها المتصاعدة الآن!...

تنزلُ، تركعُ على خاصرتي لِتقبيلي بمنهجيّةٍ ورغبةٍ وتلذّد! تمصُّني لِسعادتِها قبل كل شيء! أراقبُها بكلِّ تركيزٍ وإعجابٍ ودهشة! أتنفّسُ وأفكِّرُ على إيقاعِ كرِّها وفرِّها، انسيابِها وتوغُّلِها، رقصات وتموّجات لِسانها في علياه، تشبُّثِ وانزياحات أصابِعها في أرجائه!... تهطلُ في دماغي أمطارٌ غزيرة من الكلمات، أدعو الباري عزّ وجل أن لا يتوقّف هطلُها...

تُسكرني كما لم أسكر يوماً!... أستوعبُ في ذروةِ سكرتي وأنا أتأمَّلُها تتفنّنُ في أوركسترا القُبلِ الحميمية (”ح...“ تعشقُ سائليَ الصدفِي، كوثرَها المفضّل) أن عليّ أن أنقشَ كلَّ أبعاد شخصيّتها الاثنين وعشرين أيضاً على بشرتي مثلما نقَشتْ أبعادي الخمسة على بشرتِها!

علينا أيضاً أن ننقش أجمل وأعبث وأدهش العبارات على كلِّ مليمترٍ مربّعٍ من جسدينا معاً!...

علينا أن نغتسل بأحلى الكلمات، أن نتنفَّس الكلمات، أن نتناسل كلمات، أن نكون كلمات!...

أسمع عبارة أغنية بوب ديلان تنساب من كمبيوترها الذي يمخر برنامجه الموسيقي من محيطٍ إلى محيط: ”من ليس مشغولاً بالولادة، فهو مشغولٌ بالموت“ أزدادُ انشغالاً بعدم الموت!...

أعودُ لألِجَ مضيقَ الذاكرةِ الأرجواني، أعبرَ خليجَ الحِبر الداكن، باتجاه جزيرة الخَلْق والخلود! أشعرُ بأني أكتبُ في أعماقها وأنا أمورُ فيها لا ريثٌ ولا عجلُ... أرقص، أصلي، أكتب، أكتب، أكتب... لا أجدُ فرقاً بين الرقص والصلاة والكتابة...

أسألها لماذا لا توجدُ عبارةٌ واحدةٌ منقوشةٌ على ساعديها، وردفَيها؟...

تمدُّ يدها، ونحن في خضمِّ الاندغام (ما أندى أناملها!)، لتأخذَ من منضدةٍ مجاورةٍ للسرير يراعاً وحبراً أزرق (جلبتْهُما من فينيزيا) لأنقشَ بهما على ردفيها ما أريد أثناء التوحُّد!...

ثم تقول: لا!... تخاف أن يُعكِّرَ خطّي اليدويّ غير المهنيّ لوحات الخطوط المطبوعة على جسدِها بأرقى الخطوط العربية الأنيقة: خط الثلث، النسخ، الكوفيّ!...

تنقلُ كمبيوترها الجوال من المنضدة إلى السرير! أكتبُ عبارات ملوّنة أودّ إلصاقها على ردفيها وصدرِها وكتفيها وساعديها ومعصمها! تطبعُ هي أيضاً عبارات تريدُ إلصاقها على ساعدي، وعلى بعض السنتيمترات المربعة الخالية من الشَّعر في جسدي!...

تأتيني الكلمات والعبارات التي نسيتُها، والتي لم تخطر ببالي يوماً، يانعةً غزيرةً على بساطٍ سحريٍّ يعبرُ، باتجاه جمجمتي، نافذةَ الغرفةِ المطلّةِ على قلب باريس المتوهجِ السابحِ في ضجيج احتفالات رأس السنة!...

أخرجتُ عباراتي من طابعتها الصغيرة على ورقٍ لاصق مُلَوّنٍ باللون الأحمر، بخطِّ الثلث، المستعمل ِفي تزيين المساجدِ والمحاريبِ والقبابِ وعناوين

الكتب، والذي لا يخلو منَ أرابيسك وَزهور وأشكال هندسيّةَ!...
تذكّرتُ ابن مقلة مصمِّمَ هذا الخط! ثمة متعةٌ غيرُ عاديّةٍ أيضاً في تذكّرِ ابن مقلة (الذي نسيتهُ من أبَد) في هذه اللحظات!...
نظرتُ إلى الساعة! منتصف الليل!...
العالَمُ في أوجِ سعادة بدء العام الجديد ونحن عاريان كما خلقنا الله، منهمكان بتضريجِ جسدَينا بعباراتٍ قوسِ قزحيّة عاشقةٍ ولهانة!...
منتصفُ ليلِ رأس السنة! لا أسبح هذه المرّة في خليج عدَن، كما اعتدتُ في رأس كلِّ سنة في هذه اللحظة المقدّسة! أشعر رغم ذلك بأن جسدي جديدٌ طازجٌ نشيط كأني خارجٌ للتو من السباحة في ذلك الخليج الساحر!...
أعودُ إليها من الخلف بحيوانيةٍ رقيقة، كما عاد داروين إلى أمريكا الجنوبية من جديد قبل اختتام رحلة بيجل!...
ألصقُ على ردفِها الأيمن المتكوّرِ الرشيق النصفَ الأولَ من هذه العبارة: "أنا وأنتِ لا نمارسُ العشق. العشقُ يُمارِسُنا!"...
أجدُ لذّةً لم أعرفها من قبل وأنا أستغرق في نقش صفحتَي ردفيها ومنحنياتها الموجيّة الناعمة بحبرِ فينيزيا الأزرق تارةً، وبعبارات الكمبيوتر الملوّنة تارةً أخرى!...
– حُبِّي!... ماذا كتبتَ؟، تسألني بعينين أراهما في المرآة ناعمتين باسمتين يجليهما خيطٌ كُحليٌّ رهيف!...
– "أنا وأنتِ لا نمارسُ العشق".
ألصقُ على ردفِها الأيسر بقيةَ العبارة.
– عِشقي!... ماذا ألصقتَ؟، تسألني...
– "العشقُ يمارسنا!"...
بدأ العشقُ يُمارِسُنا فعلاً، لم نعد نمارسُه! تناغيني بأعذب الكلمات، عيناها تنضحان رغبةً ساخنة، نتفاعلُ بعنفوانٍ وتهيّجٍ خرافي! نحن مجنونا كلمات، مجنونا توحُّد! خُلِقنا لِنظلَّ مُندغمَين إلى الأبد!...
أشعرُ الآن بأن الكلمات تخرجُ من حنايانا لِوحدِها (كلماتٌ جديدةٌ بلغةٍ حرّةٍ ساحرةٍ لا أعرفها) تنطبعُ فوق أجسادنا بالألوان الملائمة لوحدِها، تتفجّرُ على إيقاعِ نزوعِنا ورغباتِنا العنيفةِ الدائمةِ للتوحُّدِ والقُبل، تترنّحُ في شهقاتِ حبالِنا الصوتية، في بريقِ وابتساماتِ أعيِنِنا!...
الكلمات عصافيرُ تتماوجُ في شرايينا!... نغتسلُ بشلّالٍ من الكلمات، نسبحُ في بحرٍ من الكلمات، نتنفّسُ كلمات... الكلماتُ تسيلُ فوق كل شبرٍ من أجسادنا، تزغردُ في مسمعَينا، ترقصُ في نظراتنا، تتعانقُ، تتوحّدُ، تنصهرُ، تتغيّرُ، تتجدّدُ، تقاومُ حركة الزمن، تهزمُه!...
لذّةٌ نقيةٌ، كثيفة، بطولٍ مفاجئ. لذّةٌ خرافيةٌ تأتي من تخوم المستحيل! استغرابٌ حميدٌ يُهيّجني: هذه اللذة تتجاوزُ مدى لذتي القصوى، مدى اللذة

البيولوجية التقليدية، لا تتوقف. ربما لن تتوقف. كل خلاياي ترتعشُ طويلاً، حدّ الرجفة، التشنّج... تشنّجٌ مبارك!...

نومٌ إلهي قبيلَ الفجر! "نتشعبطُ" خلاله ببعضينا كجسدٍ واحد!... نفتتحُ العامَ الجديد بتوحُّدٍ قدسيٍّ من صبحَ الله الباكر، باندماجٍ خالدٍ "على الريق"، كاد أن لا ينتهي!...

أعشقُ روائحَها الدافئةَ في الفجر!... دوخةٌ شرِسةٌ، عنيفةٌ، همجيّة!...

تُجهِّزُ حقيبتَها للسفرِ إلى نيكاراغوا لإكمالِ نصٍّ بدأتْ كتابته!... أسألُها رقمَ تليفونها! ترفض! تذكِّرُني بإصرارها على أن لا أطلب منها أيةَ معلومةٍ شخصية!...

أسألها: "متى سنلتقي؟"... تقول لي إنها في نهاية كل لقاء ستترك لي على ورقةٍ موعدَ اللقاءين التاليين ومكانَهما!...

أفهمُ من ذلك: إذا لم أكن في أحد الموعدين، فلن أراها بعد ذلك إلى الأبد!... ثم تتركُ لي على ورقةٍ موعدَ لقاءينا القادمين ومكانَهما:

١) فندق لابيناسولا (خمسة نجوم) في قلب الحيّ الميثولوجي الشهير، الحيّ الخامس، Fifthe Avenue، نيويورك...

٢) فندق عدَن، جولة حيّ خورمكسر، عدَن.

لا أعرف الأول، أما الثاني، على بعد بضعة كيلومترات من مسقط رأسي، فقد قضّيتُ فيه أروع أسابيع حياتي وأحلاها وأغزرها... أمامه "جبل حديد" الذي تهشمت على إحدى صخورهِ جمجمة حبيبي شوقي...

في الأوّل اكتشافٌ وصعودٌ نحو الأعالي، وفي الثاني حجٌّ وغوصٌ في الأعماق!... استحضرتُ عبارتين كتبتُهما في نصٍّ ما ذات يوم: "كلَّما نصعدُ الأعالي، نكتشفُ عمقَ الذات"، و"ما إن وصلنا نهايةَ الكهف حتى شعرتُ بفرحٍ هائلٍ. شعرتُ بأنَّ كلَّ خلايا جسدي تخلَّصتْ الآن من أغلالِها، وأنني أصبَحتُ حُرَّاً طليقاً. صرتُ مطاطيّاً، هوائياً، رجلاً شنجميّاً بِجَسَدٍ غضروفيٍّ لَيِّن. لا أكادُ أُصَدِّق: ها أنذا بدون سلاسلِ الخوف والخضوع، أسيرُ وأُفَكِّرُ بلا قضبان!"...

استحضرتُ قبل هذا وذاك نيتشه، وهو يجلي فكر ديونيزوس، عندما يتحدّث عن النفس التي تمتلك السلّم الأطول والتي تستطيع النزول إلى الأعماق...

تغادر "ح..." غرفة الفندق التي أواصل استئجارها وحدي بضعة أيام لأتنفّسَ بقايا روائحها أطول وقتٍ ممكن!...

أكتشفُ أني مع "ح..." أتعلّمُ العشقَ الهوائي، عشقَ القمم، وليس عشقَ الأطلال والسويداء والحرقة واللوعة، عشقَ المناكفات على ماضٍ لا نستطيع إعادة خلقِه، عشقَ الغيرةِ وحروب معشوقات حياتي في زمن ما قبل "ح..."!...

هي الخلاص وليس الهوَس. الهوَس نقيضٌ للخلاص!... عشقُ "ح..." عشقٌ ينظرُ إلى الأمام.

(فيكتور هوغو: "شعاري: إلى الأمام أبداً! لو أراد الله أن ينظر المرء إلى الوراء، لجعل له عيناً خلف الرأس!").

***

أخذتُ كراسةً بيضاء ترافقني دوماً، لم أكتب عليها كلمةً واحدة منذ سنة! "شخطتُ" عليها بقلمٍ يتقدّم بسرعةٍ "خطّيّةٍ" فاجأتني:

"ها أنذا أقطعُ حبلَ السُّرة الذي يربطني بنفسي. أولدُ من جديد. أفجّرُ بالديناميت ثوابتَ حياتي، أطيحُ ثنائياتي القدريّة جميعاً بنفس الضربة القاضية، أتحرر من سجن كلِّ عشقٍ قديمٍ، إلى الأبد!

أتحرر من سلطة الرقم وأوهامِ الكلمات، إلى الأبد!

أتحرّر من حرب داحس والغبراء إلى الأبد أيضاً!...

ها أنذا أخرج من نفسي، أي من الحرف والرقم! رقص الأحرف وتراتيل الأرقام غوايتان عن الحياة!...

"كي تولدَ من جديد يلزمُ أن تموتَ أوّلاً"، قال سلمان رشدي! وأنا قد مُتُّ فعلاً، في نفس اللحظة التي قرّرتُ فيها دخول سينما "الليدو" وحدي في شارع "الشانزليزيه" الباريسي، لأشاهد فيلم "معشوقتان"!...

بدأتُ بعدها رحلةَ الضياع (يبدأ المرءُ الطريقَ عند ضياعه. ما دام لم يضع، فهو لم يبدأ الطريق، لم يعرفه!)...

بدأتُ مغامرةَ حياتي الواحدةَ الإحدى التي أكتبُها في نفس لحظة عيشها الآن، على الهواء مباشرة!...

سحرٌ لدُنيٌّ يعيد صياغتي كليّةً منذ لقاء "ح..."! كلما أردتُ أن أهجر الكتابة مثلاً (أنا الذي قرَّرتُ أن أتحرر من هوَس الكلمات إلى الأبد!)، انسابت الكلمات على معراجٍ سندسيٍّ يهبط من عليّين إلى قعر دماغي، لتسيلَ في شراييني، قبل أن تطفحَ من قلمي كقصيدة رائقة شفّافة، بدون نهاية، تترجمُ ذاتي ببراءةِ ابتسامة طفل، بنضارةِ السعادات القديمة!...

كلُّ ما أكتبه الآن يخرج لوحده من قعر دماغي، في صيغته الأولى والأخيرة: لأول مرة في حياتي أكتب كلماتي دون تصحيح أو تشذيب أو إعادة نظر!

تصل الكلمات إلى قلمي بدفقٍ "خَطِّي"، لا تحتاج إلى أيّة مراجعة أو "تمليس"!

شيءٌ لم يحدث في حياتي قبل اليوم، أنا الذي "أعْرَقُ" فوق كل صفحة أكتبها!...

ثمة إعجاز: لم يعد هناك برزخٌ يفصل أحاسيسي وأفكاري عن الكلمات التي تُعَبِّرُ عنها.

أحاسيسي وأفكاري تلدُ مباشرة في دماغي في هيئة كلمات!...".

استحضرُ "ح..."!... أتذكّرُ حوارَنا في المقهى، عبورَنا الشانزليزيه، انصهارَنا... أكتبُ، أكتبُ، أكتب...

لِصوتها نسيجُ الكلمات وألوانُ الأحرف. لذلك أعشقُه. الكلماتُ في قلمي لا تلدُ إلا عند سماعه. لا يمكنها أن تحيا دونه. عندما لا أسمعها تتكلم، لا تأتيني

الكلمات. عندما لا تأتيني الكلمات، لا أتنفس، أشعر بالبرد، بالضعف، بالموت...

أتذكَّرُ نبرات كلماتها أثناء العشق: جسدي يُشحنُ بالعصافير!...

أنظر إلى "ورقة الطريق" التي تركتْها لي: فندق لابيناسولا، الحيّ الخامس، نيويورك. فندق عدَن، حيّ خورمكسر، عدَن...

أستحضرُ للمرّة المليونِ آخر عبارةٍ لأروى في المقبرة: "تذكّرْ: بدأتُ حياةً جديدة!... هل تعرف ما تعني: حياةٌ جديدة؟"...

تحوّلتُ إنساناً آخر! شيءٌ ما انفلقَ في دماغي! قطيعةٌ جذرية! حَدَثٌ واحدٌ أحد اندلع البارحة، "أخرجَ الحيّ من الميت"!... أرتجفُ من تصوُّرِ ذلك! لم أعد أعرف نفسي! لا يهمّ، لأني صرتُ إنساناً آخر تشكّلَ جنينيّاً في رُحْم: "بدأتُ حياةً جديدة!" وَوُلِد من جديد يوم قرّر دخول السينما لِوحدِه!...

أعيدُ قراءةَ ما كتبتُ قبل قليل:

"كي تولدَ من جديد يلزمُ أن تموتَ أوّلاً"، قال سلمان رشدي! وأنا قد مُتُّ فعلاً، في نفس اللحظة التي قرّرتُ فيها دخول سينما "الليدو" وحدي في شارع "الشانزلزيه" الباريسي، لأشاهدَ فيلم "معشوقتان"، لأقبرَ معشوقتين، لأراهما من جديد في واحدةٍ إحدى تخلقُ الحيَّ من الميت وتخلقُ الميّت من الحي، قالت لي ذات يوم ونحن في مقبرة: "بدأتُ حياةً جديدة!"...

أرتِّلُ، على نفس لحن أغنية بوب ديلان، آيتي المفضّلة: "ما جعل الله لرجلٍ من قلبينِ في جوفه، دون ثالثٍ يرمي بهما في سلّة المهملات!" أهديها إلى روحي التي قضتْ نحبَها!...

أخرجُ للتجوّلِ في الشوارع في هذا اليومِ الأول من العام! أكاد أصرخُ من السعادة! دماغي ممتلئٌ بالعصافير! للسحب والأشجار وانعكاسات نهر السين ألوانٌ جديدة! للنسماتِ الباردةِ روائح لذيذةٌ عبقة! قطائفُ صَدَفِيّةٌ تملأُ السماء! ألوانٌ خضراء وزرقاء ووورديّةٌ يانعة تنبثقُ من كل مكان! مرحٌ ورغباتٌ عنيفةٌ في كل النظرات!...

أسمع زقزقة العصافير بأُذنٍ جديدة! أسبحُ في سيمفونيّتها، كأني في غابةٍ استوائية!... أسمعُ هدير أمواجِ المحيط تتكسّر على الشاطئ هنا، دون توقّف، في قلب باريس. خليط زقزقة العصافير وهدير الأمواج لا يُفارق أذني، يُسكرني، يُسكرني حقّاً...

روائح الأشجار والورود العبقة تهاجمني بعنف من كلّ مكان!...

أمشي طويلاً محاذياً نهر السين! أراقب تأرجح ظلال العمارات القديمة والأشجار والسحب فيه بغبطةٍ جديدة!...

أرمي في أعماقه بكمبيوتري المحمول، المشحونِ بالأرقام والأحرف! أنتظر حتى تتبدّد آخر أمواج سقوطه على تجاعيد النهر، حتى تذوب آخر أحرف ذاكرته الإلكترونية وقرصهِ الصلب بين ظلال العمارات القديمة والأشجار والسحب...

اِلآن، والآن فقط، أشعرُ بأني تحرّرتُ من نفسي تماماً!...

أستعيدُ كلماتٍ لشاعرٍ فرنسيٍّ نسيتُ اسمه: "تعزَّ أيّها القلب الكئيب وكفَّ عن الشكوى، فوراء الغيوم لا تزال هناك شمسٌ مشرقة"!... عبارةٌ ساذجة، تفتح النفس مع ذلك!... لم أعد أحتاجها لأن في قلبي مليونَ شمسٍ مشرقة، وفي دماغي أضعاف ذلك، لأني "أرتشفُ حليبي من ضرعِ النور مباشرةً"، كما يقول نيتشه!...

أعيد قراءة خريطة الطريق بخطِّ "ح..." الراقص: فندق لابيناسولا، الحيّ الخامس، نيويورك. فندق عدَن، حيّ خورمكسر، عدَن!...

تراودني بعض المتواليات الحلزونية المنطقية التي تقود حياتي كبوصلة: "كي تجيد الكتابة يلزم أن تجيد القراءة، كي تجيد القراءة يلزم أن تجيد الحياة!" (أهدي ثوابها بالمناصفة إلى روحِ ثُلثِي المهزوم، شوقي، وروحِ ثُلثِي الحزين، أوسان)...

أرتّل سلمان رشدي: "كي تولدَ من جديد يلزمُ أن تموتَ أوّلاً" (أهديها إلى ثُلثِيَ المجنون، باسل)...

وأستحضرُ أوسان الذي قال: "أروى، حبيبتي، هي الماء!" (أهديها إلى ماء حياةِ أوسان: ليلى!)...

روان – القاهرة – باريس، ١ مارس – ٣١ مايو ٢٠٠٨
روان – إسطنبول – بيزوس، ١٥ يونيو – ٢٧ يوليو ٢٠٠٩
موسكو – سانت أونتونيو (تكساس)، ١٥ سبتمبر – ١٥ أكتوبر ٢٠٠٩
غوادلوب – روان ٢ فبراير – ١٧ أبريل ٢٠١٢

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

ثمّة نساء لا يمكن لرجل إلا أن يعشقهن. أروى امرأةٌ فاتنة تجمع أصدقاء الطفولة، أوسان وشوقي ومنيف وباسل، في حلبةٍ واحدة للمنافسة على حبّها. إنها «هيلين الإلياذة» التي قامت حرب طروادة من أجلها. لكن الحرب الطاحنة بين أصدقاء الأمس تتفجّر هنا بتآمرٍ قاتلٍ أصم، دون ضجيج... +++ أوسان يقع في غرام أروى التي تزوجت من منيف، وباسل يحاول الدخول على الخط والإيقاع بين الثلاثة الآخرين. فيما يظلّ شوقي عاشقاً سريّاً لا يتزحزح. المرأة المشتهاة التي لا يستأثر بها أحد من الأصدقاء، تبقى بين كلِّ ذلك أسيرةَ أخيها رضوان التي تتنفّس حبّه مع كل نسمة!... +++ بين العشق المركّب والحبّ الأخويّ الغامضِ جدّاً تتأرجح نوازع أروى وشهواتها. تمتلك عشّاقها وتأسرهم، تحبُّهم وتحتقرهم جميعاً...

نبذة عن المؤلف

حبيب عبد الرب سروري كاتب وروائي يمني. بروفيسور في علوم الكمبيوتر بقسم هندسة الرياضيات التطبيقية، كلّية العلوم التطبيقية، روان، فرنسا.

كتب أخرى للمؤلف

«الملكة المغدورة» - «عرق الآلهة» -»دملان» - «طائر الخراب» - «تقرير الهدهد» - «همسات حرّى من مملكة الموتى» - «شيء ما يشبه الحب» - «قي اليمن، ما ظهر وما بطن»